

2274.87653.3598
al-Shatti
Majmuat abhath

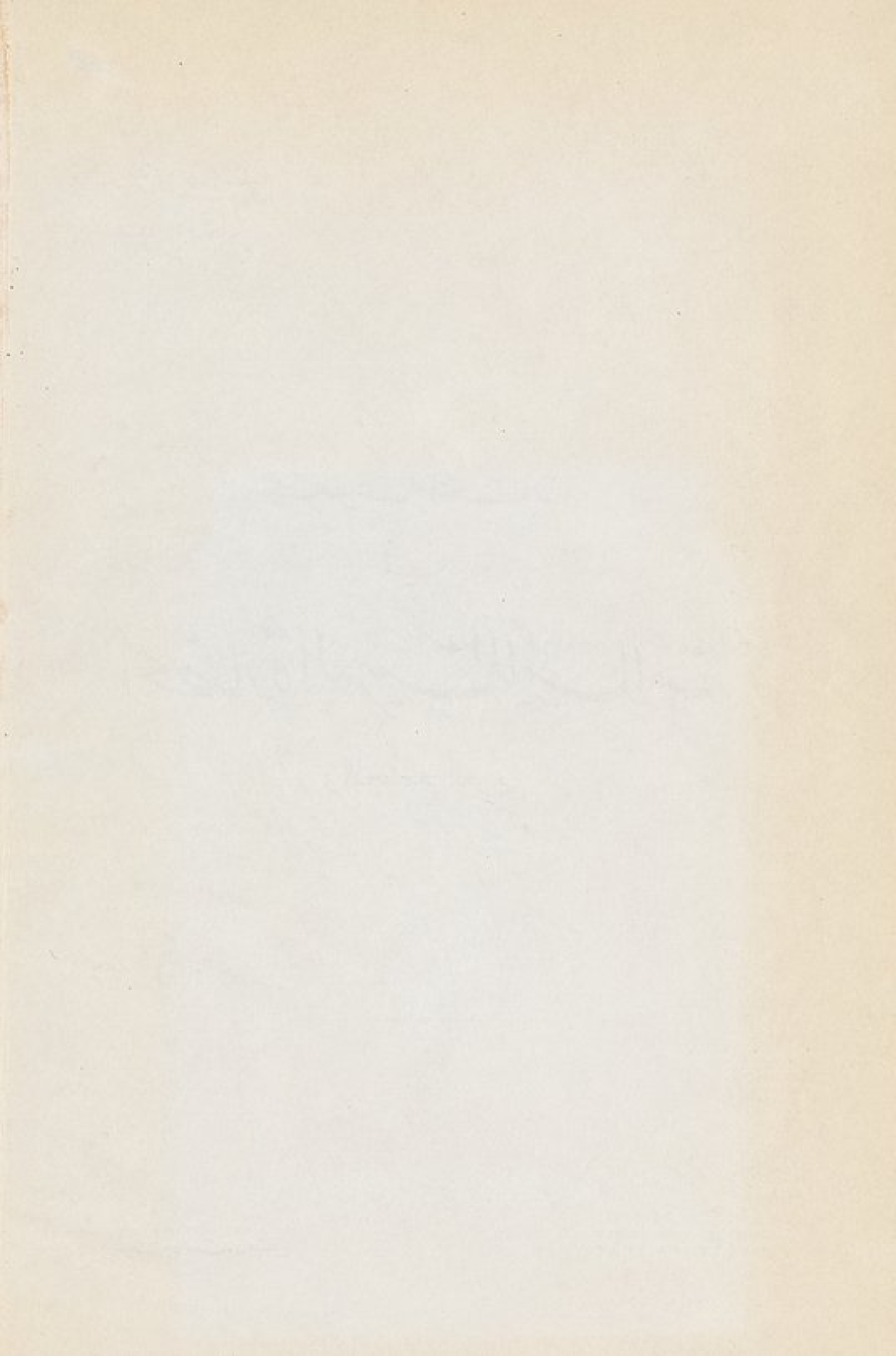

Princeton University Library
32101 074332477



الدكتور
احمد شوكت الشطي
استاذ بكلية الطب

مجموعة أبحاث
في
الحضارة العربية الاسلامية
والمجتمع العربي

مطبعة جامعة دمشق
١٣٨٣ هـ - ١٩٦٣ م



بسم الله الرحمن الرحيم

وله الحمد وبه نستعين ومنه نسترشد حسن البيان وصدق التعبير عن طاقات الأمة العربية، تلك الأمة التي شرفها الله باستيعاب كلماته وحملها خاتم رسالاته، رسالة خالدة، مكملة رسالات سابقة، تدعو جميعها الى إتمام مكارم الاخلاق ونشر لواء الحرية واقامة العدل بين الناس وترشدهم الى ما فيه صلاحهم، رسالات تدعو الى الوئام وضمان السلام، فاذا الناس، ولا سيما العرب منهم عنها معرضون، وعن جمع شملهم بعيدون، حتى اذا ساروا في اتجاهه خطوات الى الامام، زلت بهم الأقدام فهووا في وديان الخصام، تلهب شعلته ضراوة الشنئان[1]، وتفرق الكلمة وما يجلبه من خذلان، على أننا اذا كنا نذكر القارىء بأمجاد العرب في ماضيهم مع علمنا بأن أمثال هذه الابحاث لم تعد لها تلك الرنة من الاستحسان في الآذان فما ذلك الا لبيان حسنات التآلف وإظهار مساوىء التخالف بين العرب والتذكير بإعجاز الكلمات الكريمة القائلة: «**واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا**[2]»، «**ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر**[3]» والتوكيد بمستقبل العرب السعيد، القريب البعيد، القريب متى حلت بينهم الألفة، والبعيد إذا استمرت بينهم الخلفة ولم يتعظوا بالقول الكريم الداعي إلى عدم التنازع والمرغب في الصبر وهو «**ولا تنازعوا فتفشلوا فتذهب ريحكم واصبروا ان الله مع الصابرين**[4]»

هذا واننا لنرجو ان يؤدي ما كتبناه عن هذه المادة التوجيهية الى بلوغ بعض ما تمنيناه من هدف نبيل وغرض اصيل، هو لم الشعث وضم الشمل والله من وراء حسن القصد وطيب النية وسواء السبيل.

---

(١) الشنئان: البغض. استعملنا هذه الكلمة لانها جاءت في الآيتين الثالثة والتاسعة من سورة المائدة وفيها دعوة بليغة الى التمسك بحبل العدل والتعاون على البر ومنع التعاون على الاثم والعدوان ولانها تنطبق على واقع البلاد العربية في غابرها وحاضرها خلا فترة زمنية اجتمعت فيها كلمة العرب في ظل القرآن ونبوة الرسول العربي الذي نزل عليه الفرقان.

(٢) سورة ٣: العمران آية ١٠٣ (٣) آية ١٠٤ (٤) سورة ٨: الأنفال آية ٤٧



الحضارة [1]: عرّفها بعضهم بأنها مجموعة مظاهر الرقي الاجتماعي والفكري والعمراني والاقتصادي والسياسي لأمة من الأمم في عصر من العصور، والواقع أن كلمة الحضارة متعددة المعاني لذلك كان تحديد مدلولها صعباً وتعريف المراد منها عسيراً، يدخل في نطاق مفهومها رقي المجتمع في وطن او قارة او جزء منها وتطور افراده وجماعاته نفسياً واجتماعياً وعلمياً وازدهاره في ميادين العلم والصناعة وفي حقول الزراعة وفي توسع العمران وتقدم العرفان وما الى ذلك مما يضمن للوطن وافراده وجماعاته او المجتمع واناسه حياة افضل وعيشاً اسعد في ظل العدل والمساواة وحرية الأديان، يتضح من ذلك ان كلمة الحضارة تعني تبدل كل ماهو عرضة للتطور في مجتمع او ارض او وطن او قارة من حال الى حال افضل منه في شتى الميادين الحيوية والاجتماعية والفكرية.

ذلك في نظرنا هو مدلول كلمة الحضارة التي لم نعثر مع الأسف في الكتب الباحثة عن الحضارات التي اطلعنا عليها تعريفاً جامعاً مانعاً لها، واذا كان في تعريف الحضارة بعض ما بيّناه من صعوبات فان العقبات التي يتعثر بها تعريف الحضارة العربية اكثر بكثير. ويمكن رد العثرات التي تعترض مدلول تعبير الحضارة العربية الى امرين ينتج منها الاسئلة الآتية وهي: هل الحضارة العربية عربية بحتة، وهل الحضارة العربية حضارة اسلامية، وهل الحضارة العربية حضارة عربية اسلامية:

---

(١) الحضارة: تعني الاقامة في الحضر جاءت بفتح الحاء وكسرها قال القطامي:

فن تكن الحضارة اعجبته　　　فأي رجال بادية ترانا

١ – هل الحضارة العربية حضارة عربية بحتة ؟ الواقع انها حضارة عربية اسهم بها جماعات من اجناس مختلفة وشعوب عديدة ،اشترك بها فرس،وهنود، وبخاريون ، وافغانيون ، وطبريون، وغير ذلك من امم واقوام ولكنهم جميعاً تثقفوا بثقافة عربية ووضعوا مؤلفاتهم باللغة العربية ، لغة دينهم، فعزّت عليهم اكثر من لغة الأم الأصلية أو الأمة التي ينتسبون اليها وليس من المبالغ فيه الادعاء بأنه لم يؤلف منهم بغير اللغة العربية الا النذر اليسير .

٢ – هل الحضارة العربية هي حضارة اسلامية بحتة ؟ الواقع انها حضارة اسلامية اسهم بها جماعات من اديان ومذاهب مختلفة بينهم مسيحيون ، وسريان ويعاقبة ونسطوريون ويهود وغيرهم ولكن راية دول الاسلام العربية اظلتهم جميعاً فعملوا تحت لوائها ، باعتبارهم من رعاياها ووضعوا مقدمات مؤلفاتهم بروح عربية وصيغة اسلامية لذلك كان جائزاً تسمية حضارة الاسلام في عهود خلفائه بالحضارة الاسلامية . ويبدو لي ان المستشرقين الذين تعمقوا بدراسة هذه الموضوعات تحيّروا في تسمية الحضارة التي اعقبت ظهور الاسلام فسماها بعضهم الحضارة الاسلامية وفي مقدمتهم آدامز ، صاحب كتاب حضارة الاسلام وسماها البعض الآخر الحضارة العربية ويأتي على رأسهم لوبون صاحب كتاب الحضارة العربية على ان مما زاد الأمر تعقيداً اليوم ظهور قوميات مختلفة كان يجمعها الاسلام اخذت تتجاذب نسبة العلماء العرب اليها فنُسب ابن سينا الى فارس وايران كما نسب الطبري الى طبرستان والبيروني الى الأفغان وابن رشد والزهراوي الى الاسبان وقد شط بعضهم في نسبة علماء العرب اليهود فنسبوهم الى امم ما انزل الله بها من سلطان .

٣ – هل الحضارة العربية حضارة عربية اسلامية ؟ ان هذا كله حدا بنا الى ان نسمي حضارة العرب والاسلام بالحضارة العربية الاسلامية . ان تعبيراً من هذا القبيل يُدخل في اطار صفته الاولى لغة العرب وبناة الحضارة العربية والخلفاء الذين كانوا عرباً كما يدخل في اطار الصفة الثانية لواء الاسلام الذي اظلهم جميعاً.

وفي اعتقادنا ان مدلول هـذه التسمية سوف يظل عرضة للنقد لان مقوّمات الشمول من حيث الجمع والمنع تنقصه ، ولكنه في كل حال اقل التعابير نقصاً واكثرها شمولاً .

ويبدو لنا ان تسمية الحضارة العربية او الحضارة الاسلامية بحضارة القرآن اقتراح معقول للاسباب الآتية :

١ ـ لان الحضارة، موضوع بحثنا وليدة ثورة انسانية شملت جميع مرافق الحياة دعا اليها القرآن ، فبدل حال العرب وغيرهم بأحسن مما كان .

٢ ـ لأن اكثر رجال العلم في القرون الوسطى رغبوا عن لغتهم الأصلية واحبوا لغة القرآن العربية واسهموا بنشر حضارة القرآن .

٣ ـ لان القرآن خلد العرب وحال دون ان يطويهم الزمان ولولاه لاصبح العرب وما يقال عن حضارتهم في خبر كان .

٤ ـ لأن توجيه القرآن الحضاري معجز نكتفي بالتدليل على ذلك شجبه العنصرية منذ قديم الزمان ، شاغلة الدنيا والناس الآن .

٥ ـ لأن اسسه في لم الشمل مدعاة الى التبصر بها والعمل بهديها وسبيل الى بعث الحضارة العربية وتخليدها فقد بينت آياته المعجزات اسباب هلاك الأمم واسباب خلودها وأعظمها شأناً اتفاق كلمتها .

وأخيراً ـ لأن القرآن وسيلة جمع الشمل بين العرب ، مسلمهم ومسيحييهم ، وبين جميع المسلمين ، فمن لم تأخذه آياته بالدين ، أخذته بالبلاغة والتعبير الرصين او بالمثل العليا والأخوة الانسانية التي هي هدف جميع المصلحين في كل آن وحين والسلام .

* * *

الباب الأول

العرب وعلومهم في غابرهم وحاضرهم ومستقبلهم

يشتمل هذا الباب على فصول وابحاث تعالج مواضيع مختلفة، منها التعريف بالعرب وحضارتهم قبل الإسلام وبعده ، الإنسان والإنسانية بوجه عام ، الرسل والأنبياء بين بني الإنسان، أثرهم التوجيهي نحو الخير ودعوتهم الى تجنب الشر ، الرسول العربي ، القرآن العربي واثره في العرب وجمع كلمتهم ونبذ التفرقة بينهم ، دعوته للعلم وتشجيع تحصيله ، العلم في عهد الخلفاء الراشدين وفي الدول العربية وغير ذلك مما له صلة بحضارة العرب وحضارة الإسلام .

الفصل الأول

العرب ، عرب الجاهلية وحضارة العرب قبل الاسلام

البحث الأوّل

كلمة العرب ومدلولها

العرب كلمة تطلق اليوم على جميع المتكلمين باللغة العربية الذين اتخذوا اللغة العربية جامعة شملهم واداة تعبيرهم إضافة الى روابط اخرى دينية أو روحية وثقافية

وتاريخية وسياسية وحضارية[١] . استعملت هذه الكلمة للدلالة على لسان العرب وعليهم في القرآن الكريم، ذلك النص الوحيد الذي لا يمكن ان يشك في صحته إنسان ، لأنه أول نص في العربية لا يعلق به غبار الشكوك وهواجس الظنون ويأتي بعده الحديث الشريف ، فأقوال علماء العربية . عرّف صاحب اللسان [٢] العرب بأنهم جيل من الناس خلاف العجم .

والتحقيق، إطلاق لفظ العرب على عربهم وأعرابهم وان الأعراب نوع من العرب والنسبة الى العرب عربي وإلى الأعراب أعرابي ثم اتفقوا على تنويع العرب الى نوعين عاربة ومستعربة فالعاربة هم العرب الاول ويقال فيهم العرب العرباء، والمستعربة هم الداخلون في العربية وربما قيل لهم المتعربة وتعرب تشبه بالعرب ، والعروبة والعروبية صفة العرب ، وعربة كلمة تطلق على امكنة من جزيرة العرب ، وسكان عربة من أقدم الأمم على الكرة الأرضية .

ان كلمة العرب قديمة جداً عرفها الفراعنة والفينيقيون وذكرها الاشوريون واليونانيون قبل الميلاد ووردت في التوراة والتلمود وغيرهما [٣] .

---

(١) يقول برنار لويس لقد تغير مدلول كلمة العرب باختلاف العصور فاستعملها الاغريق والرومان لقسم من سكان الجزيرة العربية وبعد أن تحولت الدولة العربية الى دولة اسلامية أصبحت الكلمة تعني ثقافة عربية اسلامية عريقة انتجها أناس ينتمون الى أجناس وثقافات مختلفة باللغة العربية ، متأثرين بالذوق العربي والتقاليد العربية . ويختم كلامه قائلاً : لقد اصبح لكلمة العرب اليوم معنى جديد وهو اعتبار الشعوب المتكلمة باللغة العربية شعباً واحداً او مجموعة من الشعوب يوحدها اشتراكها في الوطن واللغة والثقافة والحضارة .

(٢) هو الامام العلامة ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرّم من منظور الخزرجي وقد جاء في قاموسه ان اولاد اسماعيل نشئوا بعربة وهي من تهامة فنسبوا الى جدهم وجاء فيه أيضاً روى عن الرسول قوله : خمسة انبياء من العرب وهم محمد واسماعيل وشعيب وصالح وهود صلوات الله عليهم وهذا يدل على ان لسان العرب قديم وأن العرب امة قديمة .

(٣) يرى المستشرق د. هـ مولر D. H. Muller أن الرسول الامين هو أول من خصص الكلمة وجعلها علماً يراجع للتوسع في هـذا البحث : كتاب تاريخ العرب قبل الاسلام لمؤلفه الدكتور علي جواد من ص ١٦٩ الى ص ١٨٤ .

يتساءل ابن تيمية عن مدلول اسم العرب واسم العجم فيقول ان اسم العرب واسم العجم قد صار فيه اشتباه فيزيل هذا الاشتباه عن تعريف العجم بأن هذا الاسم يعم في اللغة كل من ليس من العرب ويوسع مدلول لفظة العرب توسيعاً فيه حكمة وروعة وسبيل الى توحيد الصفوف وجمع الشمل وذلك بقوله : اما اسم العرب فهو في الأصل اسم لقوم جمعوا ثلاثة أوصاف : من كان لسانهم باللغة العربية . من كانوا من أولاد العرب ، من كانت مساكنهم ارض العرب .

فالعروبة عند ابن تيمية تثبت باللغة وبالنسب وبالوطن فمن تكلم بالعربية فهو عربي ومن انتسب لأب عربي فهو عربي ومن سكن ارض العرب فهو عربي. يدعم هذا القول ما رد به الرسول على رجل من الصحابة انكر على سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي بأن يكونوا عرباً حيث قال في المسجد : يا أيها الناس . إن الرب واحد والأب واحد وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم وإنما هي اللسان فمن تكلم بالعربية فهو عربي ويخيل إلي انه لا يقصد بذلك اللغة حصراً بل يدخل فيها عوامل مجتمعة او غير مجتمعة وهي الدين أو البيئة والثقافة والحضارة والتاريخ .

البحث الثاني

كلمة الجاهلية

اعتاد المؤرخون أن يسموا تاريخ العرب قبل الإسلام تاريخ الجاهلية وخص بعضهم التاريخ الجاهلي بتاريخ القرن الذي سبق ظهور الإسلام .

ويرى نفر من كبار المؤلفين أن كلمة الجاهلية التي أطلقت على عهد العرب قبل الإسلام ليست مشتقة من الجهل الذي هو ضد العلم ، ولكن من الجهل الذي هو الاستخفاف والتعيير والغضب والتجبر والمفاخرة بالأنساب وما الى ذلك من

صفات قبَلية ، يؤيد ذلك ما جاء في الحديث الشريف عن أبي ذر وقد عير رجلاً بأمه : « انك امرؤ فيك جاهلية » ، أي فيك روح الجاهلية من حيث استخفاف الغير وتعييره بأمه .

كانت حياة عرب الجاهلية جافة ابتدائية ، وكانوا يتألفون من قبائل يقاتل بعضها بعضاً ، تسيطر عليهم النزعات العصبية والفكرة القبلية ، وكانوا يتحلون الى جانب ذلك بذكاء حاد ، وشجاعة نادرة ، وقوة بأس شديدة ، ونبل عظيم ، ولغة خصبة ، وفروسية كريمة .

والواقع ان هذا العصر سمي كذلك بسبب الفرق الكبير بين عقلية العرب قبل الإسلام وبعده وبسبب عدم وجود كتاب منزل بلغتهم يهتدون به في جاهليتهم[1]

يحلو لبعض الباحثين أن يلحقوا بعرب الجاهلية كل رذيلة وان يبعدوا عنهم كل فضيلة دون ان يكون لهم قصد سيء فيما يفعلون فيخالفون بذلك الواقع كما يخالفون أئمة اشتهروا في العالمين العربي والاسلامي منهم العلامة العربي الإمام ابن تيمية الذي يذكر محاسن العرب في الجاهلية بقوله : كان العرب قبل الاسلام طبيعة قابلة للخير ، معطلة عن فعله ، يشبههم بالأرض الجيدة في نفسها ، لكن هي معطلة عن الحرث ، فلما بعث الله محمداً بالإسلام زرع فيها افضل الحبوب والثمار ، فجاء فيها من الحرث مالا يوصف مثله واخذوا هذا الهدى العظيم بتلك الفطرة الجيدة فاجتمع لهم الكمال بالقوة المخلوقة فيهم ومنهم ايضاً العلامة الامام الاعجمي الأصل ابن المقفع وذلك بقوله :

العرب حكمت على غير مثال مثل لها ، ولا آثار أثرت فيها ، اصحاب ابل وغنم ، وسكان شعر وأدم ، يجود احدهم بقوته ، ويتفضل بمجهوده ، ويشارك في ميسوره ومعسوره ، ويصف الشيء بعقله فيكون قدوة ، ويفعله فيصير حجة ، ويحسن ماشاء فيحسن ، ويقبح ماشاء فيقبح ، أدبتهم أنفسهم ، ورفعتهم هممهم ،

---

(١) تاريخ الحضارة تأليف الدكتور جورج حداد ص ٣١٩ طبع في مطبعة الجامعة السورية سنة ١٣٧٤هـ ١٩٥٤م .

وأعلتهم قلوبهم وألسنتهم ، فلم يزل حباه لله فيهم ، وحباؤهم في أنفسهم ، حتى رفع لهم الفخر ، وبلغ بهم أشرف الذكر ، وختم لهم بملكهم الدنيا على الدهر ، وافتتح بهم دينه وخلافته الى الحشر ، على الخير فيهم ولهم ، فمن وضع حقهم خسر ، ومن انكر فضلهم خصم ، ودفع الحق باللسان اكبت للجنان [1] .

بل والفرنجة كذلك عرفوا للعرب حقهم فرفعوا قدرهم على الرومان وعلى غيرهم من الامم والشعوب فهذا كبيرهم غوستاف لوبون يقول :

كان للعرب قبل ظهور محمد آداب ناضجة ، ولغة راقية ، وكانوا ذوي صلات تجارية بأرقى أمم العالم ، منذ القديم ، فاستطاعوا في أقل من مئة سنة أن يقيموا حضارة من أنضر الحضارات التي عرفها التاريخ . ثم قال : فالعرب الذين استطاعوا في أقل من قرن أن يقيموا دولة عظيمة ويبدعوا حضارة عالية جديدة ، هم لا ريب من ذوي القرائح التي لاتتم إلا بتوالي الوراثة ، وبثقافة ثابتة مستمرة ، فبالعرب لا بأصحاب الجلود الحمر أو الاستراليين أنشأ خلفاء محمد تلك المدن الزاهرة التي ظلت ثمانية قرون ، مراكز للعلوم ، والآداب ، والفنون ، في آسيا واوربا ، ثم قال : والعرب ظهروا على مسرح التاريخ قبل الرومان بقرون كثيرة وأنشأوا المدن العظيمة وكانت علاقاتهم بأرقى شعوب الارض وثيقة [2] . كان العرب من أقوى الأمم أجساماً وعقولاً وأكثرها أنفة وإباء وعجباً وفخاراً، والعربي في جاهليته وإسلامه أبي حر يأنف أن يَستعبد أو يُستعبد. وقد أيده الاسلام بفضائل سيرته على وجه الارض ولا يعرف التاريخ أمة أثرت في العالم، وسادت في الآفاق وفي الأنفس أكثر من العرب، ولا يعرف التاريخ أمة حمّلته أكثر مما حملوا ، أو جمّلته أحسن مما جملوا ، أو سيطرت عليه أعظم مما سيطروا ، أو سطرت على صفحاته ، أجل مما سطروا .

---

(١) بلوغ الارب للألوسي ج ١ - ص ١٩٥٩ .

(٢) حضارة لغوستاف لوبون ص ١١٠ ، و ١٢٢ .

ويمكننا القول بعد ذلك كله بأن إبعاد كل فضيلة عن العرب قبل الاسلام مخالف لتعاليم رسول الاسلام نفسه فقد روي ان العباس عمه اخبره بأن ناساً جعلوا الرسول كمثل نخلة في كبوة[1] من الارض وفي رواية ان امرأة من بيته اخبرته انها سمعت من يقول: ان محمداً مثل الريحانة في وسط النتن فخرج صلوات الله عليه يعرف الغضب في وجهه ثم صعد المنبر فقال: من أنا؟ قالوا: انت رسول الله، فقال: أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، ان الله خلق الخلق فاختار من الخلق بني آدم واختار من بني آدم العرب، فأنا خيار من خيار، فمن احب العرب فبحبي أحبهم ومن ابغض العرب فببغضي ابغضهم[2] وعن سلمان الفارسي مخاطبة الرسول له: ياسلمان لا تبغضني فتفارق دينك فقال سلمان: كيف ابغضك وبك هداني الله. قال: تبغض العرب فتبغضني[3].

والواقع ان العرب كانوا قبل الاسلام يتحلون بصفات سامية جعلت ابن تيمية ينعتهم بالارض الطيبة ويطيب لنا ان ندلل على ذلك ايضا بالمحاورة التي جرت بين الحارث بن كلدة الثقفي وكسرى انوشروان حين طلب منه ان يعرفه بصفات العرب. قال كسرى: فما الذي تحمد من اخلاقها — اخلاق العرب — ويعجبك من مذاهبها وسجاياها؟

اجاب الحارث: ايها الملك، أنفس سخية، وقلوب جرية، لغة فصيحة، وأنساب صحيحة، واحساب شريفة، لايرام عزهم ولا يضام جارهم ولا يستباح حريمهم ولا يذل أكرمهم، مطعمو الطعام في الجدب، يمرق من افواههم الكلام اعذب من هواء الربيع.

فاستوى كسرى جالساً وقال لجلسائه عن الحارث بعد ان سمع محكم

---

(١) الكبوة الكناسة والتراب الذي يكنس من البيت.

(٢) سند احمد ج١ ص٢١٠ ودلائل النبوة لابي نعيم ص١٢ ومجمع الزوائد ج٨ ص٢١٥ وج٩ ص٣٩٧ من كنز العمال لابن الهندي والاقتضاء ص١٥٥.

(٣) رواه أحمد والترمذي.

كلامه : اني وجدته راجحاً ولقومه مادحاً وبفضيلتهم ناطقاً وبما يورده من لفظ صادقاً . وخاطب الحارث بقوله :

لله درك من عربي ، لقد اعطيت علماً وخصصت فطنة وفهما وكذا العاقل من أحكمته التجارب .

نقلنا هذا الحديث لنبين ما تحلى به العرب من صفات أعدتهم للمكرمات .

أنبت هذا المجتمع العربي ، الذي احسن الحارث وصف صفات افراده ، رسولا منهم يعلمهم الكتاب والحكمة ويسمو بمزاياهم الانسانية واخلاقهم الكريمة فينشرها بين الناس بوحي من رب العالمين ويركز دعائمها في بني قومه فيعود بذلك في الوقت نفسه رسول الانسانية ومخلد العروبة .

ولقد قدر الرسول ايضاً ما كان عند العرب من مكارم الاخلاق نستدل على ذلك بما جاء عن سفانه بنت حاتم الطائي فقد جيء بها الى رسول الله اسيرة فقالت : يامحمد هلك الوالد ، وغاب الوافد ، فان رأيت ان تخلي عني ولا تشمت بي أحياء العرب فان أبي سيد قومه ، كان يفك العاني ويحمي الذمار ، ويفرج عن المكروب ويطعم الطعام ، ويفشي السلام ، ولم يطلب اليه طالب قط حاجة فرده ، انا ابنة حاتم طي فقال الرسول ياجارية ، هذه صفة المؤمن ، لو كان ابوك اسلامياً لترحمنا عليه خلوا عنها فان اباها كان يحب مكارم الاخلاق[1] .

جبل العربي منذ وجد على الحرية فهو لايطيق الخضوع وقد اعجب بهم هيرودوتس المؤرخ اليوناني المشهور فكتب عن حبهم للحرية ومقاومتهم للاسترقاق مبيناً أنهم كانوا الشعب الوحيد من الشعوب الآسيوية الذي لم يخضع لحكم خضوعاً كاملا فلم يتمكن ملوك الفرس من استعبادهم وانما اضطروا الى الاكتفاء بمحالفتهم واعتبروهم

---

(١) يقول في هذا الصدد الاستاذ محمد المبارك عميد كلية الشريعة في جامعة دمشق : ان العرب منذ عصور قديمة نضجت عناصر تكوينهم وتظاهرت عوامل الاصل والوراثة والبيئة التي يعيشون فيها على هذا التكوين حتى كانت تلك الامة التي وصفها النبي العظيم بقوله : أنا خيار من خيار .

اصدقاء حلفاء [1] . ولكن لما كان لكل شيء حد ونهاية ، غدت هذه الحرية انانية شديدة وفردية مطلقة حالت بين تعاون الافراد . وحالت دون تكون المجتمعات الكبرى وهي الحكومات لذلك اقتصرت التنظيمات في الجاهليـة على القبلية ، وزاد في حدة هذه الانانية القبلية اعتقادهم بالرابطة الدموية التي تربط الأسر بالعشائر والعشائر بالقبائل ، وارجاع ذلك الى الانساب ، فلا تتعصب القبائل الا لتلك القبائل التي تعتقد انها واياها من شجرة واحدة واصل واحد .

وقد جابه العرب بعد وفاة الرسول العظيم متاعب كثيرة ترتد الى الروح القبليـة العنيفة والفردية المتطرفة فكانت هذه من اهم عوامل هدم المجتمعـات السياسية الكبرى في بلاد العرب وكانت موضع ضعف اتخذه الخصوم سببـا لاحداث الفرقة بينهم ، ومقاومة كل مشروع لتوحيد كلمة العرب في الماضي ، وما اشبه حاضرهم بغابرهم وهذا ماجعل المشتغلون بالقضايا العربية وتاريخ العرب مثل جوزيف هيل يقول ان اهم مايعوز العرب قديماً وحديثاً الشعور بلزوم الحد من حرية الفرد الجامحة ، واطاعة اوامر المجتمع في سبيل المصلحة العامة وهنالك اقوال اشد وقعاً في النفوس مما سردناه يقول اصحابها : لو استطاع العرب الحد من قبليتهم وفرديتهم ووجدوا الحكم الصالح لهم لكان العالم كله اليوم متعربا ولكانت جامعات الغرب تبشر بارائهم ، لا بل هنالك من الاقوال مـا هي اكثر ايلاماً في النفس لانها تقول : لم يطرد العرب من الاندلس نتيجة نقص الكفاءات والإقدام والشجاعـــة والمروءات بل كان سببه تفرق كلمتهم وتشتت ارائهم والانانية التي سيطرت عليهم وإن من يتقهقر بهذا السبب ولا يجد سبيلا لاحلال الوئام بين عناصره محل الخصام لايثير مصرعه اسى في النفس ويتعرض لان تلعب بـه المطامع والاهواء . وليقرأ العرب بعد ذلك ان شاءوا قول الله عز وجل واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداء فألف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخوانا وكنتم على شفا حفرة من

---

(١) العرب قبل الاسلام ج ١ ص ٣٧ ، ٣٧١ .

النار فانقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون . وليتبصر العرب بعدما اسلفت في حالهم اليوم ودرجة ابتعادهم عن الدستور الذي وضع لهم الضامن لتخليدهم ، ذلك الابتعاد الذي يبرر القول بان النزعة الى الجاهلية من حيث تفرق الكلمة مازالت على اشدها بينهم .

هـذا وبما ان هذه البحوث تهدف اولا وآخراً الى جمع الكلمة وموجهة خاصة الى الجامعيين وبعضها من وحيهم فاننا نثبت نتفاً من كلمة رائعة كتبتها فتاة جامعية في ساعة ألم رجاء فيها :

ايها العرب ! لقد حطم الاختلاف مدنيتكم وايبست روح التفرقة شجرتكم اليانعة فألقتها في الارض شجرة عارية يابسة تتجه اذرعها الجافة الى السماء لتحذركم بهيكلها البشع من مصير قاتم ومستقبل مظلم اذا لم تبعدوا عن براعمها التي تحاول ان تنفتح الريح السموم ، ريح المشاحنات والاثرة والمهاترات والاختلاف والمنازعات والانانيات .

ايها العرب ! أما آن لارواح الشهداء المضطربة ان تهدأ وتستريح في خلودها لقد استشهدت في سبيل توحيد كلمتكم فاذا بها متفرقة ، ضحت بحياتها في سبيل اتفاق كلمتكم فاذا بكم مختلفون .

ايا عرب ! لقد عصفت الريح بزورقنا حتى كاد ينقلب والملاحون عنه لاهون غير عابئين لا بالاعصار التي تحيط بهم ولا بالامواج العالية التي تفغر اشداقهـــا محاولة ابتلاعهم .

أيا ملاحون ! لا تعيدوا سيرتنا في الاندلس واذكروا تلك الشجرة التي أذهب نضارتها اختلاف الكلمة وتباين الآراء واختلاف النزعات .

أيها الربيع ! هل لك أن تنفحنا بنسمات تؤجج النيران في جمراتنا الخابية فتهرب منها سائر الوحوش المحدقة بها وتبتعد عنها خشية احتراقها بنارها .

أيا عرب ! أين عزتنا ، أين قوتنا ، أين شجاعتنا ، نريد عودة مجدنا وتجدد عزتنا ولكن هل تعبق الوردة إذا ظمىء الغصن وهل يجري النهر إذا امتنع المطر ، وهل تعزف القيثارة إذا انقطع الوتر وهل تتردد الأنفاس إذا نصت القلب .

كلا ، لن ترجع لنا عزتنا إذا فقدت منا تلك الصفات .

أيها الشبان : إقطعوا السلاسل التي تغل أعناق أكثر أدعياء الزعامة الذين لا تتمثل فيهم روح الشبيبة العربية ، اولئك الذين يظهرون ما لا يبطنون ، اولئك الذين برعوا في التلون والمنافقة وهم في الواقع وراء أنانيتهم ساعون وعن العروبة بعيدون ، ضالون ومضلون ، اقطعوا هذه السلاسل التي موهت حتى بدت كالقلادة الجميلة الخلابة ، اقطعوا هذا الطوق وحطموا حلقاته واحدة تلو أخرى واجعلوا منها طوقاً يغل أعناق المتربصين بنا الشر .

البحث الثالث

حضارة العرب قبل الاسلام

كان العرب على اقسام مختلفة ، واصناف متغايرة ، انقرض البائدة منهم كعاد وثمود وطسم وجديس ، وانقطعت اخبارهم وتفاصيل احوالهم مع انهم كانوا أمماً ضخمة سلف لهم في الارض ملك جليل وخبر مشهور ، لاينكر لهم ذلك أحد من اهل العلوم بالقرون الماضية ، وقد ذهبت حقائق اخبارهم لتقادم انقراضهم ، واما غير البائدة فقد تفرعوا من عدنان وقحطان ، اما بنو قحطان وهم عرب اليمن فقد كانوا على احسن مايكون من التمدن ، والغالب منهم سكن البلاد المعمورة ، وبنوا القصور وشيدوا الحصون المشهورة ، وكانت لهم مدن عظيمة منها سبأ التي ذكرها الله تعالى في كتابه الكريم بقوله : « لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور » . وكان لهم ملوك دوخوا البلاد واستولوا على كثير من اقطار الارض وكانت معارفهم على قسمين : منها ما هو عربي نشأ وترعرع في بلادهم كاللغة والشعر والخطابة والانساب ، ومنها علوم ، انتقلت اليهم من البلاد المجاورة كالروم والكلدان والفرس والرومان ، لابد منها في حفظ النظام وضمان المعاش والانتعاش ، ومن ذلك الطب ، كما انتقل اليهم من الامم المجاورة

علوم مشكوك في امرها ، اكثرها خرافية ، منها العيافة والزجر والطلسمات وما الى ذلك .

وأما بنو عدنان ومن جاورهم من عرب اليمن فكانوا كذلك على جانب من العلوم الطبية وغيرها ، ثم فشا الجهل بينهم ، وقل العلم فيهم ، وأضاعوا صنائعهم وتشتتوا في الأطراف ، واستقر قسم كبير منهم في الحجاز ، ووقع التنازع والتشاجر بين القبائل فلم يبق عندهم علم عقلي كالطب والحساب ونحوهما ، إنما علمهم ماسمحت به قرائحهم من الشعر والخطب ، أو ماحفظوه من أنسابهم وأيامهم ، وكان يقال لهم الجاهليون أو عرب الجاهلية ، لأنهم أهل بداوة ، لم يسهموا في شيء من المدينة التي أقامها جيرانهم وأقرباؤهم الأنباط والتدمريون والغساسنة واللخميون .

واما علومهم فكان اهمها الفراسة والقيافة والطب والكهانة والعرافة والتنجيم وعلم الانواء والسحر والطلسم وعلم الحروف وكان لهم اعتقاد بالاحجار والخرزات وبعض الأوهام .

كان للعرب الجاهليين خبرة في القيافة والفراسة وبعض التجارب مما يجوز نعته بالعلوم الصحيحة ، اما في الطب فكان الجاهليون يعتقدون أن سبب الامراض أرواح شريرة لايقي منها ولا يشفيها إلا السحر والتمائم على أيدي الكهان والعرافين وزاجري الطير والعيافين والسحرة والمشعوذين ، مما يصح نعته بالعلوم الباطلة . وكان لهم ايضاً طب يعتمد اكثره على الخرافات الطبية . والواقع ان كل هذه العلوم صحيحها وباطلها نسميها علوما على سبيل التجوز لانها لم تتوفر فيها الشروط العلمية بمفهومها اليوم .

١ ــ القيافة على قسمين : قيافة الأثر وقيافة البشر .

وقيافة الاثر تتم بتتبع آثار الأقدام والاخفاف والحوافر في المقابلة ، ويحكى أن أهل القيافة كانوا يفرقون بين أثر قدم الشاب والشيخ ، وقدم الرجل والمرأة ، والبكر والثيب .

وأما قيافة البشر فهي الاستدلال بهيئات أعضاء الشخصين على المشاركة

والاتحاد بينهما في النسب والولادة وفي سائر أحوالهما وأخلاقهما .

جاء في كتاب « محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية » تأليف الشيخ محمد الخضري عن القيافة عند العرب : ومن علومهم التجريبية علم القيافة وهي نوعان : الاستدلال بأثر الماشي عليه ، والاستدلال بتقاطيع الجسم على صحة النسب وبطلانه ، وكان فيهم قبائل قد شهرت بهذا العلم حتى كان قول الفرد منها حكما في الآثار والإنسان كبني مدلج ، وللعرب في معرفة الأثر أعاجيب لايكاد الإنسان يعيرها تصديقاً ولكن الذي يرى مابقي منها بين أعراب السودان لايقف عن التصديق لحظة ، وكان لهم في النوع الثاني مالا يقل عن الاول ؛ يجيئون بالرجل والولد ويغطون جميع بدنهما ماعدا أقدامهما ثم ينظر القائف فيحكم حكما فصلا قائلا: هذه الاقدام من هذه الاقدام ، إن كان النسب صحيحاً وينفي هذا النسب إن لم يجد تشابها ، ولا يهمه إن كانا قد اتفقا في اللون أو اختلفا فيه .

٢ – الفراسة : هي الإستدلال بهيئة الإنسان ، وأشكاله ، وألوانه ، وأقواله ، على أخلاقه وفضائله ورذائله فهي صناعة صيّادة لمعرفة أخلاق الإنسان وأحواله .

وعلم الفراسة مأخوذ في الاصل من المشاهدة على طول الزمان ، فقد عدوا ما استمر أصلا يرجع إليه وقاعدة يجوز الاستناد إليها ، فزعموا أن كبر الدماغ دليل على العقل ، وأن خشونة الشعر دليل على الشجاعة ، وأن كبر الرأس تدبير وعقل ، وأن نتوء الجبهة فهم وإدراك ، وأن صغرها واستدارتها جهل ، وأن سعة الفم شره ، وأن تفريق الاسنان ضعف ، وغور العين خبث ، وصغر العيون مع كثرة حركتها مكر وحيلة ، وحمرة الوجه حياء ، وبروز عظم الوجه كسل ، واعتداله قوة رأي ، واستدارة الوجه حمق وسوء خلق ، وطوله وقاحة ، وغلظ الصوت إقدام ، وسرعة الكلام طيش وسوء فهم وحمق ، وأن علوه عدم حياء وسوء طبع ، وأن قصر العنق مكر وغلظة وبطش ، وأن دقة الكتفين ضعف عقل ، وأن طول الذراعين كبر ورياسة ، وأن استواء الظهر حسن خلق ، وأن لطافة الكعبين والقدمين مرح وخفة ، وأن غلظ

الساقين بله ، وقصر الخطا وسرعتها همة وتدبير ، وأن كثرة الضحك قلة اعتناء بالامور ، واختفاءه عقل وتدبير ، ومتى كان الرجل منتصب القامة ، أبيض اللون ، مشربا بالحمرة ، لين اللحم ، مفرج الاصابع ،عظيم الجبهة ، أشهل العين، فهو حكيم عاقل حسن الرأي .

وقد اشترط الطرسوسي في تعليم هذا العلم ضرورة انتقاء متعلميه لأنه يحتاج الى ذكاء ، ولذلك حرم دراسته على الاغبياء .

٣ ـ الطب الجاهلي والخرافات الطبية : كان يعتمد طب عرب الجاهلية على تجارب بسيطة وعلى العادة والتقليد ، وهو طب يتجلى فيه ضعف التعليل والمحاكمة بسبب الاعتماد على العادة الذائعة لا على العلم ، وبسبب عدم القدرة على فهم الارتباط بين العلة والمعلول والسبب والمسبب فهماً تاماً ، يمرض أحدهم ويألم من مرضه فيصفون له علاجا ، فيفهم نوعاً من الارتباط بين الدواء والداء ، ولكن لا يفهمه فهم العقل الدقيق ، يفهم ان عادة القبيلة أن يتناول أفرادها هذا الدواء عند هذا الداء ، وهذا كل شيء في نظره .

لقد شعر الإنسان منذ وجوده بنعيم العافية وشقاء المرض ، لذلك سعى إلى المحافظة على صحته باجتناب مايؤذيها ، والتشبث بما يديمها، وقد عزا الامراض التي تنتابه أو البؤس الذي يحل به إلى عوامل معروفة ، فكافح في سبيل التخلص منها ، ولقد رأى أن هنالك أسباباً للشقاء والداء عواملها مجهولة لديه ، فنسبها إلى قدرة خارقة من أرواح شريرة ونظرات مؤذية وغير ذلك من قوى لا تخضع لسلطته ، ولا تتأثر بمشيئته ، ولا تصل إليها قدرته ، فقاومها بما أوحى له من وسائل غريبة اقتنع بحسن أثرها وآمن بفائدتها ، فكان من ذلك الكهانة والعرافة والزجر والعيافة والتنجيم والسحر والطلسم وعلم الحرف والرقى والتمائم والعوذة وغير ذلك مما توهمه وما زال يتوهمه الإنسان في كل زمان ومكان دافعاً للأذى ، مديماً للصحة ، شافياً من المرض ، جالباً للحظ وداعياً للتفاؤل ، وهذا ماجعل الاطباء في العهود القديمة ثلاث فئات : فئة أولى تعالج أو تتقى

الامراض بالنصح والإرشاد ، وفئة ثانية تداوى بالادوية ، وفئة ثالثة تعتمد في الوقاية والشفاء على سبل خارقة للعادة منها التبرك بالمياه كل عند اليونان، وتقديس هيا كل الابطال عند الرومان ، والتوسل إلى الاصنام عند العرب الجاهليين ، مما زعموا أنها وسائط تدفع الاذى والشر وتجلب النعيم والخير ، وقد تطورت هذه الخرافات تطوراً غريباً ، وتنوعت المزاعم فيها تنوعاً عجيباً لعب فيه السحرة والمنجمون ، والكهنة والعرافون وغيرهم دوراً كبيراً ، إذ استغلوا سلامة النية وطيب الطوية عند الجماهير ، فقالوا بوسائل لاتقع عند حصر منها ماهو بشع ومستقبح أو ماهو طريف ومستملح .

هذا وإننا لباحثون عن الخرافات الطبية عامة وعما انتقل منها إلى العرب خاصة بوساطة الأنباط والكلدانيين والعبريين ، إذ من الثابت أنه كان لها ولا سيما للسحر منها شأن عظيم عند هؤلاء الأقوام :

أ ــ الكهانة : هي ادعاء علم الغيب وإعطاء الخبر عن الكائنات في مستقبل الزمان ، ومعرفة أسرار الأنسان وما يتعرض له في يومه ومستقبله ، ويسمى متعاطي الكهانة كاهناً . وكان العرب يفزعون إلى الكهان في تعرف الحوادث ويتنافرون إليهم في الخصومات ليعرفوهم بالحق فيها، وكان بعض الكهان يزعم أن له تابعاً من الجن ورئياً يلقي إليه الأخبار، وكان الكهان يروجون أقاويلهم بأسجاع تروق السامعين فيستميلون بها القلوب ويستصغون إليها الأسماع. وكان في العرب قبل البعثة عدة كهنة تعتمد العرب كلامهم ويرجعون الى حكمهم فيما يخبرون به .

ب ــ العرافة : هي الاستدلال على الأمور الماضية أو الحاضرة أو المقبلة بأسباب ومقدمات ، ويسمى محترفها العرّاف ، ويستعين عادة بكلام من يسأله أو حاله أو فعله ، ويرشد إلى الضالة والشيء المسروق ونحوهما ، وكان في العرب عدد كبير من العرافين منهم عراف اليمامة : رباح بن عجلة ، وعراف نجد : الأبلق الأسدي .

وسمى عرب الجاهلية العراف طبيباً كما يستدل من قول شاعرهم في عراف اليمامة :

فقلت لعراف اليمامة داوني   فإنك إن داويتني لطبيب

ومن قول آخر في كل من عراف نجد واليمامة :

جعلت لعراف اليمامة حكمه   وعراف نجد إن هما شفياني

ج – الزجر والطيرة والعيافة وهي في معنى واحد: عرف ابن خلدون الزجر بأنه مايحدث عند بعض الناس من التكلم بالغيب عند سنوح طائر أو حيوان أو الفكر فيه بعد مغيبه ، والزجر أيضاً هو الاستدلال بأصوات الحيوانات ، وحركاتها وسائر أحوالها وخاصة طيرانها على حاضر الإنسان ومستقبله ، كانوا يزجرون الطير والوحش ويثيرونها فما تيامن منها وأخذ ذات اليمين سموه سانحاً ، وما تياسر منها وأخذ ذات اليسار سموه سارحاً أو بارحاً ، وما استقبلهم فهو الناطح ، وما جاءهم من خلفهم فهو العقيد . وكان أهل نجد يتيمنون بالسانح ويتشاءمون بالبارح ، وأهل العالية عكس هذا . ويسمى المتكهن بالطائر وغيره من السوانح عائفاً ، وقد تكون عيافته بالحدس إن لم ير شيئاً . ومن مذاهبهم التشاؤم بالغراب ونحوه من الطيور ، وكانوا يضربون الغراب مثلاً في الشؤم فيقولون : فلان أشأم من الغراب . قال ابن رشيق في العمدة : الغراب أعظم ماتطيرون به ، وقد أنكر « المرقش » الزجر والطيّرة، يدل على ذلك قوله:

ولقد غدوت وكنت لا   أغدو على واق وحاتم

فإذا الأشائم كالأيا   من والأيامن كالأشائم

وكذاك لا خير ولا   شرٌ على أحد بدائم

وجاراه عدد من الشعراء منهم الكميت والرقاعي والكلبي . وقال بعضهم مايفيد أن المرافقات هي من قبيل المصادفات وأن الباطل فيها كثير .

وقد اقتبس العرب هذه العلوم المزعومة من الأعاجم الذين كان لهم مذاهب عديدة في العيافة والاستدلال بها .

د – النجوم والتنجيم والنجامة : أخذ العرب في الجاهلية بعض المعلومات

عن النجوم من الكلدان الذين هاجر قسم منهم إلى البلاد العربية اثر مهاجمة الفرس لبلادهم ، كما أضافوا إليها بعض اختباراتهم العلمية وتجاربهم في الحياة. ولقد ميزوا بين الثوابت والسيارات وعرفوا منها الزهرة وعطارد اللتين ورد ذكرهما في الشعر الجاهلي كما يعتقد انهم عرفوا الزحل والمريخ والمشتري وعرفوا من الثوابت بنات نعش ، والسها ، والظباء والفرقد والراعي وزعموا أن بين طلوع النجوم وغروبها أمراضاً وأوبئة وعاهات في الناس والإبل ، وكانوا ينسبون إلى النجوم التأثيرات من خير وشر ، وكان أهـــل الجاهلية يسألون المنجمين زاعمين أنهم يخبرون بالغيب .

٤ ـ علم الأنواء : هو علم المظاهر الجوية ، وعلاقتها بالرياح والأمطار . وقد كانت حاجة العرب إلى المطر وترقب الأنواء اكسبتهم خبرة في مراقبـة الجو وتغيراته . وقد ذكر الميداني أن العرب في الجاهلية كانوا يستدلون على المطر بالوان الغيوم وأشكالها ، فأقل الغيوم مطراً هي البيضاء ثم بالتدريج إلى الحمراء والسوداء . وقد كانوا يعللون الظواهر الجوية بطلوع الكواكب أو غروبهـا فتغيير الكوكب لمنزلته أي غروبه وظهور كوكب آخر يحدث تبدلا في النوء ولذلك يرى البيروني انهم كانوا يقولون مطرنا بنوء المجرة . ويعتبر علم الأنواء عندهم فرعاً من علم النجوم .

٥ ـ السحر : هو إراءة الباطل في صورة الحق ، وهي رُقيّ وعزائم وعُقد زعموا أنها تؤثر في الأبدان والقلوب فتمرض أو تقتل أو تفرق بين المرء وزوجه. وعرف بعضهم السحر بأنه إظهار أمر مؤذ خارق للعادة من نفس شريرة خبيثة ، لأن السحر إنما يقوم على فعل الشر في الغـالب كالتفريق بين الزوجين وضمـان حدوث الضرر للأعداء وهو على أنواع :

ا ـ النيرنج : قيل هو معرب نيرنك من الفارسية وهو التمويه والتخييل.

ب ـ الخلقطيرات : وهي خطوط عقدت عليها حروف وأشكال أي حلق ودوائر .

ج ـ الشعبذة : ويقال لها الشعوذة معرّب « شعبـاذة » اسم رجل ينسب إليه هذا العلم ، وهي خيالات مبنية على خفة اليد أو أخذ البصر في تقليب الأشياء.

د ـ الطلسم[1] : هو إظهار أمر عجيب بالاستعانـة إلى الجمع بين مفعول العقاقير الأرضية ومؤثرات الكواكب العلوية ، ولذلك يستعين صاحبه بالنجامة ، وقد تطلق على خطوط وأعداد يزعم كاتبها أنه يربط بها قدرة الكواكب العلوية بالطبائع السفلية ، ويزعم « أوغست ميسر » أن غاية الطلاسم اجتذاب المؤثرات الحميدة وتوفير الألفة بين المتحابين واجتماعهما .

٦ ـ علم أسرار الحرف : هو علم باحث عن خواص الحروف إفراداً وتركيباً ، وموضوعه الحروف الهجائية ، ومرتبته الروحانيات والفلك والنجامة ، ويحتاج إلى الطب من وجوه كثيرة ، منها معرفة الطبائع والكيفيات والأمزجة . ويزعم محترفو هذا العلم أن للحروف جسماً وروحاً ونفساً وقلباً وعقلاً وقوة كلية وقوة طبيعيـة ، وأنهم يمزجون بعلمهم قوى الحروف والكلمات بقوى الكواكب فيرشدهم هذا المزج إلى المغيبات ويدلهم على المقدرات .

وقد توهموا أن للحروف أنواعـاً فمنها نارية وهوائية ومائية وترابية على حسب تنوع العناصر ، فالألف للنار ، والبـاء للهواء ، والجيم للمـاء ، والدال للتراب ، ثم يرجع كذلك على التوالي من الحروف والعنـاصر إلى أن تنفد . ويلجأ إلى الحروف النارية لدفع الأمراض الباردة ولمضاعفة قوة الحرارة حيث تطلب مضاعفتها إما حساً أو حكماً . ويلجأ إلى الحروف المائية لدفع الأمراض الحارة من حميات وغيرها ولتضعيف القوى الباردة حيث تطلب مضاعفتها حساً أو حكماً . وقد جاء في مقدمة ابن خلدون ما يلقي شعاعاً على تاريخ هذه العلوم وذلك بقوله : « ولما كانت هذه العلوم المزعومة الباطلة مهجورة عند الشرائع لما فيها من

---

(١) زعموا أن الطلسم مقلوب مسلط والواقع أنه معرب تالسما اليونانية ومعناها الشيء النفيس وقد خصها البيزنطيون بالشيء المقدس، والطلسم بشدة وفتحة على اللام وسكون السين

الضرر ولما يشترط فيها من الوجهة إلى غير الله من كوكب او طير او وغيره كانت كتبها كالمفقود بين الناس إلا ماوجد في كتب الأمم الأقدمين .

كانت هذه العلوم في أهل بابل من السريانيين والكلدانيين ، وفي أهل مصر من القبط وغيرهم ، وكان لهم فيها التآليف والآثار ولم يترجم لنا من كتبهم فيها إلا القليل .



شكل – (١) صورة تمثل الزاجر يراقب حركات الطير

٧ – الأحجار والحوزات : لقد تعلم الجاهليون ممن سبقهم من الأقوام ماتوهموا دفع الشر وجلب الخير به من وسائل ووسائط لاتقع عند حصر ، منها أن اليشب – وهو حجر كريم يماني يشبه الزبرجد لكنه أصفى منه – يقي من العطش ، وأن اليشم – وهو حجر نقي – ينفع من الصرع ، وأن الفيروز يحول دون المشاغبات بين الزوجين ، وأن العقيق ييسر شفاء عضة الحيوانات ، وأن الزمرد يحول دون أذى العاثى .

ويدعى بعض مؤلفي الغرب أن هذه المزاعم انتقلت الى أوروبا على يد فلكي عاش مابين سنة ٢٨٧ – ٣٧٢ قم يدعى « تەئوفراست » كما يزعمون بأنها جاءتهم من الشرق بواسطة فيلسوف وجد قبل المسيح عليه السلام ببضع سنوات يدعى « آبولونيوس دوتيان » ساح في بلاد الشرق وتعرف على بابل والهند ثم عاد الى اوربا فقام بافعال جعلت الناس تعتقد بقوتـه الساحرة وتؤمن بالاشياء التي قال عنها انها تحمل قوة قاهرة . لقد آمن بعض الجاهليين بالخرزات وغيرها وانكرها بعضهم ، اما الخرزات فانها على انواع منها :

أ– التميمة[1] : هي خرزة رقطاء تنظم في السير ثم يعقد في العنق ، وقيل هي قلادة يجعل فيها سيور وعوذ ، كان الاعراب يعلقونها على اولادهم وعلى اصحاب الآفة كالحمى والصرع يتقون بها المرض والعين فجعلوها واقية من المقادير والموت.

العُقَرَة : هي خرزة تشدها المرأة على حقويها – موضع شد الازرار على الخاصرة – فتمنع الحبل .

الخصمة : هي خرزة للدخول على السلطان .

الوجيهة : خرزة حمراء كالعقيق تعلق للتوقي من الامراض ، وقيل خرزة عسلية لها وجهان يمسح بها الرجل وجهه اذا اراد الدخول على السلطان .

الكحلة : خرزة سوداء تجعل على الصبيان للوقاية .

التولة : وهي ضرب من الحرز للوقاية من السحر والأرواح الشريرة ، وقيل هي معاذة تعلق على الانسان وبها تحبب المرأة للرجل.

السلوانة : هي خرزة يشفى بها المبتلى بالعشق فيسلو ويزول داؤه ، وهي بيضاء شفافة تعلق بالعنق وقد يسقى نقيـع مائها كما يستدل من قول القائل

سقوني سلوة فسلوت عنها　　سقى الله المنية من سقاني

---

(١) ذكر الرقى والتميمة سلمة بن الخرشب اذ قال :

تعوذ بالرقى من كل عين　　وتعقد في قلائدها التميم

قال ابو ذؤيب في التميمة :

وإذا المنية انشبت اظفارها　　الفيت كل تميمـة لا تنفع

٨ – الاسترقاء ، الرقى والعوذة : الاسترقاء هو الإيمان بالانتفاع من حمل رُقية أو ترديدها او التعوذ بها ، ويستعان على ذلك بحمل الاحجار والخرزات والتمائم ، ومثل ذلك العوذة وهي الرقية من فزع أو جنون ، وسميت كذلك لانه يعاذ بها .

الهنمة : هي خرزة يجتلب بها الرجال وتستعطف بها قلوبهم وتتقى بها الامراض ورقيتها : أخذته بالهنمة ، بالليل زوج وبالنهار امة .

الفطسة : هي خرزة يمرض بها العدو أو يطلب بها من الزوج ان يفعل ما يراد منه تقول الراقية[1] فيها : أخذته بالفطسة ، بالثوباء والعطسة ، فلا يزال في تعسة ، من امره ونكسة حتى يزور رمسه .

الكرار : خرزة تعلق بالعنق ورقيتها : يا كرار كرِّيه ، إن أقبل فسُرِّيه ، وإن أدبر فضُرِّيه .

ومن الرقى « النشرة »[2] وهي ضرب من الرقية والعلاج لمن كان يظن ان به مسّ الجن ، وسميت نشرة لانه ينشر بها عنه ويحل عنه ما خامره من الداء .

٩ – بعض اوهام الجاهليين في الوقاية والمعالجة : إننا نكتفي بذكر بعضها لبيان طرافتها ، منها : أن الغلام إذا سقط له سن أخذها بين السبابة والإبهام واستقبل الشمس إذا طلعت وقذف بها مناديا : ياشمس ابدليني بسن احسن منها زعماً منهم أنه إذا لم يفعل ذلك ربما نبتت سنه الثانية مشوهة أو غير صحيحة وان في ذلك وقاية للأسنان من العوج والفلج ـ تباعد ما بين الاسنان ـ والثعل ـ فساد الأسنان .

وكانت العرب تعتقد ان دم الملك يشفي من عضة الكلب ؛ لذلك كانوا يأخذون بضع قطرات من دم الملوك ويمزجونها بالماء ويسقونها للمصاب بالكلب

---

(١) الراقية مؤنث الراقي والراق من يصنع الرقية وربما ضمن معنى قرأ .

(٢) جاء ذكر النشرة في قول جرير :

ادعوك دعوة ملهوف كأن به ... مساً من الجن او ريحاً من النشر

فيشفى على حد زعمهم[1] .

ومن مزاعم الجاهليين الخرافية حمل الملوك على الاعناق اذا مرضوا لانه عندهم اسهل للملك واكثر راحة مما لو وضع على الارض .

ومن مزاعمهم ان الرجل منهم كان اذا خدرت رجله أو مذلت ، ذكر من يحب أو دعاه فيذهب خدرها[2].

ومن مزاعمهم أن الرجل منهم كان إذا عشق وأفرط عليه داء العشق كوى بين إليتيه فيذهب داؤه[3] .

وكانت العرب تعلق على الصبي سن ثعلب أو سن هرة خوفاً من الخطفة والنظرة ، ويقولون ان جنية ارادت صبي قوم فلم تقدر عليه ، فلامها قومها من الجن فقالت تعتذر اليهم : كان عليه نفرة ، ثعالب وهررة ، تعني كان عليه ما ينفرني منه لان اتعرض له. وتسمى هذه الاشياء التي تعلق على الصبي النفرات .

ومن مزاعمهم : اذا بثرت شفة الصبي حمل منخلا على رأسه ونادى بين بيوت الحي : الحلأ الحلأ[4] ، فتلقي له النساء كسر الخبز وأقطاع التمر واللحم في المنخل ثم يلقى للكلاب فتأكله فيبرأ الصبي من المرض ، فإن أكل صبي من الصبيان من ذلك الذي ألقاه للكلاب تمرة او لقمة أو لحمة بثرت شفته .

---

(١) وفي ذلك يقول الشاعر :

بناه مكارم وأساة جرح	دماؤهم من الكلب الشفاء

(٢) قال كثير :

إذا مذلت رِجلي ذكرتك أشتفي	بدعواك مِنْ مَذْلٍ بها فيهون

(٣) قال أعرابي :

شكوت إلى رفيقيّ اشتياقي	فجـاءاني وقد جمعا دواء
وجـاءا بالطبيب ليكوياني	ولا أبغي عدمتهما اكتواء
ولو أتيا بسلمى حين جاءا	لعاضاني من السقم الشفـاء

(٤) الحلأ : محركة المقبول وهو واحد العقـابيل وهي بقايا العلة وما يخرج على الشفة عقب الحمى قال شاعرهم :

الاحلاني شفة مشقوقـة	فقد قفى منخلنا حقوقه

ومن مزاعمهم ان الرجل منهم كان اذا ظهرت فيه القوباء عالجها بالريق[1].

ومن مزاعمهم : ان من ولد في القمراء تقلصت غرلته فكان كالمختون .

ومن مذاهبهم التشاؤم بالعطاس ، وكان اذا عطس من يحبونه قالوا له : عمراً وشباباً ، واذا عطس من يبغضونه قالوا له : وَرْياً وقُحاباً ، والورى كالرمى داء يصيب الكبد فيفسدها والقُحاف كالسعال وزناً ومعنى ، فكان الرجل اذا سمع عطاساً يُتشاءم به قال : بكلابي ، شؤم عطاسك ، بك لا بي .

ومن مزاعمهم : ان الرجل منهم اذا اختلجت عينه قال : أرى من أحبه فإن كان غائباً توقع قدومه ، وان كان بعيداً توقع قربه ، وإن كان مريضا استبشر بشفائه ، وهذا الوهم باق في الناس الى اليوم[2] .

وهنالك مزاعم أخرى آثرنا ذكرها لانها ما زالت شائعة بين الناس منها : انهم كانوا اذا رحل الضيف او غيره واحبوا الا يعود كسروا شيئاً من الاواني وهذا ما يعمله بعض الناس اليوم ايضاً[3] .

ويحق لنا ان نتساءل عن مصدر هذه الخرافات لدى الجاهليين : هل هي من مبتكراتهم ام جاءتهم من غيرهم ؟ ويبدو انها انتقلت اليهم من كتب الامم الاقدمين قبل نبوءة عيسى عليه السلام ، مثل النبط والكلدانيين واهل بابل الذين كان لهم فيها التأليف والآثار .

---

(١) يروى ان اعرابياً اصابته قوبة فقيل له : ضع كل يوم عليها الريق فتشفى . قال في ذلك : يا عجباً لهذه الفليقة   هل تُذهبن القوباءَ الريقة والفليقة الداهية .

(٢) قال بشر : اذا اختلجت عيني أقول لعلها   فتاة بني عمرو بها العين تلمع

وقال آخر : اذا اختلجت عيني تيقنت أنني   أراك وان كان المزار بعيدا

وقال غيره : اذا اختلجت عيني اقول : لعلها   لرؤيتها تهتاج عيني وتطرف

(٣) قال بعضهم : كسرنا القدر بعد أبي سواح   فعاد وقدرُنا ذهبت ضياعا

وقال آخر مفتخراً :

ولا نكسر الكيزان في إثر ضيفنا   ولكننا نكفيه زاداً ليرجعا

ونرى من الفائدة ان ننهي ابحاث هـــذا الفصل ببعض ما جـاء في كتاب الفهرست لابن النديم[١] عن اخبار المعزمين[٢] والمشعبذين[٣] والسحرة واصحاب النيرنجيات[٤] والحيل والطلسات .

قال محمد بن اسحق النديم : زعم المعزمون ان الشياطين والجن والارواح تطيعهم وتخدمهم وتتصرف بين امرهم ونهيهم وزعمت السحرة انها تستعبد الشياطين بالقرابين والمعاصي وارتـكاب المحظورات مثل إباحة الدم ونـكاح ذوات المحرم وغيرذلك من الافعال الشرية وزعم الجميـع من المعزمين والسحرة ان لهم خواتيم وعزائم ورقى وغير ذلك مما يستعملونه في علومهم.



الشكل – (٢) صورة تمثل مشعوذاً يقدم قطعة قماش
لامست الدب لكل من السيدتين الواقفتين امامه

---

(١) كتاب الفهرست ص ٢٩ ؛

(٢) يقصد بالمعزمين الراقين من الرقية والعزائم بمعنى الرقى

(٣) نوع من السحرة .

(٤) جمع طلسم تطلق على خطوط واعداد يزعم كاتبها انه تربط بها قدرة الكواكب العلوية بالطبائع السفلية. انظر الى ماجاء عن هذه الكلمة في هامش الصفحة ١٧ من هذا الكتاب.

وتوهمت طائفة من عبدة النجوم انهم يعملون الطلسمات وارصاد الكواكب لجميع مايرونه من الافعال والتهيجات ، والعطوف والتسليطات ، ولهم نقوش على الحجارة والخرز والفصوص ، وللهند اعتقاد في ذلك ، وافعال عجيبة ، وللصين حيل وسحر من طريقة اخرى ، وللهند خاصة علم التوهم ، ولها في ذلك كتب ، قد نقل بعضها الى العربي ، وللترك علم من السحر . تكلم عن السحر قالشتانس فذكر خواص الاشياء والنيرنجيات والطلسميات وتكلم عن الطلسمات بلنياس الحكيم وأروس وهما روميان - يونانيان - وكتب هرمس في النيرنجيات والطلسمات وفي النشر والتعاويذ والعزائم ولفربقويوس كتاب في الاسماء والتمائم والعوذ .

وقد اشتهر من السحرة ابن وحشية الكلداني وكان يدعى انه ساحر يعمل أعمال الطلسمات وله كتب فيها وفي السحر ، منها كتاب السحر الكبير وكتاب السحر الصغير وكتاب مذاهب الكلدانيين في الاصنام وكتاب الاشارة في السحر وكتاب اسرار الكواكب . هذا وما زالت رواسب هذه الخرافات شائعة في بلاد الحضارة اليوم ومعتقدة بين الناس ومرتكزة في صميم الكثيرين ، من المثقفين وغير المثقفين .

إن ما نسميه نحن الآن بالخرافات ظاهراً ، نكبر امرها باطناً ونعاملها معاملة الحقائق لا الأوهام مع ان عصرنا عصر النور والحضارة والعرفان (١) .

سر اينما كان من اوروبا تجد مايدهشك من اثار تشبث اهلها بالخرافات واعتقادهم بشفاء الامراض بقوة خارقة سرية واذى العين واتقائها بالتعاويذ والرقى والتمائم والسحر والشعوذة الى آخر ما هناك . ومن خرافاتهم ان حمل

---

(١) من مقال للمقتطف عنوانه الخرافات في بلاد الحضارة مجلد ٩٤ ص ٣٠٥ وقد جاء فيه: ومن المعتقدات الخرافية تحميل الزوجين وهما ذاهبان الى الكنيسة لعقد الزواج قليلا من الملح في جيوبهما تفاؤلا بسعادة زوجية ومنها دهن الاطفال المشوهين الناقصي النماء العقلي بالسخام Suit او بدهن الدب. حاربت النصرانية جميع هذه الخرافات والهت الناس عنها بالزيت المقدس.

أشعار الدببة مبشر بالخير دافع للضر وكذلك شأن الاقمشة التي يلامسها هذا الحيوان وهذا الوهم شائع في بعض قرى الغرب .

وقد جاوزت هذه السخائف البلاد القديمة العهد بالحضارة الى الحديثة العهد بها وانتقلت بمثل العدوى من رؤوس الجهلاء الى رؤوس العقلاء ، ويُعتقد في أكثر بلدان العالم بتعليق قطع معدنية بشكل نعل الفرس في الدور لرصد الشرر المتطاير من العيون ويحمل بعضهم أمتعة تمثل رأس الشيطان او غير ذلك من اشياء مستهجنة ، واذا مر قوم بمن لاتروقهم مصادفته لمسوا الخشب اعتقاداً منهم ان ذلك ينجيهم من الشر الذي قد يأتيهم من شؤم عابر السبيل الذي مر بهم .

وفي امريكا يعتقدون بصنوف عديدة من علامات الفأل والشؤم او السعد والنحس ومن اشهر تلك العلامات واكثرها شيوعاً بينهم ان الرقم ١٣ رقم نحس .

وترى المنجمين وقراء الكف والجمجمة والعائفين والقافة زاهين زاهرين في كل بلدة وقد بلغ التنجيم غايته في بلد أكب علماؤه على درس علم الفلك حتى ان الصحف اليومية تنشر جدولاً يومياً للطوالع تزعم انه مبني على حسابات فلكية وكثيراً ما تنشيء مقالات طويلة في تكهنات ما أنزل الله بها من سلطان وكل سنة تصدر في الغرب كتب في التنجيم يتصرف كاتبوها في هذا البحث كأنه من مباحث العلوم القانونية وفروعها الرسمية وكثيراً ماتقرظ هذه الكتب في اعظم المجلات فتقدم للجمهور ككتب باحثة عن تأثير الكواكب في الناس وأعمالهم وحركاتهم وسكناتهم وقد تجمع المعرفة والعرافة في صفحة واحدة من صفحات بعض المجلات المحترمة .

وخلاصة القول ان تصديق الخرافات صفة قديمة رسخت في النفوس بمرور القرون الكثيرة عليها فلا تزول منها ، لابأثر العلم ولا أثر الدين والغريب في أمر المعتقدات الخرافية ان جماعة من اكبر العلماء وأرسخهم في العلوم الطبيعية كعبا لايستطيعون ان يحرروا أنفسهم منها مع محاولاتهم ذلك فما قول

القارىء بجماهير العامة السريعة التصديق . وفي كل بلد نجد فئة من أصحاب الغرض الاذكياء الذين يرون موضع الضعف هذا من الجماهير فيتخذونه آلة للكسب وجر الربح وهي فرصة سانحة لهم وهم أقدر الناس على اقتناصها فلا يتركونها تفلت من أيديهم .

وقد جاء في المقال المشار اليه : أخبرنا صديق صادق انه كان في باريس طبيب تعلم وتخرج في مدرستها الطبية ونال الشهادة المؤذنة له بتعاطي صناعة الطب فأقام في منزل وكتب اسمه على بابه واستعان ببعض الاصدقاء على تعريف الناس به ومضت عليه الآيام والشهور وهو لايكتسب من صناعته مايفي باجرة منزله وأخيراً أقنعه بعضهم ان يدعي انه يشفي بالتمائم ويعالج بالطلاسم ففعل وأقبل عليه المرضى الموسوسون واشتهر أمره فلوحق بتهمة تعاطي مهنة الطب بدون شهادة فأبرز الشهادة التي تجيز له التطبيب واستمر على صناعته . وهكذا نرى أن إيمان الناس بالخرافات متأصل في النفوس على الرغم من محاربة الدين والعلم والقانون لها .

البحث الرابع

حكماء العرب واطباؤهم قبل الاسلام

عرف منهم لقمان بن عاد الملقب بالحكيم - كان يقيم في بلاد الشام - ودامیان وكوسم وزهير بن جناب وحذيم وزينب .

لقمان الحكيم : كان لقمان عبداً حبشياً جاء ذكره في القرآن الكريم بقوله عز وجل : « ولقد آتينا لقمان الحكمة » « وإذا قال لقمان لابنه وهو يعظه »[1].

---

(١) سورة لقمان ٣١ آية ١٢ وآية ١٣ ومما يحسن التنبيه اليه هو ان لقمان هذا غير لقمان ابن عاد الاكبر والاصغر .

وانما لذاكرون من حكمه ماله صلة بالطب والنفس فقد روي عنه أنه بينما هو مع مولاه إذ دخل المخرج فأطال فيه الجلوس فناداه لقمان قائلاً : إن طول الجلوس على الخلاء يرفع الحرارة الى الرأس ويتجع منه الكبد ويورث الباسور فاجلس هُوَيني وقم هُوَينى ومن أقواله ليس مال كصحة ولا نعيم كطيب عيش، ومنها لا تقلق نفسك بالهموم ولا تشغل قلبك بالأحزان، كل داء حسم بالكي آخر الأمر ومنه المثل : آخر الدواء الكي وإياك والطمع وارض بالقضاء واقنع بما قسم الله لك يصف عيشك وتسر نفسك وتستلذ حياتك [1].

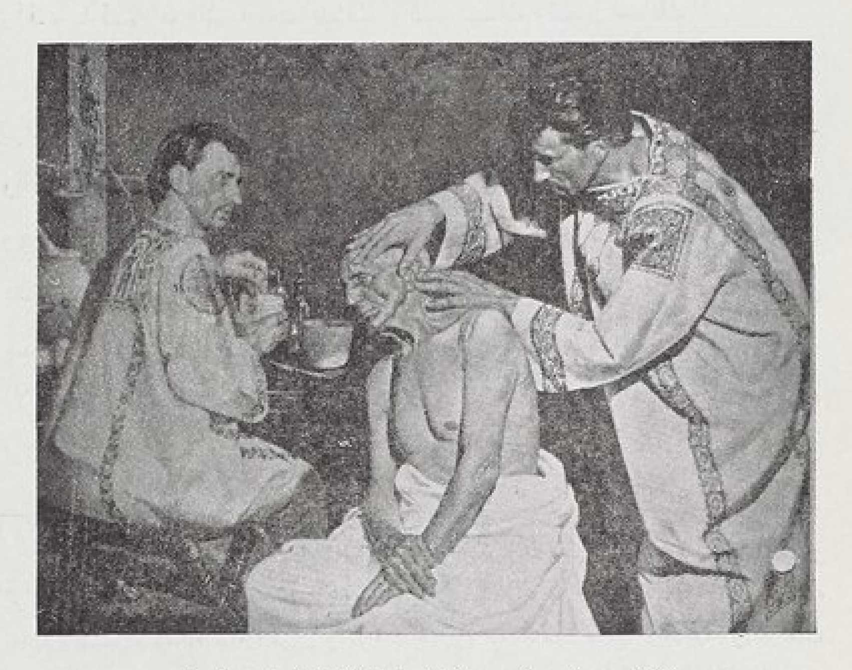
داميان وكومم : عد داميان وكوسم أبوي الطب والصيدلة وهما شقيقان توأمان عربيان عاشا في سورية حوالي السنة الثلاثمائة بعد الميلاد، خبرا الطب والصيدلة، عالجا المرضى بتوفيق عجيب، وورثا عن اصولهما ثروة طائلة صرفاها في عمل الخير وفي الانفاق على المرضى. اعتنقا المسيحية فكانا من العناصر المبشرة بها وقد عذبا بسبب عقيدتهما من قبل حكام الرومان المناهضين للديانة الجديدة حتى استشهدوا في سبيل النصرانية وبقي ضريحاهما محجة المرضى الزمنين . ويحدث التاريخ ان الامبراطور جوستينيان (أ) نال بقدسية مثواهما البرء من مرض خطر ألم به لذلك عمر المدينة التي طبا فيها وجملها بكنيسة زينت باسمهما كما اشاد على شرفهما

(١) ذكر القليوبي لقمان الحكيم فقال عنه : ذكر أن لقمان النوبي الحكيم بن عنقاء بن بَرْوَق من أهل أيلة اعطاه سيده شاة وامره ان يذبحها ويأتيه بأخبث ما فيها. فذبحها واتاه بقلبها ولسانها ثم اعطاه شاة أخرى وأمره بذبحها ويأتيه باطيب ما فيها. فذبحها واتاه بقلبها ولسانها فسأله عن ذلك فقال له : ياسيدي لا اخبث منها اذا خبثا ولا أطيب منها اذا طابا .

وذكر الشريشي لقمان فقال عنه نقلا عن ابي اسحق الثعلبي : كان لقمان من اهون مماليك سيده عليه . فبعثه مولاه مع عبيد له الى بستانه يأتونه بشيء من ثمر. فجاءوه وما معهم شيء وقد اكلوا الثمر واحالوا على لقمان فقال لقمان لمولاه : ذو الوجهين لايكون عند الله وجيهاً فاسقني واياهم ماءً حميا ثم أرسلنا لنعدو ففعل فجعلوا يتقيؤون تلك الفاكهة ولقمان يتقيأ ماء فعرف مولاه صدقه وكذبهم .

أ - Justinien

كنيسة أخرى في العاصمة البيزنطية وألحق بها صيدلية ومستشفى وقد نقلت في زمن البابا فيليكس (أ) رفاتهما الى رومـا حيث شيدت فيها كنيسة خلدت ذكراهما . شغلت سيرة داميان وكوسم عدداً من الفنيين الرسامين كبوتيشللي (ب) وميكائيل آنج (ج) وتينتوره (د) وتيتيان (ه) وفرا انجليكو (و) فأوحت اليهم تخليد صورهما في لوحات فنية رائعة تمثل احداهما داميان قائماً بعمل صيدلاني وكوسم منكباً على قارورة يفسر فيها تشخيص المرض .



الشكل - (٣) صورة تبين عناية الشقيقين باحد المرضى

زهير بن جناب بن هبل الحميري : كان من معمري العرب ويقال كانت فيه عشر خصال لم يجتمعن في غيره من أهل زمانه منها أنه كان سيد قومه ،

أ - Felix ب - Botticelli ج - Michel Ange د - Tintoret
ه - Titien و - Angelico

وشريفهم وخطيبهم وحازي – كاهن – قومه وفارس قومه وله البيت الرفيع فيهم والعدد الكبير منهم ومما جاء في وصيته الى بنيه :

يابني إني قد كبرت سني فاحكمتني التجارب والامور فاحفظوا عني ما أقول وعوه : اياكم والخور عند المصائب ، والتواكل عند النوائب فان ذلك داعية للغم وشماتة للعدو ، واياكم ان تكونوا بالاحداث مغترين ، ولها آمنين ، ومنها ساخرين فانه ماسخر قوم قط إلا ابتلوا ولكن توقعوها فان الانسان غرض تعاوره الرماة ، فمقصر دونه ، ومجاوز لموضعه ، وواقع عن يمينه وشماله ، ثم لابد ان يصيبه . لم يكن في العرب أنطق من زهير ولا اوجه عند الملوك وكان لسداد رأيه يسمى كاهناً وكان سيداً مطاعاً شريفاً في قومه . كان طبيبهم والطب في ذلك الزمن شرف ، عاش حتى هرم وذهب عقله فلم يكن يخرج إلا ومعه بعض ولده او ولد ولده . قيل انه عاش ثلاثمائة سنة وخمسين سنة كما زُعم ان زهيراً عاش اربعمائة سنة وعشرين سنة . وليس طول العمر الى هذا الحد معقولا وترتد في نظرنا مزاعم طول البقاء في القديم الى احد امرين او الى كليهما معاً .

١– ان سنة التاريخ القديم قد تكون غير سنتنا وهذا مايراه بعض البحاثين

٢– خطأ طريقة حسابهم الاعمار اذ كانوا يعتمدون على الانسر وعلى متوسط عمرها وهو ثمانون عاماً فيأخذون فرخ النسر الذكر فيعيش ما عاش فاذا مات أخذ آخر كما يستدل من اقوال الضبي والاعشى [1] ولبيد في ذلك .

ولاشك ان هذه الطريقة عرضة لأخطاء كثيرة وهي في نظرنا السبب في الزعم بالتعمير المديد في التاريخ القديم وذلك لانه اذا كانت مدة حياة النسر المتوسطة ثمانين عاماً كما زعموا فقد يموت النسر او يهرم في عشر سنين او اكثر او اقل .

---

(١) قال الاعشى مشيراً الى طريقة حساب العمر بالانسر :

لنفسك اذ تختار سبعة انسر ... إذ ما مضى نسر خلوت الى نسر
فعُمّر حتى خال ان نسوره ... خلود وهل تبقى النفوس على الدهر

ابن حذيم : كان ابن حذيم[1] له قدم راسخة في علم الطب ، وله فيه أطول باع وهو رجل من تيم الرباب كان أطب من الحرث بن كلدة وكان أطب العرب .

اختلف الرواة في اسمه فقال بعضهم انه حذيم واستندوا في ذلك الى المثل السائر فيه وهو : أطب من حذيم وقال الآخرون انه ابن حذيم حذف منها المضاف[1] .

وفي كل حال ان كلمة حذيم تدل على الحذق ولما كان الطبيب المذكور حاذقاً في صنعته فقد عرف بصنعته دون النظر الى اسمه الاصلي أكان حذيماً ام ابن حذيم .

زينب طبيبة بني أود : كانت عارفة بالاعمال الطبية ، خبيرة بالعلاج ومداواة آلام العين والجراحات مشهورة عند العرب[2] .

---

(١) قال ابن حجر :

فهل لكم فيها الي فانني بصير بما اعيا النطاسي حذيما

وقال المحقق الشريف الرضي في شرح الكفاية على ان فيه حذف مضاف اي ابن حذيم وأورد ذلك ايضاً العلامة البغدادي في الخزانة اذ تمثل بحذف الشاعر « ابن » من ابن حذيم وقد زعم ابن السكيت ان الطبيب هو حذيم لا ابن حذيم .

(٢) ذكر ابو الفرج الاصفهاني في كتاب الاغاني قال رجل من الاعراب :

أتيت امرأة من بني أود لتكحلني من رمد اصابني ، فكحلتني ثم قالت : اضطجع قليلاً حتى يدور الدواء في عينيك فاضطجعت ثم تمثلت قول الشاعر :

اخترمي ريب المنون ولم أزر طبيب بني أود على النأي زينبا

فضحكت ثم قالت : اتدري فيمن قيل هذا الشعر ؟ قلت : لا . قالت : في والله قيل ؟ وانا زينب التي عناها وانا طبيبة بني اود افتدري من الشاعر ؟ قلت لا . قالت : عمك ابو سماك الأزدي .

البحث الخامس

طبقات الحكماء الاطباء الذين عاصروا الاسلام

اشتهر منهم الحارث بن كلدة الثقفي وابنه النضر وابن أبي رمثة التميمي والشمردل بن قباب وضماد بن ثعلبه وشفاء بنت عبدالله ورفيدة وام عطية الانصارية.

الحارث بن كلدة الثقفي: كان من الطائف تعلم الطب في مدرسة جند يسابور من أعمال بلاد فارس وتمرن هناك وعرف الداء والدواء ، طب بأرض فارس وعالج وحصل بذلك على مال هناك وشهد أهل بلاد فارس بعلمه وكان قد عالج احد أجلائهم فبرأ وأعطاه مالاً وجارية سماها الحارث سمية ثم ان نفسه اشتاقت الى بلاده فرجع الى الطائف واشتهر طبه بين العرب وكان الرسول يوصي بالتطبيب عنده .

وكان للحارث معالجات كثيرة ومعرفة بما كانت العرب تعتاده وتحتاج اليه من المداواة وله كلام مستحسن فيما يتعلق بالطب وغيره من ذلك انه لما وفد على كسرى انوشروان أذن له بالدخول عليه فلما وقف بين يديه منتصباً قال له : فما صناعتك ؟ قال الطب ، قال أأعرابي أنت ؟ قال نعم من صميمها وبحبوحة دارها، قال : ماتصنع العرب بطبيب مع جهلها وسوء أغذيتها . قال ايها الملك اذا كانت هذه صفتها كانت أحوج الى من يصلح جهلها ويقيم عوجها ويسوس أبدانها ويعدل أمشاجها فان العاقل يعرف ذلك من نفسه ويميز موضع دائه ويحترز عن الادواء كلها بحسن سياسته لنفسه .

قال فاستوى كسرى جالساً وجرى ماء رياضة الحلم في وجهه لما سمع من محكم كلامه ثم أمره بالجلوس فجلس فقال : كيف بصرك بالطب ؟ قال ناهيك،

قال فما أصل الطب: قال الأزم، وهو ضبط الشفتين والرفق باليدين، قال أصبت قال فما الداء الدوي؟ قال ادخال الطعام على الطعام هو الذي يفني البرية ويهلك السباع في جوف البرية، قال أصبت، قال فما الجمرة التي تصطلم منها الادواء، قال هي التخمة ان بقيت في الجوف ثقلت وان تحللت أسقمت قال صدقت.
قال فما تقول في الحجامة؟ قال في نقصان الهلال في يوم صحو لاغيم فيه والنفس طيبة والعرق ساكنة لسرور يفاجئك وهم يباعدك. قال فما تقول في دخول الحمام؟ قال لا تدخله شبعاناً ولا تغش أهلك سكراناً ولا تقم بالليل عرياناً ولا تقعد على الطعام غضباناً وارفق بنفسك يكن أرخى لبالك وقلل من طعامك يكن أهنأ لنومك قال فما تقول في الدواء؟ قال مالزمتك الصحة فاجتنبه فان هاج داء فاحسمه بما يردعه قبل استحكامه فان البدن بمنزلة الارض إن أصلحتها عمرت وان تركتها خربت، قال فما تقول في الشراب؟ قال أطيبه أهنأه وارقه امرأه واعذبه اشهاه لاتشربه صرفاً فيورثك صداعاً ويثير عليك من الأدواء انواعاً، قال فأي اللحمان افضل؟ قال الضأن الفتي، والقديد المالح مهلك للآكل، واجتنب لحم الجذور والبقر، قال فما تقول في الفواكه؟ قال كلها في اقبالها وحين أوانها واتركها اذا أدبرت وولت وانقضى زمانها وأفضل الفواكه الرمان والاترج وأفضل الرياحين الورد والبنفسج وأفضل البقول الهندباء والخس قال فما تقول في شرب الماء؟ قال هو حياة البدن وبه قوامه ينفع ماشرب منه بقدر، وشربه بعد النوم ضرر أفضله وأرقه أصفاه، قال أفتأمر بالحقنة؟ قال نعم قرأت في بعض كتب الحكماء ان الحقنة تنقي الجوف وتكسح الادواء عنه وان الجهل كل الجهل أن يأكل الإنسان ماقد عرف مضرته ويؤثر شهوته على راحة بدنه. قال فما الحمية؟ قال الاقتصاد في كل شيء فان الأكل فوق المقدار يضيق على الروح ساحتها ويسد مسامها.

روى داوود بن رشيد عن عمرو بن عوف قال لما احتضر الحرث بن كلدة اجتمع اليه الناس فقالوا: مرنا بأمر ننتهي اليه من بعدك فقال لاتتزوجوا من

النساء إلا شابة ولا تأكلوا الفاكهة إلا في اوان نضجها ولا يتعالجن احد منكم مااحتمل بدنه الداء وعليكم بالنورة في كل شهر فانها مذيبة للبلغم مهلكة للمرة منبتة للحم واذا تغدى احدكم فلينم على أثر غدائه واذا تعشى فليخط اربعين خطوة ومن كلامه ايضاً دافع بالدواء ماوجدت مدفعاولا تشربه إلا من ضرورة فانه لايصلح شيئاً إلا أفسد مثله وله من الكتب كتاب المحاورة في الطب بينه وبين كسرى انوشروان [1].

النضر بن الحرث بن كلدة الثقفي : هو ابن خالة النبي الأمين وكان النضر قد سافر البلاد ايضاً كأبيه واجتمع مع الأفاضل والعلماء بمكة وغيرها وعاشر الأحبار والكهنة واشتغل وحصل من العلوم القديمة اشياء جليلة القدر واطلع على علوم الفلسفة واجزاء الحكمة وتعلم من ابيه ايضاً ما كان يعلمه من الطب وغيره وكان النضر كثير الأذى والحسد للنبي الكريم ويتكلم فيه بأشياء كثيرة كيما يحط من قدره عند أهل مكة ويبطل ماأتى به بزعمه . ناصرقريشاً في غزوة بدر وقتل بعدها .

ابن ابي رمثة التميمي : كان طبيباً على عهد رسول الله الامين مزاولا لأعمال اليد وصناعة الجراح .

الشمردل بن قباب الكعبي النجراني : كان الشمردل [2] في وفد نجران بني الحارث بن كعب فنزل بين يدي النبي الرسول فقال :

يارسول الله بأبي انت وأمي كنت كاهنَ قومي في الجاهلية ، واني كنت اتطبب ، فما يحل لي قال : (فصد العرق ومجسة الطعنة إن اضطررت وعليك بالسنا ولا تداو احداً حتى تعرف داءه) قال : والذي بعثك بالحق أنت أعلم بالطب مني .

---

(١) بقي الحارث ايام الرسول وابي بكر وعمر وعثمان وعلي ومعاوية .

(٢) الإصابة لابن حجر العسقلاني .

ضماد بن ثعلبة الأزدي : قال ابن عباس : قدم رجل من أزد شنوءة[1] يقال له ضماد مكة معتمراً فسمع كفار قريش يقولون : محمد مجنون . فقال : لو اتيت هذا الرجل فداويته فجاءه وقال : يامحمد اني أداوي من الريح فإن شئت داويتك لعل الله ينفعك فتشهّد رسول الله صلى الله عليه وسلم وحمد الله وتكلم بكلمات فأعجب ذلك ضماداً فقال : أعدها علي فأعادهاعليه فقال : لم اسمع مثل هذا قط ، لقد سمعت كلام الكهنة والسَحَرة والشعراء فما سمعت مثل هذا قط ، لقد بلغ قاموس البحر يعني قعره فأسلم وشهد شهادة الحق وبايعه على نفسه وعلى قومه .

الشفاء بنت عبد الله : اشتغلت بالطب ومما اشتهرت به معالجتها النملة[2] بالرقى في الجاهلية وقد استأذنت الرسول بمتابعة عملها وكانت قد بايعته بمكة : قالت يارسول الله اني كنت أرقي في الجاهلية من النملة واني اريد ان اعرضها عليك فعرضتها عليه فاذا هي اللهم اكشف الباس رب الناس .

رفيدة : طبيبة متميزة بالجراحة ولذلك اختارها الرسول لتقوم بالعمل في خيمة متنقلة وقد روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها انها قالت : اصيب سعد بن معاذ يوم الخندق . رماه رجل من قريش ، ابن العرقة ، رمى في الاكحل[3] فأمر الرسول رفيدة ان تقيم خيمة في المسجد ليعوده من قريب[4] .

قال ابن اسحاق في السيرة : كان رسول الله قد جعل سعد بن معاذ في خيمة لامرأة من أسلم يقال لها رُفَيْدة في مسجده ، كانت تداوي الجرحى وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين وقد كان رسول الله قد قال للقوم حين اصابه السهم بالخندق (اجعلوه في خيمة رفيدة حتى اعوده من قريب[5]) .

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد جزء ٤ قسم ١ ص ١٧٧ .

(٢) مرض جلدي من نوع الاكزيما eczéma جاء عنه في اللغة النملة داء معروف وهو قروح تخرج في الجنبين وقد سمي نملة لان صاحبه يحس في مكانه كأن نملة تدب عليه وتعضه .

(٣) الاكحل هو الوريد المتوسط في اليد veine médiane .

(٤) الجزء الثاني من تخريج الدلالات السمعية. (٥) سيرة ابن هشام ج١ ص٦٨٨ .

ام عطية الأنصارية : كانت معدودة بين الاطباء في الجاهلية عاصرت الاسلام ودخلت في دين الله اشتهرت بالجراحة وغزت مع الرسول حيث كانت تداوي الجرحى وتقوم على المرضى [1].

كعيبة بنت سعد الأسلمية : احدى النجيبات المعدودات من طبيبات العرب وكانت لها خيمة تداوي فيها .

قس بن ساعدة : خطيب العرب قس نجران كان حكيماً طبيباً بليغاً في منطقه يضرب به المثل في البلاغة والحكمة والموعظة الحسنة، كما يدين بالتوحيد، ويؤمن بالبعث ويدعو العرب الى نبذ الاوثان ، في المحافل العامة ، ومواسم الاسواق ، سمعه النبي قبل البعثة يخطب بعكاظ ، فعجب من حسن كلامه واثنى عليه وعمر طويلاً . روى الخليل بن احمد ان قيصر الروم استطبه فلما مثل بين يديه حمد الله واثنى عليه ، فأمره بالجلوس، فجلس ورحب به ، وادنى مجلسه، وقال : مازلت مشتاقاً اليك لما سمعت من مناظرتك في الطب قال : فمن أي شيء يكون الثمل الذي يذهب الغم ويطيب النفس ؟ قال : زعموا ان العقل تصعده سوره الشراب الى الدماغ ، فاذا صعدت السورة الى الدماغ الذي هو اصله ، احتجب البصر بغير عمى ، والسمع بغير صمم ، واللسان بغير خرس ، فلا يزال العقل كذلك محتجباً حتى تفكه الطبيعة من آثار السكر ، اما بقوة فيعجل ، واما بضعف فيبطىء .

قال : فصف لي الاطعمة ، قال : الاطعمة كثيرة مختلفة ، وجملة ما آمرك به الامساك عن غاية الاكثار،فان ذلك من أفضل مابلوناه من الادوية ،ورأس مانأمر الحمية ، قال له : عمّن حملت الحكمة ؟ قال : عن عدّة من الفلاسفة .

وكان في العرب كثير من المتطببين غير هؤلاء يخلط بعضهم بين الرّقى والتطبيب ، وبعضهم الآخر كان قد تعلم الطب في فارس او في احدى البلاد المجاورة لجزيرة العرب ثم رجع الى موطنه يعاني مهنة التطبيب .

---

(١) تاريخ البيارستانات في الاسلام لمؤلفه الدكتور احمد عيسى بك من مطبوعات جمعية التمدن الاسلامي بدمشق ص ٨ .

الفصل الثاني

الانسانية والانسان

نبحث في هذا الفصل عن الإنسانية والانسان وانواعه وعن الرسل والانبياء بين بني الإنسان وعن الأنبياء العرب .

البحث الأوّل

الإنسانية والإنسان

آ – **الانسانية** : الإنسانية كلمة مشتقة من الإنسان ومنسوبة اليه يقصد بها تحلـّي الإنسان بمزايا كريمة ، منها تبادل الوفاء والرحمة والتعاطف والمواساة وما الى ذلك من صفات ممتازة يعرف بها الإنسان الصالح للمجتمع .

ولكن علينا أن نتساءل عما اذا كانت هذه الصفات وجدت مع الإنسان أم انها كانت نتيجة نضوجه الفكري وسموه العقلي .

اننا لو عدنا الى تاريخ الإنسان منذ بدء تخلقه لرأيناه متصفاً بصفات تبعد عن الصفات التي عددناها في تفسير كلمة الإنسانية ، هذا قابيل يقتل أخاه هابيل ظلماً وعدوانا ، وهذا نيرون يحرق روما ليتلذذ بأنـّات الناس ومنظر اللهب ، وهذا هو الإنسان المستعمِر يضحي بالإنسان المستعمَر ، أخيه في الإنسانية في

سبيل تأمين رفاهه وتوفير هنائه ولو كان في ذلك قتل من أجاز لنفسه بغياً وعدوانا استعماره . فاذا نظرنا الى شذوذ الإنسان الطالح وطغيان الانانية عليه وجدنا فيه من الصفات مايصح معه أن نذكر قول المعري في الانسان[1] .

انواع الانسان : على ان الانسان يختلف عن الحيوان بادراكه وتفكيره بعقله ومنطقه ، كما ان الإنسان لايشابه أخاه الإنسان تمام المشابهة ، بل يختلف الواحد عن الآخر باختلاف الإدراك والتفكير ، باختلاف سعة نفع كل منهما الى مجتمعه وبيئته ، الى قومه وأمته ، لابل الى الناس أجمعين .

وهذا مادعا علماء العرب الى القول : ان العلة الموجبة الى تنوع الانسان هي النفس وأن للنفس ثلاث قوى هي : القوة الشهوانية ، القوة الغضبية ، القوة الناطقة ، فمن هذه القوى مايكون للانسان وغيره ، ومنها مايختص به الإنسان فقط .

أما القوة الشهوانية فهي للانسان ولسائر الحيوان وهي التي يكون بها جميع اللذات والشهوات الجسمانية كالقرَم الى المآكل والمشارب ، وهذه القدرة تكون قوية جداً فاذا لم يقهرها الإنسان ويؤدبها ملكته واستولت عليه وانقاد لها وكان بالبهائم أشبه منه بالناس فهو في هذه الحالة الإنسان الخالص الحيوانية .

أما القوة الغضبية فيشترك فيها ايضاً الإنسان وسائر الحيوان وهي التي يكون بها الغضب ومحبة الغلبة وهي أقوى من القوة الشهوانية وأضر للمجتمع ولصاحبها اذا ملكته وانقاد لها بحيث يعود بالسباع أشبه منه بالناس .

وأما القوة الناطقة فهي التي يتميز بها الإنسان من جميع الحيوان وهي التي بها يكون الفكر والتمييز والفهم وهي التي بها شرف الإنسان لأنها تحسّن له المحاسن وتجنّبه القبائح ، وبها يمكن له أن يهذب قوتيه الشهوانية والغضبية .

يعالج العلم الحديث انواع الإنسان فيقر ماأثبته العلم القديم من أن الإنسان

---

(١) عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى   وصوت انسان فكدت اطير

جسم ونفس[1] ويقول أيضاً بتنوع البشر باختلاف حدود النفس في افراده[2] فهي في بعضهم محدودة تلبس الجسم فلا تتعدى حدودها حدوده ، تخالط الدم واللحم فتنبيء عن حاجة الجسم الى طعام وشراب وتحرك أعضاءه لتأمين حاجاته وتلبية رغباته وقضاء شهواته ، إن هذه الزمرة من الأشخاص هي كالسائمة بل أضل منها سبيلا .

إن حدود النفس في البعض الآخر أوسع مدى من ذلك ، تتعدى حدودها فيهم حدود الجسم فتنتشر انتشاراً تختلف سعته من انسان الى انسان ، فان كانت النفس صالحة أرشدت الى الحرية والإخاء ودعت الى العدل والتعاطف وغير ذلك من الصفات الإنسانية[3] .

وقد تكون سعتها في طائفة من بني الإنسان بالغة حداً كبيراً فتنفع المجتمع انتفاعاً يختلف مداه وشمول خيره للناس .

البحث الثاني

الرسل والانبياء بين بني الانسان

هناك فئة من بني الإنسان آمن الناس باقوالها واعمالها ايمانا صحيحاً فحشروها

---

(١) يقول ابو الفتح علي بن محمد البستي في ذلك :

اقبل على النفس فاستكمل فضائلها   فانت بالنفس لا بالجسم انسان

(٢) راجع للتوسع كتاب الانسان ذلك المجهول تاليف الكسيس كارهل ، ص ٢٤٧ .

آ – بحث حدود الانسان التشريحية وحدوده الروحية .

ب – بحث حدود الانسان في الزمان والفضاء .

(٣) راجع للتوسع كتاب الانسان ذلك المجهول L'homme cet inconnu لمؤلفه الدكتور الكسيس كارهل بحث النشاط العقلي والحقيقة العلمية والكشف ، ص ١١٦ .

في زمرة البشر المصطفى لانه سرعان ما تبين لهم ان هـذه الفئة وان كانت من البشر ولكنها ليست كباقي البشر .

ان هذه الفئة العظيمة باعمالها ، القليلة بكميتها ، الكبيرة بكيفيتها التي ترى بالبصيرة مايخفى على الباصرة ،التي تنبيء بما خفي على العلماء والخبراء ، هذه الفئة التي طغت حدود نفسها المدركة الناطقة الواعية على جسمها طغياناً جعلت فيها قدرة تخترق المسافة والزمان ،والحجب والمكان ،فتصحح بنور البصيرة قصص الماضي وتحدث بنور العين الباصرة عن سيرة الحاضر وتنبيء عن وقائع المستقبل فتحدث بآيات بينات تناسب كل قطر ومصر ، وكل زمن وعصر ، وتنافس بعملها لخير المجتمع أعظم عمل انساني مهما كانت غايته .

ان هذه الفئة من الناس هي فئة الرسل والانبياء وقد خص الله الشرق بهم فكان كل منهم سبيل الهدى والرشاد ، كما كانت الشمس منبع ضياء ونور ، اولئك هم الرسل والأنبياء في رأي المؤمنين من علماء اليوم ، اولئك هم الفئة المختارة من البشر العلوي[1] في رأي العلماء الباحثين فيهم بحثاً مجردا عن الايمان ، اولئك هم العباقرة الخالدون والعظماء الباقون في رأي الكتاب والمؤرخين على اختلاف مللهم ونحلهم ومعتقداتهم . جاء هؤلاء الانبياء والرسل بشرائع يكمل بعضها بعضاً في هدي الإنسان فهم فروع دوحة تسقى بنور من فيض الاله ، ليعم طيب أريجها الفضاء وليستظل بوارف ظلهـــا العالم وينعم بثمرها سكان الغبراء على مدى الايام ومرور الزمان .

لقد جاء موسى منهم عليه السلام مرشدا الى وصاياه العشر الإنسانية فحرّفها بنو قومه عن أهدافها كما جاء عيسى عليه السلام رسول المحبة والإخاء فدعا الى تعهد ذوي الأسقام ، ومواساة البائسين ومسح دموع المحزونين ونادى بالخير

---

(١) ان هذه الفئة المختارة من البشر العلوي هي التي علمت الانسان مكارم الاخلاق فجعلت لكلمة الانسانية التي صدّرنا بها بحثنا المدلول الذي اشرنا اليه في مطلع الكلام .

للقريب والغريب حتى ولو كان عدوا ومن اقواله احبوا اعداءكم واحسنوا الى من يبغضكم وصلّوا من اجل من يعنتكم ويضطهدكم، ماتريدون ان يفعل الناس بكم فافعلوه انتم بهم واوحى الى محمد عليه السلام بالقرآن الكريم وسمي دينه الاسلام فبدا متمما برسالته لرسالات الانبياء السابقين، رسل رب العالمين وداعياً الى هداية الناس اجمعين .

لقد كان الرسل بناة بيت واحد وسعادة واحدة ودعوة واحدة وقد عهد الى كل نبي منهم بأن يؤيد من جاء قبله حتى يتحقق من الجميع القيام بنجيبه في المهمة الواحدة وهي اتمام مكارم الاخلاق .

ان هذه الفئة ، فئة الرسل والانبياء ومن ائتم بها من الناس عرّفت الانسان بانه مرتبط في إحساسه باحساس اخيه الانسان ، يجمع بينهما في السراء والضراء حس مشترك ، به يتبادلان التراحم والتعاطف ويتقاوضان المعونة والمواساة.

ان هذه الفئة من الانسان الممتاز جعلت من كلمة الانسانية التعبير الصادق عن حسن علاقة الانسان بأخيه الانسان يدعوه الى الخير ويعمل معه من أجله صيانة للسلام .

اشتهر من الانبياء خمسة وعشرون نبياً[1] منهم على ماروواه الحديث الشريف خمسة من العرب وهم اسماعيل وشعيب وصالح وهود ومحمد عليهم السلام اجمعين.

اسماعيل عليه السلام : هو ولد ابراهيم الخليل من جارية مصرية اسمها هاجر

---

(١) وهم ابراهيم واسحق ويعقوب ونوح وداود وسليمان وايوب ويوسف وموسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى والياس واسماعيل واليسع ويونس ولوط كما جاءت في سورة الانعام آيات ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ وهي : « وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم ، ووهبنا له اسحق ويعقوب ، كلّا هدينا ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهرون وكذلك نجزي المحسنين وزكريا ويحيى وعيسى والياس كل من الصالحين . واسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلّا فضّلنا على العالمين » وآدم وهود وشعيب وصالح وادريس وذو الكفل الذين اتى على ذكرهم القرآن الكريم في آيات مختلفة .

قدم ابراهيم بها وبأبيها الى مكة ، هذه البقعة التي لانبات ولا ماء ولا انيس فيها ودعا ابراهيم لهما ان يتولاهما الله بعنايته وحفظه بقوله :

« ربنا اني اسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرّم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل افئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون »[1] .

تزوج اسماعيل امرأة من قبيلة جرهم ثم جاء ابراهيم فسأل عن منزل اسماعيل حتى دل عليه فلم يجده أول مرة وعاد اليه ثانية فوجد في المنزل امرأة أخرى له سهلة بشوشة فسألها ابراهيم : اين انطلق زوجك فقالت : انطلق الى الصيد فقال لها : اذا جاء زوجك فأخبريه وقولي له : جاء ههنا شيخ من صفته كذا وكذا فلما جاء اسماعيل اخبرته : قال ذاك ابراهيم ابي، فلبث ماشاء الله . بنى هو وابنه الكعبة ولما تم بناؤها أخذا يدعوان الله قائلين : ربنا اجعلنا مخلصين لك واجعل من ذريتنا امة مخلصة لك واخذ اسماعيل ينادي الناس قائلا : أيها الناس قد بني لكم بيت فحجوه فجعل لايسمعه أحد الا قال لبيك وهكذا كانت الكعبة أول بيت وضع للناس لعبادة الله يدل على ذلك القول الكريم[2]

« ان أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا فيه وهدى للعالمين » .

ورزق اسماعيل اثنى عشر ولدا رأسوا قبائل سميت بالعرب المستعربة .

كان اسماعيل صادقاً وفياً لايخلف وعده وكانت رسالته الانسانية موجهة الى القبائل في اليمن والى العماليق الساكنين في جزيرة العرب من جهة الشام قيل انه مات بفلسطين على ان مؤلفي العرب يجمعون على موته بمكة ودفنه هو وأمه بجوار البيت الحرام .

شعيب عليه السلام : هو من سلالة مدين[3] بن ابراهيم دعا أهل مدين الى

---

(١) سورة ابراهيم رقم ١٤ آية ٣٧ .

(٢) سورة العمران رقم ٣ آية ٩٦ .

(٣) قبيلة ومدينة قرب معان وهم اصحاب الأيكة .

الصلاح وأرشد قومه ان لايبخسوا الناس اشياءهم ولا يعثوا في الارض مفسدين وانه لايريد بدعوته الا صلاح امته وصلاح الناس اجمعين وكان في مخاطبته لقومه ونصحه اياهم كخطيب مصقع لذلك كان الرسول الامين اذا ذكر شعيباً يقول ذاك خطيب الانبياء لحسن مراجعته قومه ولوضاحة عبارته وجزالة مواعظه جاء ذكره في القرآن الكريم[1]: «والى مدين أخاهم شعيباً قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره قد جاءتكم بيّنة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا في الارض بعد اصلاحها ذلكم خير لكم ان كنتم مؤمنين».

صالح عليه السلام : هو ابن عبيد بن جابر، بن ثمود، وثمود قبيلة من العرب العاربة عمرت بلاد عاد وكانوا في سعة ورخاء من العيش فافسدوا في الارض وكانت مساكنهم بالحجر وهي المعروفة بمدائن صالح بين الحجاز والشام وكانوا يتخذون من الجبال بيوتا، فمحض صالح النصح لقومه وحذرهم بان لا يعثوا في الارض مفسدين فلم يستمعوا اليه. اختلف الباحثون في مدفنه فقيل في فلسطين وقيل في حضرموت وقيل في مكة[2].

هود عليه السلام : ارسل الى قوم عاد وكانوا يسكنون الجبال في ارض الاحقاف وهي تقع في شمال حضرموت من بلاد اليمن وكانوا ذوي حضارة رفيعة اصحاب عمارات متينة وقد دعاهم هود الى العمل بما فيه خيرهم وان لا يعاملوا الناس بعنف الجبابرة وقسوة الجبابرة فاستكبروا عليه وعصوه وتجبروا في الارض تكبراً وعتواً واعتداءاً واتهموا رسولهم بعقله فابتلاهم الله بعذابه وصاروا يضرب بهم المثل ونزلت فيهم الآية : «ألم تر كيف فعل ربك بعاد، إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد»[3].

---

(١) سورة الأعراف رقم ٧ آية ٨٤ .

(٢) جاء ذكر صالح في سورة الأعراف ٧ آيات : ٧٢ و ٧٤ و ٧٦ وفي سورة هود ١١ آيات : ٦٢ و ٦٦ و ٨٩ وفي سورة الشعراء ٢٦ آية ١٤٢ وفي سورة النمل ٢٧ آية ٤٥ .

(٣) سورة الفجر ٨٩ آية ٧ .

كان هود حكيما واسع الصدر كثير التسامح يتحمل الاذى ويقابل الشر بالخير رجاء أن يظفر ببغيته في إصلاح الناس وكان ممن اتبع دين هود وآمن بـه مرثد بن سعد بن عفير فقال فيه جُلتهُم بن الخبيري :

أبا سعد فانك من قبيلٍ ... ذوي كرمٍ وامك من ثمود
فانا لن نطيعك مابقينـا ... ولسنا بفاعلين لما تريـد
ونترك دين آباء كرام ... ذوي رأي ونتبع دين هود

البحث الثالث

محمد الرسول الأمين واثره في تخاير العرب

رأينا من واجبنا أن نثبت هـذا البحث وأن ننقـل الى القراء الأعزاء أقوال من درسوا حياة الرسول دراسة حرة مجردة عن الايمان به إيماناً وراثياً أو تربوياً أو تهذيبياً لأننا نحب أن يتعرف القاريء على نفسية الرسول كما تعرف عليهـا غير المسلمين ممن سبروا غور سيرته فصاغوا نزراً يسيراً من نواحيها الفذة بيراعاتهم فأظهروها بما يليق بها من مظهر جذاب واسلوب بديع ،واننا لنغتبط بنقل أقوالهم موقنين ان أثرها سوف يكون عظيما لدى قراء هذا الكتـاب المسلمين فيزيد ذلك في تقديرهم لرسول الاسلام والسلام وسوف يكون دافعاً لغير المسلمين الى البحث عن سيرة خاتم الرسل والاعتزاز به كبشر عربي حفظ العروبة وخلدها . قال الرباشي في مؤلفه « نفسية الرسول العربي :

لقد تعدد المؤرخون في كتابة ثورات الشعوب ولكن المجال لايزال فسيحاً للكلام عن الثورة الكبرى التي أثارها الرسول العربي على الظلم والعبودية وحب الاثرة والعادات الوثنية ، ثورة طاهرة بما علم فيها من الرحمة والعفو ، نافعة بمـا

غذاها من العلم ، غنية بما أورثها من صبر الجهاد وقناعة النفس ، وإني ـ أي الرياشي ـ أرى أن قراءة نفسية الرسول العربي لا تنحصر فائدتها بالمسلمين ، بل تتعداها الى أبناء الطوائف الأخرى ، لأن كثيراً من الناس لا يزالون على جهل مطبق بسيرة محمد الأمين ، ففي درس فضائلها والاطلاع على أخلاق صاحبها أفضل وسيلة لانارة الأذهان وتقريب القلوب .

يفخر بالرسول العربي مائة مليون وخمسون مليون من الاميركيين ، الاسباني الأصل ، العربي الدم والعصب المنتشرين في اميركا الجنوبية خاصة[1] والعالم عامة . إن هؤلاء الاميركيين الذين يفاخرون في أصلهم العربي ودمهم العربي ، وجمال عيونهم العربية ، وفراستهم العربية ، ومجد أجدادهم العرب ، يحنون لمعرفة حقيقة نبي أجدادهم ونفسيته ، وتاريخ العرب وعلوم العرب وآداب العرب ، يحنون الى أجدادهم العرب الذين انشأوا مدينة باهرة في عصور الظلمة الاوروبية ، انشأوا مدنية تفضل في معظم نواحيها مدنية اليوم ، في القرن العشرين ، قرن النور ، مدنية عربية تطهرت من الاحتكار وسلطان المتمولين وفتنه المرأة والاضطهادات الجنسية والرق السياسي والمالي والربح الحرام والمقامرة والمسكر ...

ثم يقول : ان محمداً كان للعالم أجمعين ، للعروبة عماد وللعرب فخر ولمحبي اللغة حجة وللمسلمين إمام ولغير المسلمين رسول الرحمة والسلام[2] .

---

(١) جاء في اخبار كانون اول ١٩٦٠ ان وزير خارجية بوليفيا قال للسفير الفرنسي الذي حاول مكافأ من قبل دولته ان تقفل الابواب في وجه الوفد الجزائري : انني من اصل عربي ووقف الوزير في مجلس النواب فقال انه يؤيد حق الجزائر في الاستقلال وانه ـ وهو بوحنا لاشين العربي الأصل ـ يفخر بانتسابه للعرب فصفق اعضاء مجلس النواب . وفي نهاية الجلسة اعلم وزير خارجية بوليفيا ان سفير فرنسا شخص غير مرغوب فيه في بوليفيا . وعندما فشل في محاولة مقابلة رئيس الجمهورية اضطر ان يذهب الى هندوراس حيث كانت تنتظره مفاجأة طاحت بعقله وهي ان مجلس نواب هندوراس اخذ قراراً بطرده منها .

(٢) ص ٦ و ١٢ من الكتاب الاول عن فلسفة الدين الاسلامي ونفسية الرسول العربي بقلم لبيب الرياشي .

ولم يحدث أن اعتبر شخص واحد عند أي طائفة من طوائف الجنس البشري المثل الكامل للانسان فقلدت أفعاله بمنتهى الدقة، كما حدث للنبي الأمين. ولقد استطاع محمد في سحابة عمره أن يهيء الوسائل لنشوء أمة فتية وأن يضع حجر الاساس لامبراطورية مالبثت أن حوت بين أطرافها المترامية اجمل مقاطعات العالم المتمدن في ذلك الحين ثم يقول: ظل المشككون الجاحدون يسألون الرسول أية معجزة: معجزة غير علمية وغير خلقية يسألونه أن يغير نظام الكون فينقل الحجر باشارة ويوقف الشمس بكلمة والرسول العظيم يعلم قوله تعالى: «سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا[1]» فيقول بلسان القرآن: «سبحان ربي! هل كنت الا بشراً رسولاً[2]».

ثم يقول: كتبت فصولاً ثلاثة عن نفسية الرسول ووقفت محترماً متهيباً، قرأت المحاني الثلاثة لعقلاء النصارى فلما رأيت وشعرت من كلهم تشجيعاً واستكباراً، وأعجاباً أقدمت. ولكني أقدمت وفي داخل شعوري هاتف ينادي انك لن تدرك باهذا من نفسية الرسول العربي العالمي، ومن دينه، واحاديثه وشرعه غير أشعة، غير أشعة فحسب. إذن بتلك الأشعة استنير، وبنورها اسير، وبلمعانها وهديها أباحث عشاقه وخصومه.

أما أمين نخلة فيقول في الرسول: محمد نغمة لا كلمة، وليس على بسيط الارض عربي لاينفتح لها صدره وترج جوانب نفسه، فمن لم تأخذه بالاسلام، أخذته بالعروبة، ومن لم تأخذه بالعروبة أخذته بالعربية، ومحمد لاتستطيع طائفة في العرب، ان تنفرد بالتباهي به، فهو فضلاً عن كونه للخلق كلهم، حيث يتشبهون باكرم الآدميين في حفظ النفس، وحفظ الجار، لأجدر أن يكون للعرب كلهم، حيث نتشبه. فوق ذلك – بأبلغنا في الفصحى وأنهضنا في الجلى، يوم حط الكفة بعرب، وشيلانها باعجام. ولقد جعل محمد هذه الدنيا عربية بحتة فاستنزل[3] كتاب الرسالة بلغة قومنا، وحاط ديانتهم بها، بل أتى ببرهانه

---

(١) الفتح ٤٨ آية ٢٣ (٢) الاسرى ١٧ آية ٩٣ (٣) انزل عليه ولم يستنزل في نظر الاسلام.

منها يوم زف هذا المعجز المخلد بين الحلق والحنك .

ثم خاف أن ينشطر القوم فجمع بـ (من أحب العرب فقد أحبني) حيث المخافة من الفرقة ولم حيث المخافة من الشتات كأنما الشرط عنده ، الحب للعرب .

جمع محمد اليه بفضل العربية في رسالته ، والعروبة في أصله ، القلوب العربية من كل ديانة ، فمحمد اذن للعرب قاطبه ، في لغة الكتاب والحديث وفي فتح العقول[1] .

ويرى الدكتور شبلي شميّل في الرسول العربي أعظم رجل فيبعث الى العلامة المغفور له محمد رشيد رضا بكتاب يقول فيه :

انت تنظر الى محمد كنبي وتجعله عظيماً وأنا أنظر اليه كرجل وأجعله أعظم ، ونحن وان كنا في الاعتقاد على طرفي نقيض فالجامع بيننا العقل الواسع والاخلاص في الحق والحق أولى أن يقال[2] .

ويطيب لنا ان نضمن هـذه الكلمة ما كتبه أمين الريحاني فقد عبرّ

---

(١) يقول في ذلك محبوب الخوري الشرتوني من شعراء المهجر :

قالوا : تحب العرب قلت أحبهم	يقضي الجوار عليّ والأرحام
فمحمد بطل البرية كلهـا	هو للأعارب أجمعين إمام

ومما يقوله الدكتور نقولا فياض في صاحب الرسالة :

الشرق شرقي أين لاحت شمسه	ودم العروبة في دمي وعظامي
لي في هوى وطني كتاب خالد	يبقى على المكتوب من أيامي
سجلت نصرانيـتي في متنه	ونشرت بين سطوره اسلامي

(٢) ينشد في هذا الصدد :

دع من محمد في سدى قرآنه	ما قد نحاه للحمة الغايات
اني وان أك قد كفرت بدينه	هل اكفرن بمحكم الآيات
أو ما حوت في ناصع الالفاظ من	حكم روادع للهوى وعظات
وشرائع لو أنهم عقلوا بهـا	ما قيدوا العمران بالعـادات
نعم المدبّر والحكيم وانه	رب الفصاحة مصطفى الكلمات
رجل الحجاز ، رجل السياسة والدها	بطل حليف النصر في الغارات
من دونه الابطال في كل الورى	من سابق أو حاضر أو آت

فيها تعبيراً صادقاً عما فعله بنا المستعمرون وما خلفته فينا رواسب ترتد الى غزو الصليبيين لأراضينا وما احدثوه من تفرقة حتى بات احدنا يعق لغته وينكر عروبته قال الريحاني: هجرت وطني وفي صدري الخوف ممن أتكلم لغتهم، والبغض لمن في عروقي شيء من دمهم، والبغض والخوف توأما الجهل وقد عرفني أمرسن الى كرليل فأرشدني الى عروبتي، أجل قد يستغرب قولي انني عرفت بواسطة الكاتب الانجليزي الكبير سيد العرب الاكبر محمداً فأحسست لأول مرة بشيء من الحب للعرب. ثم قرأت كتاب الحمراء ـ الهمبرا ـ لارفينغ واشنطن فمازج عقليتي الأميركية، الافرنسية، الانجليزية شيئاً من الخيال الشرقي فصرت احلم بذلك المجد الماضي احلاماً تملئني حباً فيه، بل تمثله حياً أمامي، عدت الى بلادي كئيباً لاأعرف من لغتي وآدابها غير اليسير. فجمعني الله سبحانه وتعالى بأبي العلاء المعري فتوسعت في راسته لقد استطاع البحث ان يسل من صدري ـ أنا أمين الريحاني ـ بغض العرب وأن يضع بديلاً عنه أمين الريحاني الفخور بعروبته.

وقد يكون ذلك شأن غيره من ادباء النصارى العرب وحكمائهم فقد عبّر بعضهم عما يجيش في صدورهم، فجاءت أقوالهم دليلاً على التفرقة التي كان يحرض عليها الاجنبي لتنخر في صفوف العرب ولتطيح بالعروبة فكرة تجمع العربي المسيحي والمسلم في رابطة واحدة.

ويطيب لي ان انقل في هذا الشأن بعض أقوال أدباء المهجر الكاشفة عن حنينهم الى الوحدة العربية وتمجيدهم باعث العرب رسول الانسانية محمد عليه السلام [1] مع قوة ايمانهم بنصرانيتهم.

---

(١) يقول نسيب عريضة:

لاحد عندي اذا جارت حدودهم	الشام شامي ومصر اخت لبنان
وفي فلسطين اقداسي، وعاطفتي	في نجد، والقبلة السمحاء ايماني
لي العروبة امشي في مخارقها	من العراق الى مابعد وهران
ازهو بثوب فخار من مناسجها	حتى تقرب ايدي البين اكفاني

ويقول الشاعر القروي:

والى علم من نسج عيسى واحمد	وآمنة في ظله اخت مريم

ولقد تغنى بعض شعراء النصارى بامجاد الاسلام لانها من أمجادهم ومجدوا الرسول العربي الكريم لانه من بني قومهم ومخلد عروبتهم واحتفلوا بيوم مولده كلما فسحت المناسبة وانشدوا في ذلك الشعر الكثير [1] .

ولقد جعل أحدهم ميلاد الرسول يوماً أغر على الزمان ففيه أشعة النجوم وانفاس الجنان[2] ، وكم كان رقيقاً ندياً في خطاب يوجهه احدهم الى الرسول العربي ليكون الرائد في انقاذ الديار المقدسة[3] . وقد كتب احدهم يشيد بامجاد العرب والاسلام العلمية[4] .

وقد مرّ بعضهم بشواطىء الاندلس عائداً الى مهجره ، فوقف يذرف الدموع على ماضي اجداده ، ويعود بالخيال الى ايام الاندلس الغابرة ، يوم كانت

---

(١) ننقل بعض هذه الاقوال مما جاء في مجلة المعرفة آذار سنة ١٩٦٣ تحت عنوان العروبة في شعر المهجر منها قول الشاعر رياض معلوف الذي يفوق ما يمكن ان يقوله عدد كبير من شعراء المسلمين اليوم :

يا رسول الانام انت وعيسى	خير من يصطفى ويرجى ويقصد
عيدك اليوم غبطـة وابتهاج	لجميع الاعراب والله يشهد
ايه قرآنك الكريم فشعر	رائع كلـه ودر منضد

(٢) قال جورج صيدح في هذا المعنى :

وجه اطل على الزمان	لألاؤه شق العنان
فيـه شعاع النيرات	وفيه انفاس الجنـان
يا صاحبي باي آلا	ء الرسول تكذبان

(٣) قال في ذلك :

عرج على القدس الشر	يف ففيه اقداس تهان
ضج الحجيج به وريع	ضريحـه والمسجدان

والضريح هو ضريح عيسى عليه السلام .

(٤) هو الياس قنصل :

هذا التراث مقدس ذراته	دفقات مجد زاخر مترامي
فيه بقايا الناشرين على الورى	خير العلوم وانبل الاعلام
المبدعيـن بجودهم وبجهدهم	دنيا تميس بكل مأتى سام

قصورها تناطح السحاب ، وجداولها تجري بين الخمائل يتضوع منها شذى الفل والورد والنرجس[1] ولعل أروع مافي هذا الباب الرائع تسمية أحدهم ابنه محمداً[2] وحدث بعدذلك ماشئت ان تحدث عن العروبة جامعة توحد وحدث ماشئت ان تحدث عن أيادي التبشير والاستعمار تبدد ما استطاعت ان تبدد .

ويحلو لنا أن نكمل التجوال في ميدان هذا البحث مع مافيه من وعورة لنتساءل مع المتساءلين ؟ أولاً – هل كان للعرب قومية في جاهليتهم ؟ وهل في سيرة الرسول العربي مايدعم العروبة ؟

ويجيبنا على السؤال الاول الشاعر الكبير الشيخ فؤاد الخطيب بقوله[3] :

إن العرب لم يكونوا في الحقبة الاخيرة من العصر الجاهلي أمة بالمعنى القومي بل كانوا عمالا لغيرهم وخولا لسواهم الا أنهم كانوا قد سئموا تلك الحالة من شيوع الفوضى في الاعمال والمتاجرة وفقدان الامن وثقل وطأة الغريب فظهروا

---

(١) نقلنا بعض ماجاء من الشعر في هذا البحث عن مجلة المعرفة عدد آذار سنة ١٩٦٣ ص ٩٢ . العروبة في شعر المهجر من ذلك قول شكر الله الجر :

وقفت بشاطيك أذرى الدموع	واندب بالامس ما ضيعوا
وأسأل فيك الطلول العفاة	فلا من يجيب ولا يسمع
فاين معاهدك النيرات	واين مآذنك اللمع
واين قصور كساها النضار	وشاحا من الخلد لا يقشع
قصور تناطح صدر السماء	يضل بهــا النجم لا يسطع
واين جداولك الجاريات	واين خمائلك الضوع
ولله فلك والياسمين	وورلك والنرجس المونع

(٢) قال في ذلك مارون عبود :

ايها التاريخ لا تستغرب	ابن مارون سمي للنبي
النبي العــربي المصطفى	كوكب الشرق وفخر العرب
ما ولدته امه مسلماً	او مسيحيا ولكن عربي

(٣) مجلة المجمع العلمي العربي ١٧ جزء ١١،١٢ سنة ١٩٤٢ ص ٤٨٨ .

بظهر المتبرم الناقم وذلك في ثورات عدة كغارة تميم وقيس متساندين على اطراف المملكة الفارسية حتى أن رجال الأوس والخزرج كانوا قد تعاهدوا في يثرب ان يكون عبد الله بن أبي ملكاً عليهم ، وعندما سار سيف بن ذي يزن على الحبشة وانتصر عليهم خرج عبد المطلب من الحجاز الى اليمن لتهنئته بالنصر ، وقدمت على سيف وفود العرب وأشرافها ووفد قريش خاصة وقيل في ذلك شعر مشهور .

لقد كان الاستعماران الفارسي والروماني مما اجتواه العرب وازورّوا عنه وكانت الأمور قد ساءت بين الأكاسرة واللخميين حتى فر النعمان من كسرى الى البادية يطوف على القبائل وليس أحداً منهم يقبله وهو النعمان الثالث أبو قابوس ممدوح النابغة الشاعر المشهور ولم يزل متنقلاً حتى ورد موضعاً يعرف بذي قار ونزل على سيد من سادات العرب رئيس بني شيبان اسمه هاني بن مسعود الشيباني فأجاره وأشار عليه بعد أن جعل حرمه وسلاحه في ذمته ان يشخص الى كسرى فقال له النعمان :

هذا وابيك الرأي الصحيح ويمم كسرى فلما بلغ بابه بعث اليه من قيده وزج به في السجن وقيل ألقاه تحت أرجل الفيلة فقتلته وكان هلاك النعمان سنة ٦٢٠ م وقد ولّى الفرس مكانه على الحيرة اياس بن قبيصة الطائي من سادات قبيلة طيء واشرافها ، ولم يقف كسرى عند هذا الحد ، بل كلف اياساً أن يرسل الى هاني بن مسعود فيطلب منه تسليم ما عنده من أمانات النعمان وودائعه ، وسلاحه وأهله ، وتلك كبيرة على نفس العربي ، مخالفة لموروث تقاليده الكريمة ، فأبى هاني أن يفعل ذلك ، ورد الرسول حمية منه واباء واستغل كسرى هذه الحادثة لمصلحة الفرس فأمر إياساً ملك الحيرة وهو تابعه ان يسير الى بني شيبان ، أدرك هانيء انه لاطاقة للعرب بحرب كسرى فأمرهم أن يركنوا الى الفلاة التماساً للنجاة وفراراً من المعركة ، ولكن عربياً أخذته الحمية والعزة العربية فرمى بنفسه في المعركة ووجه الخطاب الى هاني بن مسعود قائلاً : ياهاني :

أردت نجاتنا فألقيتنا بالتهلكة ، فرد هاني الناس عن الفرار وأعادهم الى مواقعهم وتعاهدوا على الثبات ، وجاء الفرس وكان بين الفريقين موقعة هائلة كتب فيها النصر للعرب على العجم وكانت واقعة ذي قار أول انتصار للعرب على الفرس وقد قال فيها الرسول : اليوم انتصف العرب من العجم .

أما اللغة العربية فقد كانت نفس اللغة التي نتكلمها نحن اليوم ماعدا اليمن وما اليه من أطراف الا ان العرب الاقدمين وان نطقوا بتلك اللغة الكريمة فقد كانت كتابتهم باللغات الأخرى الغريبة ، فالمرقش الاكبر كتب شعره بالاحرف السريانية ، والغسانيون وان كانت لغتهم مضرية فقد دونوا أشعارهم وأخبارهم بالعبرية أو الرومية أو السريانية . وكان المناذرة مثلهم قد كتبوا الخط الآرامي وعلى ذلك جري التدمريون والانباط فقد كانت كتابتهم بالآرامية ولغتهم المأنوسة هي العربية ، ويتابع الاستاذ الخطيب كلامه فيقول[1] :

ان العرب لم يظفروا بأية وحدة في اداراتهم وأهدافهم الا بعد بعثة النبي الامين فقد جمع كلمة العرب قاطبة في وحدة عملية شاملة أخرجتهم من الظلمة الى النور ومن الضعف الى القوة فنهضوا تحت رايته ، تلك النهضة الصادقة التي تحدث عنها التاريخ وتغنت بها الأجيال . ولم ينتقل النبي الى جواره إلاّ وقد تمت وحدة الجزيرة العربية ، ولها نظامها الأساسي الذي يقوم على مادعا اليه القرآن من العدل والمساواة بين الناس .

أما السؤال الثاني : هل كان في سيرة الرسول العربي مايدعم كيان العروبة؟ فنجد الجواب عنه في كلام عدد من البحاثين ، لقد اتفقوا على أن النبي العربي كان رسول الإسلام كما كان الزعيم الذي وحد كلمة العرب وقد امتزجت به هاتان الصفتان حتى أصبح من العسير الفصل بينهما ، لقد كان الرسول في مكة البشير النذير المرسل الى الناس وعاد في المدينة علاوة على ذلك رئيساً لدولة

---

(١) من مجلد ١٧ جزء ١١/١٢ سنة ٩٤٢ ، س ٢٢ مجلة المجمع العلمي العربي

عربيـة جديدة . يقول جورج زيدان في عروبة الرسول وصفاته : محمد عربي ، نشأ في بيئة عربية خالصة ، وكانت تلك البيئة على جانب عظيم من الغنى الروحي والتطور الفكري ، ولها تاريخ فارع عريق تمتد في اعراقه الى لباب الحضارة واصول الثروة الفكرية . ولقد بين الرسول خصائص العربي ومميزاته وركز مقامه ومستقبله على أساس مكين وكأني به تنبأ بما يمكن للمستعمرين والمغرضين والشعوبيين ان يدسوه بين العرب فحال دونهم بتعاليم تبيّن شأن العرب ومكانة اللغة العربية وتحبب الناس بالعرب وتحبب العرب بعضهم ببعض وان اختلفت دياناتهم فعاد بذلك زعيماً للعرب اجمعين في ماضيهم ومستقبلهم . قال في هـذا الصدد : حب العرب ايمان وبغضهم نفاق . وقد روى ابو بكر البزاز في سنده قال: سمعت عليا يقول أسندت النبي الى صدري فقال : يا علي أوصيك بالعرب خيرا . وعن عثمان بن عفان قول الرسول : من غش العرب لم يدخل في شفاعتي ولم تنله مودتي . وقال الرسول مشيدا بعروبته وقرآنه وهو معجزته : أنا عربي والقرآن عربي ولسان اهل الجنة عربي وقال : أحبوا العرب لثلاث : لأني عربي والقرآن عربي وكلام اهل الجنة عربي . وقد أعطى الرسول للغة مقاماً كبيرا في التعريف بالعربي[1] .



(١) راجع ص ٣ اسطر من ٧ – ١٠ من هذا الكتاب .

الفصل الثالث

القرآن الكريم وما جاء عن العلم في آياته

الحديث الشريف وما فيه من دعوة للعلم :

يشتمل هذا الفصل على ثلاثة ابحاث . يعرّف البحث الاول بالقرآن الكريم ويبيّن البحث الثاني بعض ما جاء فيه عن العلم ويذكر البحث الثالث وصف كلام الرسول وما فيه من دعوة للعلم .

البحث الأوّل

القرآن الكريم ، التعريف به وبما جاء فيه من دعوة للعلم

القرآن الكريم كتاب الهي عربي اللسان ، أنزل على محمد عليه السلام معجزة [1] خالدة لينشره في الناس اجمعين ، استمع العرب اليه ، فرأوا فيه كلاماً لم يسمعوا مثله من قبل فهو لا يشبه الشعر ويختلف عن النثر ، يؤدي المعاني بنظم بديعة واساليب بليغة رفيعة ، حاول بلغاء العرب محاكاته فلم يفلحوا ، وما لبثوا ان آمنوا باعجازه واستحالة مجاراته ، معانيه صريحة واهدافه واضحة ، تدعو الى الايمان بجميع الرسل ، وتقر انسانية رسالاتهم وتجعل من الرسول العربي خاتمهم ومن القرآن الكريم آخر كتبهم .

---

(١) ولقد كان الرسول لا يرضى ان تنسب اليه معجزة غير القرآن ويصارح اصحابه بذلك .

بحث فيه عدد من العلماء والادباء ، مختلفي الملل والنحل فعبروا عن رأيهم بكلمات رائعة منها قول كلود فارير فيه :

إن آيات القرآن جميلة فيها نغمة طاهرة عجيبة ، تأمر بالشجاعة والصدق والأمانة وتدعو الى حماية الضعيف وعبادة الله .

ومنها قول ستشلدريك :

ان القرآن ليس كتاب دين فحسب بل هـو اعظم هاد الى سعادة الفرد والمجتمع وقد وقر ذلك في نفسي من اول ما اطلعت عليه بالرغم من أنني قرأته مشوها محرفاً بترجمته .

ولقد تعمق في دراسة القرآن غوستاف لوبون بعد استعمار فرنسا للجزائر وبسط سيطرتها عليها فقال : جملة مأثورة تعني لا استعمار في بلد يتلى فيه القرآن وقد مر ردح من الزمن ظن نفر من الناس الضعيفي الايمان ان الجزائر مفرنسة لامحالة وان اهلها نسوا العربية فلم تعد لغة المخاطبة بينهم وانه لم يعد من الروابط بينهم وبين البلاد العربية ما يسمح بالتفكير في عودتهم الى حظيرة العروبة وقد رأوا في كلمات هذا الكاتب العبقري ومن كان على شاكلته نسيجاً من الاوهام وخيالا واسع الاحلام وها اننا نرى اليوم صدق حدسه وصحة حديثه فها هي الجزائر تلفظ الاستعمار بفضل القرآن ففيه منبع اصيل ومنهل صافي ومجمع من القوى المختزنة الكامنة التي تفجر روحاً انسانية[1] كتب لها الخلود ما بقيت الدنيا ودام الوجود .

---

(١) : أ « سورة العمران ٣ آية ١٠٤ «ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون »

ب : « سورة الحجرات ٤٩ آية ١٣ «ياايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا »

ج : « سورة المائده آية ٣ « وتعاونوا على البر والتقوى ولاتعاونوا على الاثم والعدوان » .

وضع العالم الكبير جول لابوم كتابا في تفصيل آيات القرآن الحكيم فقسمه الى ثمانية عشر بابا تعرض بعلوم التاريخ ، الغيب او علم ما بعد الطبيعة ، التوحيد ، العقائد ، العبادات ، الشريعة النظام الاجتماعي ، العلوم والفنون ، التجارة ، علم تهذيب الاخلاق ، سبل النجاح وجعل تحت كل باب منها فروعاً تبلغ عدة جميعها ثلاثمائة وخمسين فرعاً واورد تحت كل فرع جميع ما ورد فيه من آيات التنزيل مما لم يسبق جمعه وتنسيقه في كتاب وقد ترجم للعربية[1] فجاءعمل المؤلف والمترجم رائعين يسّر دراسة ما في القرآن من آيات بينات فان الذي كان يحاول ان يكتب عن مبدأ المساواة او البحث في الزكاة مما يجب الكاتب ان يقتبس فيه من الكتاب يعجز عن استيعاب الآيات الواردة في هذه الموضوعات ، فاصبح بهذا الكتاب يستطيع أن يلم في مجال واحد بكل ما يود ان يقرأه عنه من الآيات ، لا بالهداية الى أرقامها من المصحف فحسب ، ولكن باثبات تلك الآيات نفسها في صلب الصفحات .

أما الابواب العلمية كما اوردها جول لا بوم فهي الباب الاول ويبحث عن علم التاريخ ، والباب السابع ويبحث في علم ما وراء الطبيعة ، والباب العاشر ويبحث في الدين ، والباب الرابع عشر ويبحث في النظام الاجتماعي ، والباب الخامس عشر ويبحث في العلوم والفنون من فلك وتقويم وصحة وملاحة وبلاغة والباب السادس عشر يبحث في التجارة والباب السابع عشر يبحث في علم تهذيب الاخلاق .

---

(١) ترجمه الاستاذ محمد افندي فؤاد عبد الباقي طبع في مطبعة البابي حلبي بالقاهرة .

البحث الثاني

ما جاء عن العلم في القرآن الكريم

لقد حبب القرآن بالعلم وحث على التوسع فيه بقوله تعالى .

« قل انظروا ماذا في السموات وفي الأرض »[١] ، « وفي أنفسكم أفلا تبصرون »[٢] .

وساعد على مطاردة جيوش الاوهام والاساطير في العالم قديمه وحديثه وحرر الانسان من سلطة الانسان ، وحدّ من سلطة الوراثة والتبعية والهوى ، لينظر الانسان إلى الاشياء بتجرد ، ويحكم عليها حسناً وقبحاً بعقله الذي أودعه الله فيه ليستعمله لا ليعطله ، وقد نهى الكتاب الكريم عن أن يتبع أحد أحداً عن غير علم في قوله : « ولا تقفُ ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا[٣] » .

لقد قدس القرآن القلم رمز التعلم تقديساً جعله يقسم به في قوله » :

« ن . والقلم وما يسطرون[٤] » وامتن الله على خلقه بأن علّمهم بالقلم في قوله :

« اقرأ وربك الأكرم الذي علّم بالقلم ، علّم الإنسان ما لم يعلم[٥] » . ولقد كثر ورود لفظ العلم في القرآن كثرة تدل على دعوة الناس إلى معرفة الحقائق ، كما تدل أيضاً على أن القرآن قد آخى العلم مواخاة تشعر أنهما من أصل واحد ، فالعلم الذي يعنى باكتشاف الاشياء كما هي في الواقع أخ للقرآن الذي يريد من متبعيه أن يفهموا هذا الكون البديع النظام ، الرائع التركيب فهماً صحيحاً ، فالقرآن والعلم هما بهذا أخوان بل توأمان ، ولا يتوهمن متوهم أن القرآن الكريم نزل ليشيع نظريات خاصة في علم من العلوم فما هو بسبيل ذلك وإنما وضع أصولاً عامة لكثير من المعارف تصريحاً وتلويحاً .

---

(١) سورة يونس ١٠ آية ١٠١ (٢) سورة الذاريات ٥١ آية ٢١ (٣) سورة الأسرى ١٧ آية ٣٦ (٤) سورة القلم ٦٨ آية ١ (٥) سورة العلق ٩٦ آيات ٤،٥،٦ .

ان طريقة القرآن في العلم هي التعرض له حاثاً على طلبه ، واثقاً بجملته ، وافعاً شأنهم ، وقد وأم القرآن بين العلم والعقل مواءمة تجعل العلم حيث يكون العقل ، وتجعل العقل حيث يكون العلم . وأما العلوم التي شملها لفظ العلم في القرآن فلا تقتصر على العلوم الشرعية ، ولا لفظ عالم يدل على عالم الشرع فقط بل قد شمل كثيراً من العلوم حتى التي نسميها عصرية وأدهش ماورد فيه بهذا الصدد حصره خشية الله بعلماء الطبيعة الذين فهموا أسرار الخلق ، واستجلوا عظمة الكون وذلك في قوله الكريم : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء ، فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ، ومن الناس والدواب والانعام مختلف ألوانه كذلك ، إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ ، إن الله عزيز غفور[1] » .

وبديهي أن المراد بالعلماء هنا ، الذين تعلموا ما أوردت الآية نموذجاً منه . على أنه إذا كان للعلم أول فماله من آخر ، وقد بيّن القرآن ذلك بأوجز لفظ وأروعه حين قال : « وفوق كل ذي علم عليم[2] » ، وأما ترغيب القرآن في العلم وحثه عليه فحسبنا فيه هذا التقديس للعلماء ، وجعلهم أولى الناس برضاء الله وأحقهم بخشيته وقد اعترف بأن المقارنة بين العالم وغير العالم لا تصح ، للفرق الهائل بين العلماء وغيرهم وذلك حيث يقول : « هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون[3] » .

البحث الثالث

العلم في الحديث الشريف

الحديث الشريف هو كلام الرسول ، وصف الرسول في أقواله بأنه لم يفحمه خطيب بل يبذ الخطب الطوال بالكلام القصير ، لا يلتمس اسكات الخصم إلا

---

(١) سورة فاطر ٣٥ آية ٢٨ وآية ٢٩ (٢) سورة يوسف ١٢ آية ٧٦ (٣) سورة الزمر ٣٩ آية ٩ .

بما يعرفه الخصم ، ولا يحتج إلا بالصدق ، لم يسمع الناس بكلام قط أعم منه ، ولا أصدق لفظاً ، ولا أعدل وزناً ، ولا أجمل منه هباً ولا أكرم مطلباً ، ولا أحسن موقفاً ، ولا أفصح عن معناه ، ولا أبين عن فحواه ، كلام مكّنه بأن يبلّغ ما جاء به بأقوم دليل ، وأروع تعليل لا يعارضه خصم في جدال ، الا كان جوابه أوضح ، وحجته أرجح [1] .

ويمكن تلخيص عمل الرسول وسيرته بأنه زرع الايمان في نفوس تابعيه ، وآخى بينهم وكفل حرية العقيدة لمن يدينون برسالته ولغيرهم من أصحاب الديانات وكان إذا سئل عمن يؤمن بهم من الرسل قال : نؤمن بالله وما أنزل إلينا وما انزل الى ابراهيم واسماعيل وإسحق ويعقوب والاسباط وما اوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . وقد اعجب بسيرته الاديب اللاذع برناردشو فحاول أن يُشرِف على فيلم سينمائي يمثل حياة الرسول فأخفق وبقيت هذه اللوعة في قلبه على مايقال وأظهر مايبطنه من رأي في الرسول بقوله : لا يصلح العالم الا برجال يدركون قيمة تعاليم محمد ويسيرون على هداها . لقد ادرك الرسول قيمة العلم فهيأ السبل لنشره من ذلك انه جعل في غزوة بدر فداء الاسري الذين يكتبون تعليم عشرة من صبيان المدينة الكتابة . وللرسول أقوال في التشجيع على العلم بلغت في البلاغة قمتها وفي الحكمة ذروتها منها : اطلبوا العلم ولو بالصين .

وبديهي أن العلم المقصود لا يصح أن يعتبر علم الدين حيث لا أثر له في ذلك الحين في بلاد الصين ، كما أن في الأحاديث الشريفة من الاقوال تشجيعاً لاكتساب العلم ما لا يمكن أن يقال أروع منه من ذلك .

اطلبوا العلم من المهد الى اللحد .

---

(١) ولقد وضع الدكتور اي فنسنك بالانكليزية كتابا سماه كنوز السنة وهو معجم مفهرس عام تفصيلي يسّر الكشف عن الاحاديث النبوية الشريفة المدونة في الكتب المعتمدة فماد باستطاعة الباحث الرجوع الى الحديث المطلوب بدون عناء . وقد ترجم هذا الكتاب الى العربية وطبع بمطبعة البابي حلبي بالقاهرة .

طلب العلم فريضة على كل مسلم .
وقد جعل الرسول فضل العلم خيراً من فضل العبادة بقوليه :
فضل العلم خير من فضل العبادة .
قليل من العلم خير من كثير من العبادة .
ورفع مرتبة العلم حتى ساواها بمرتبة الشهادة إذ قال :
إذا جاء الموت لطالب العلم وهو على هذه الحالة مات وهو شهيد .
ودعا الناس إلى احترام العلماء وإكرامهم فقال :
أكرموا العلماء .
ودعا الناس إلى التعلم والتعليم فقال :
تعلموا وعلموا فإن أجر المعلم والمتعلم سواء .
وقال : كن عالماً أو متعلماً ولا تكن الثالثة : أي جاهلاً .
وقال : ليس من أخلاق المؤمن الملق إلا في طلب العلم .
ثم خشي على العالم من أن يلحق به العجب بنفسه ويستولي عليه الغرور وبتوهمه إتقان العلم فقال :
لا يزال الرجل عالماً ما طلب العلم فاذا ظن أنه علم فقد جهل .
ثم حذر من كتمان العلم بقوله :
من كتم علماً يحسنه ألجمه الله بلجام من نار .
وخشي على العلم من الضياع فدعا إلى تخليده بقوله :
قيدوا العلم بالكتابة .
وحث على ذلك فجعل مداد أقلام العلماء ، خيراً من دماء الشهداء بقوله :
إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضى بما يطلب ، ولمداد جرت به أقلام العلماء خير من دماء الشهداء .
باب من العلم يتعلمه الرجل خير من الدنيا وما فيها .

الفصل الرابع

العلم في اقوال الخلفاء الراشدين وأئمة العرب

الخلفاء الراشدون هم الذين تولوا خلافة رسول الاسلام بعد وفاته . وسوف نضمّن هذا الفصل ثلاثة بحوث نذكر في اولها نموذجا من كلام الخلفاء الراشدين وحكماء العرب والمسلمين في العلم ونخصص ثانيها بالبحث عن علم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وعن ثقافته وعن خرافة الزعم القائل بأنه امر باحراق مكتبة الاسكندرية . ونبحث في ثالثها عن عمر وحرية الاديان وتقديره لنصارى العرب .

البحث الأوّل

لمع من أقوال الخلفاء الراشدين واعلام العرب

في التشجيع على العلم

يروى عن علي رضي الله عنه قوله :

أغد عالماً أو متعلما أو مستمعا أو محبا للعلم ، ولا تكن الخامس ، اي جاهلا — فتهلك .

وتحذيره من البخل بالعلم بقوله :

ما اخذ الله العهد على أهل الجهل ان يتعلموا حتى أخذ العهد على أهل العلم ان يعلموا ، وقارن علي بين العلم والمال والمفاضلة بينها فقال :

العلم خير من المال ، العلم يحرسك وانت تحرس المال ، العلم حاكم والمال محكوم عليه ، مات خزّان الاموال وبقي خزّان العلم ، اعيانهم مفقودة واشخاصهم في القلوب موجودة .

وقال شعراً في الحض على العلم :

فان يكن لهم في اصلهم شرف | يفاخرون به فالطين والماء
ما الفضل الا لأهل العلم انهم | على الهدى لمن استهدى ادلاء
وقيمة المرء ما قد كان يحسنه | والجاهلون لاهل العلم اعداء
وان اتيت بجود من ذوي نسب | فان نسبتنا جود وعلياء
فقم بعلم ولا تبغ به بدلا | فالناس موتى واهل العلم أحياء

وقال أيضاً :

لو كان هذا العلم يحصل بالمنى | ما كان يبقى في البرية جاهل
اجهد ولا تكسل ولا تك غافلا | فندامة العقبى لمن يتكاسل

ويعزى اليه قوله :

رضينا قسمة الجبار فينا | لنا علم وللجهال مال
فان المال يفنى عن قريب | وان العلم ليس له زوال

وشجع علماء العرب والاسلام على الاستفادة من العلم والافادة به بقولهم اذا كانت الاستفادة من العلم نافلة كانت الافادة فريضة على المعلم. وقال مصعب ابن زبير : تعلّم العلم فان لم يكن لك مال كان لك جمالا ، وان لم يكن لك جمال كان مالاً . وقال يحيى بن خالد لابنه عليك بكل نوع من العلم فخذ منه فان المرء عدو ما جهل وأنا أكره ان تكون عدو شيء من العلم[1] .

وقال عبد الملك بن مروان لبنيه : يا بني . تعلموا العلم فان كنتم وسطاً سدتم وان كنتم سوقة عشتم .

---

(١) وانشد : تفنن وخذ من كل علم | يفوق امرؤ في كل فن له علم

وقال بعض حكماء العرب البلغاء : تعلم العلم فانه يقوّمك ويسددك صغيراً ويقدمك ويسودك كبيراً ، ويصلح زيفك وفاسدك ويرغم عدوك وحاسدك ويقوّم عوجك وميلك ، ويصحح همتك وأملك .

وجعل العرب من آداب العلماء ان ينشروا العلم فلا يبخلوا به ونعتوا البخل به لؤما وظلما كما نعتوا منعه حقداً ، ووصفوا العلم بانه الانيس في الوحشة والصاحب في الغربة والمحدث في الخلوة والدليل على السراء والضراء والسلاح على الاعداء والزين عند الاخلاء يرفع الله به أقواماً فيجعلهم للخير قادة وائمة تقتفى آثارهم ويقتدى بافعالهم وينتهى الى رأيهم .

ويطيب انا ان ننهي هذا البحث بدعاء الرسول الذي يصح ان يقال فيه انه من أروع ادعية العلماء ألا وهو : اللهم أغنني بالعلم ، وزيني بالحلم ، واكرمني بالتقوى ، وجمّلني بالعافية .

البحث الثاني

عمر والعلم ، مكتبة الاسكندرية

قصة حرقها

كان عمر رضي الله عنه وافر الحظ من ثقافة زمانه ، أديباً مؤرخاً فقيهاً مشاركاً في بعض الفنون ، خطيباً مطبوعاً على الكلام ، يروي الشعر ويتمثل به ويحث على روايته وعلى تعلم العربية واوصى بوضع قواعد النحو . وكان ينصح العلماء والمتعلمين نصائح عالم يعرف ما هو العلم وماذا يجمل بالعلماء في طلبه ، فكان يقول : تعلموا العلم ، وتعلموا للعلم السكينة والحلم ، وتواضعوا لمن تعلمون ولا تكونوا جبابرة العلماء فلا يقوّم علمكم بجهلكم ، وكان يوصى طلابه أن يكونوا وعية الكتاب وينابيع العلم ولم يقصر نصائحه على علم الدين وحده ولا علم الادب واللغة وحده بل تناول كل ما عرف به من معارف زمانه فقال : تعلموا من النجوم ما يدلكم

على سبيلكم في البر والبحر وكان يعرف جغرافية الشرق كأحسن ما يعرفها رجل في وطنه . وكان خبيراً بالنفس البشرية حتى يصح القول انه اول من اشار الى مركب النقص الذي يلهج به علم النفس الحديث نستنتج ذلك من قوله : ماوجد احد في نفسه كبراً الا من مهانة يجدها في نفسه .

كان شاعراً شغوفاً بالشعر الجزل يجد في نفائس الشعر وأطايب الادب راحة النفس ومتعة الخاطر .

أ – عمر والعلم – حث عمر على طلب العلم بأقوال منظومة ومنثورة منها قوله الآتي في العلم وأثره في الانسان :

تعلم فليس المرء يولد عالماً	وليس اخو علم كمن هو جاهل
فان كبير القوم لا علم عنده	صغيراً اذا التفت عليه المحافل

كان يحترم الأديان التي تدعو الى الايمان بالله . لقد مر بالتاريخ قبل الاسلام وبعده رجال كانوا لا يحترمون الا من يقول بقولهم أو يؤمن ايمانهم وكانوا يتلفون الكتب التي لا تساير آرائهم على أن الخلفاء الراشدين كانوا يشجعون العلم ويحترمون ايمان من لا يحاكيهم في الايمان ، يدلنا على ذلك تكرار تواصيهم باحترام العابدين ، اخص بذلك القول المأثور الذي كان يقال عند عقد الألوية على امراء الجيوش الا وهو : وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا انفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا انفسهم له الى ما في آخر تلك الوصايا من أوامر خيرة انسانية .

ان ماذكرناه عن التشجيع على تعلم العلوم مما جاء في القرآن الكريم والحديث الشريف والدعوة الى تخليده والتسامح فيه واحترام ايمان الآخرين وتمسك عمر رضي الله عنه بجميع هذه المبادىء يجعلنا نستطيع التأكيد بان من يدعو الى تخليد العلم لا يسعى الى تبديده . فلا يقدم على احراق المكاتب . نقول ذلك تمهيداً للبحث عن حرق مكتبة الاسكندرية وتكذيب الزعم القائل بان عمر بن الخطاب امر بحرق مافيها من الكتب .

ب - نظرة الى ما قيل في حرق مكتبة الاسكندرية - جاء في تاريخ مختصر الدول لابي الفرج الملطي[1] عند كلامه عن فتح مصر على يد عمرو بن العاص ما يفيد ان يحيى النحوي شهد فتح عمرو بن العاص لمدينة الاسكندرية وانه دخل على عمرو وقد عرف موضعه من العلوم فاكرمه وانس به فقال له يحيى يوما : ان كتب الحكمة في خزائن الاسكندرية لا انتفاع لك بها فنحن اولى بها فقال له عمرو : هذا مالا يمكنني ان آمر فيه الا بعد استئذان امير المؤمنين عمر بن الخطاب فكتب عمرو الى عمر وعرفه بقول يحيى فورد عليه كتاب من عمر يقول فيه وأما الكتب التي ذكرتها فان كان فيها ما يوافق كتاب الله ففي كتاب الله غنى عنها وان كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة اليه فتقدم باعدامها فشرع عمرو بن العاص في تفريقها على حمامات الاسكندرية لاحراقها في مواقدها فاستنفذت في مدة ستة اشهر ، والغريب في هذه الرواية ان بعض نسخ كتاب ابن العبرى[2] لم تذكرها .

وضع عدد كبير من بحاثي العرب ومؤرخي الغرب رسائل وكتبا تنقض هذه الرواية من أساسها ، ويرى أصحاب هذا الرأي ان مكتبة الاسكندرية احرقها الرومان قبل الفتح الاسلامي ، ولقد كان سنكا الفيلسوف معلم نيرون أول من أخبر بحرق مكتبة الاسكندرية ، كما ثبت ان يوليوس قيصر الذي امتنع عن تسليم كليوباطرة الى المصريين وقاتلهم بسببها اضطر ان يضرم النار في سفنه التي في المرفأ فاندلع لسان اللهب منها وامتدت الى المتحف والمكتبة فاحرقت

---

(١) يعرف بابن العبرى ٦٢٣ هـ - ٦٨٥ هـ ١٢٢٦ - ١٢٨٦ م ، ولد في ملطيه وتوفي في مراغة اذربيجان هو غريغوريوس ابو الفرج اسقف حلب السرياني وجاتليق تكريت كان ابوه طبيبا ومن ملة اليهود ولذلك عرف بابن العبرى ، اشتهر باللاهوت والفلسفة والغراماطيق والسرياني وبعلم الطب ، تنصر في شبابه وشب على النصرانية الف كتابا في تاريخ الدول بالسريانية استخرجه من كتب يونانية وفارسية وعربية وسريانية واستخلص من هذا التاريخ كتابا باللغة العربية سماه مختصر الدول .

(٢) يؤكد ذلك المؤرخ العربي الكبير رفيق بك العظم في هامش الجزء الثالث من كتابه عن مشاهير الاسلام

ما فيها من كتب وقد اكد هذه الرواية بولس اوروسيوس في التاريخ الذي الفه نحو سنة ٤١٦ ميلادية حيث قال : صدرت اوامر قيصر في غضون القتال باضرام النيران في الاسطول الذي كان راسياً قرب الشاطىء فاتصلت النار بقسم من المدينة وحرقت ٤٠٠ الف كتاب فتلف بها ذلك الاثر العجيب .

يتضح من ذلك ان حرق مكتبة الاسكندرية قبل الفتح الاسلامي امر مسلم به وليس هناك اي سبب يحمل على الشك فيه ، ذلك ما توصلت اليه واثبتته دراسات كل من بحاثي الفتح العربي في القرنين الحالي والماضي من مستشرقين وعرب [1] وكان آخرها البحث الذي قدمناه في مؤتمر تاريخ الطب الذي عقد في أثينا .

نظرة حديثة واخيرة الى مكتبة الاسكندرية : يري اخيراً بعض البحاثين ان بناء مكتبة الاسكندرية حجري بجدرانه وسقوفه وان مكانها سر كامن مع سر مدفن الاسكندر ، وانهما — المكتبة والمدفن — موجودان تحت انقاض من التراب والكثبان وانه قد يكشفها الى العيون في يوم من الايام ضربة فأس او معول عامل يوجهه اختصاصي بالعاديات وخبير بالآثار . ولقد تبين لنا من دراسة هذا الموضوع انه في الوقت الذي استطاع به المستشرقون الحسنو النية ومنهم كازانوفا ان يدفنوا هذه الرواية المكذوبة الى الابد في اكاديمية الآثار والآداب بباريس حيث تلى كازانوفا في ٢٨ مارس سنة ١٩٢٣ رسالة اجتذبها هذا الافتراء من اصوله فأبطل هذه الخرافة ، تطلع علينا آراء غريبة في

---

(١) نذكر منهم بطلر وكازانوفا والمرحوم الدكتور صروف ، ومما جاء في كلام الدكتور صروف قوله : واما ماقيل من ان الامام عمر امر باتلاف هذه المكتبة فرواية مطعون بها وعندنا انها كاذبة وقد ايد البحث الحديث هذا الحكم الذي حكم به الدكتور صروف والدكتور امين خير الله وحتي وجورجي وجبور . جاء في المجلد الاول من كتابهم عن تاريخ الاسلام ص ٢٢١ : اما القصة التي تقول إن عمراً احرق مكتبة الاسكندرية فينكرها البحث العلمي ولم يكن في الاسكندرية مكتبة عظمى يوم الفتح .

بلاد عربية تقول : بأن مكتبة الاسكندرية احرقت بعد الفتح العربي لمصر يرويها جماعة تزيوا بلباس العلم وبرعوا بدس السم في الدسم تشهيراً بالعرب[1] .

البحث الرابع

عمر بن الخطاب وحرية الاديان

نصارى العرب وموقفهم من الدول العربية الاسلامية عبر التاريخ

ان بين ابناء الامة العربية - من آمن منهم بالاسلام او بالنصرانية — صعيداً مشتركاً ضخماً واهدافاً متقاربة تربطها رابطة النسب الى العروبة بأقوى رباط وتمنطقها باوثق نطاق[2] ، تغذي لغة العرب الخيّرة بأدبها وفكرها وثقافتها ابناء العروبة كافة فمنها ينهلون ومن عيونها يشربون . وقد نتج عن ذلك تراث قومي يعتز كل منهما به ويفاخر الامم الاخرى ، عبّر عنه الاديب الكبير اللبناني امين نخلة المسيحي مخاطباً محمد بن عبد الله الرسول العربي الامين بقوله : والله يا محمد ، وحق عيسى وخشبات صليبه ، اننا في هذا الحي من العرب نتطلع اليك من شبابيك البيعة ، قلوبنا في الانجيل وعيوننا في القرآن .

---

(١) راجع للتوسع مانشره الاستاذ الياس بولس الخوري في الصفحة الرابعة والاربعين والعدد الثامن من مجلة الايمان الصادر في دمشق سنة ١٩٥٨ وكذلك البحث الذي قدمناه باللغة الفرنسية مع خلاصة عنه باللغات الحية الاخرى الى مؤتمر تاريخ الطب الاممي السابع عشر المعقود في عاصمة اليونان مابين ٤ — ١٤ ايلول من سنة ١٩٦٠ ص ٣٩٣ .

(٢) عبّر عن ذلك الأديب الكبير خليل مردم بك في احدى قصائده التي نظمها في ثورة سورية على الفرنسيين بقوله مشيداً بروح التضامن القومي .

بكت دمشق بنيها يوم محنتها ... فلم تجر غير من صحت عقائده
ترى الحنيفي يوم الروع مبتدراً ... الى المسيحي في البلوى يساعده
خلى حماه ليحمي عرض صاحبه ... وصال خشية ان تؤتى موارده
الحمد لله اني في وطن ... تحمي كنائسه فيه مساجده

التقى العرب المسلمون بنصارى بلاد الشام ومنها فلسطين حيث المهد والقبلة الاولى في عهد عمر رضي الله عنه فعاش المسلمون والمسيحيون من ابناء العروبة متعاونين متناصرين ، يشتركون في القيم الروحية العالية ، يبشر كل منهما في هذه الحياة برسالة الروح وخلود الخير وعبادة الله .

ولقد ادت الروح السمحة التي تحلى بها مخلدو العروبة وتقديرهم لحرية الاديان الى ان يسهم نصارى العرب في عهد عمر وغيره من الخلفاء والسلاطين العرب المسلمين في حروبهم ويقفوا منها موقفاً مؤيداً يشد بعضهم ازر بعض واذا اندفع المسلمون باسم الرسالة التي ائتمنوا عليها فقد اندفع النصارى باسم النسب الذي به يفتخرون وباصالته يتباهون ، وقد اقر عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذلك فخص بني تغلب على شاطيء الفرات وغيرهم من نصارى العرب باقوال وافعال تثبت تقديره لعملهم ، وكان ذلك باشارة من زرعة بن النعمان بن زرعة حين ذكر لامير المؤمنين اسهام بني تغلب في معارك العرب والمسلمين ضد الفرس قائلا : يا امير المؤمنين ان بني تغلب قوم من العرب ولهم نكاية في العدو فلا تعن بهم عدوك عليك فاستجاب له عمر ، واعلا مكانة العرب النصارى ويطيب لنا ان نقول في هذا الصددان في سيرة النصارى العرب مفاخر في سبيل العروبة يذخر بها التاريخ منها اشتراكهم بقتال الفرس عند جسر الفرات حيث وقف العرب الى جانب والفرس الى جانب[1] فدخل على المثنى قائد المعركة ، أنس بن هلال يخبره بان قومه النصارى يريدون ان يلحقوا به للنسب فرحب به المثني واثنى على اواصر النسب . طال القتال في ذلك اليوم ، يوم البويب ، على غير عادته فرأى المثني ان يحمل على قائد الفرس مهران ، والتفت الى خلفه فوجد

---

(١) ارجع للتوسع الى ما ذكره الاستاذ الهنداوي عن هذا اليوم في مجلة الجندي تحت عنوان مهداة الى روح جول جمال والى ما كتبه الاستاذ مبارك في هذا الصدد حيث قال إن لاستشهاد جول جمال معنيين معنى اولاً يفقأ أعين الاقليميين واصحاب الهوى والغرض من المستغلين والمعنى الثاني هو تضامن المسلمين والمسيحيين وتعاونهم وتناصرهم في سبيل بلادهم العربية .

انس بن هلال [1] فقال المثنى : هذا قائد الفرس مهران انني ، سأحمل عليه فاحمل معي يا أنس وأحم ظهري ، وراح الجوادان مصطحبين كأنهما في حلبة رهان ، والغاية مهران ، فاحتمى بقلب جيشه ، وفي لحظة من تلك اللحظات الخاطفة نادى فارس : أنا انس بن هلال وفي رمحي رأس مهران والفرس فرس مهران فاشتد العرب على الفرس وما هي الا كرّة حتى انكفأوا نحـــو الجسر يريدون النجاة [2] .

ومنها ما روى عن غزوة عـُقبة للروم [3] : حيث خرج الوليد بن عقبة غازيا للروم وعلى مقدمته عقبة بن فرقد ، فلقيه الروم فقاتلوه ، فقـال له رجل من العرب نصرانياً : لست على دينكم ولكني انصحكم للنسب ، فالقوم مقاتلوكم الى نصف النهار ، فان رأوكم ضعفاء افنوكم وان صبرتم هربوا وتركوكم .

واننا نحب ان نعلق على كلمة النسب التي جاءت في كلمات العرب النصارى الذين شاركوا في حروب المسلمين ، فهل لا تعني ما نسميه اليوم بالقومية . انها في نظرنا كذلك فقد كانت صلة النسب الدافع الاساسي في مؤازرتهم للعرب المسلمين واذا كان العربي المسلم اندفع في فتوحاته باسم الدين فقد شاركه العربي المسيحي في بعضها باسم النسب .

ويسعدنا ان نتابع هذا البحث للتذكير بحوادث تاريخية عفى عليها الزمان فنسيناها وعمد التبشير والاستعمار على حملنا على نسيانها فكان لهما ما ارادا فترة من الزمن جال فيها الباطل وصال الزور والبهتان .

لم يشق الصليبيون في حروبهم التي دارت رحى معاركها في بلاد العرب

---

(١) كان اميراً نصرانيا وقد جاء ذكره في كتاب الاخبار الطوال لابي حنيفة الدينوري وذلك بقوله : ثم ان عمر بن الخطاب استنفر الناس الى العراق فخفوا في الخروج ، ووجه في القبائل يستجيش وقدم عليه انس بن هلال في جمع من النمر بن قاسط .

(٢) جاء ذكر هذه المعركة في الصفحة ١١٤ من كتاب الاخبار الطوال للدينوري .

(٣) الاغاني الجزء الخامس .

بمسيحييها فاضطهدوهم لانهم صدوا عنهم وقد تأثر بذلك غوستاف لوبون فحمل على بعض المسيحيين العرب في كتابه المعروف بحضارة العرب ونعتهم بنعوت غير صادقة وذلك إثر ما رآه ، على ما يبدو لنا من تبادل الثقة بين بني العروبة من المسلمين والنصارى ومن عزوف هؤلاء عن الصليبيين ومساندتهم المسلمين.

ونذكر من الادلة البارزة على ذلك اتخاذ امراء الشرق العربي المسلمين رجال الفن المسيحيين من رعاياهم دون النظر الى دياناتهم لوثوقهم بكل من كان من رعيتهم بصرف النظر عن دينه وعقيدته ومذهبه ونحلته ، وهكذا فقد كان صلاح الدين وغيره من السلاطين والملوك والامراء المسلمين يستخدمون الاطباء النصارى كما كانوا يستخدمون الاطباء المسلمين. وقد ادى هؤلاء الاطباء النصارى من الخدمات مثل ما أداه المسلمون سواء بسواء ، ولقد قاموا بذلك دون تشويق او اغراء كما يعمل اليوم كل مواطن عربي في سبيل وطنه .

ونقدم مثالا على ذلك ما قام به أبو سليمان داوود بن ابي المنى بن ابي فانه[1] من أهل القدس الذي نزح عنها واقام في مصر ، سمع بطبه احد ملوك الفرنج ماري فالتمس منه معالجة ابنه المجذوم في بيت المقدس وجعله طبيبه الخاص واتفق ان ملك الفرنج أسر عيسى الهكاري[2] الفقيه صديق الملك الناصر وصاحب

(١) جاء عنه في عيون الانباء لطبقات الاطباء (ج٢ ص ١٢١-١٢٣) كان طبيباً نصرانيا بمصر في زمن الخلفاء وكان حظياً عندهم فاضلاً في الصناعة الطبية خبيراً بعلمها وعملها متميزاً في العلوم وكان من اهل القدس ثم انتقل الى الديار المصرية وقد ربي ابنه ابو شاكر وثقف بارشاد الملك الناصر ثم جعله الملك العادل في خدمة ولده . فنال في دولته حظاً عظيما حتى كان يدخله جميع قلاعه وهو راكب ولقد بلغ من امره ان اسكنه الملك العادل بقصره في القاهرة وكان ياخذه بيده ويسايره ويتحدث معه وقد قيل فيه :

هذا الحكيم ابو شاكر — كثير المحبين والشاكر
خليفة بقراط في عصرنا — وثانيه في علمه الباهر

توفي ابو شاكر بن ابي سليمان في سنة ثلاث عشرة وستمائة ودفن بدير الخندق بالقاهرة.

(٢) هو ابو محمد عيسى المتوفى سنة احدى وثمانين وخمسمائة . مشى بين الامراء والسلطان صلاح الدين وحضر معه فتح القدس والغزوات وكان صلاح الدين يميل اليه ويستشيره وكأن الله اقامه لقضاء حوائج الناس والتفريج عن المكروبين مع الورع والعفة والدين .

الجاه عنده فسير ملك الفرنج ابا سليمان المذكور لمداواة الفقيه من مرض ألمّ به فلما وصل اليه وجده في الجب مثقلا في الحديد فرجع ابو سليمان الى الملك وقال له ان هذا الرجل ذو نعمة ولو سقيته ماء الحياة وهو على ذلك لم ينتفع به ، قال الملك : فما أفعل في امره ؟ قال يطلقه الملك من الجب . فقال الملك : نخاف ان يهرب ، فقال ابو سليمان : سلمه الي وضمانه عليّ ثم أخلى ابو سليمان للفقيه موضعاً في داره واقام يخدمه فيها ستة اشهر اتمّ خدمة ، ثم جاءت فديته فطالب الملك ماري الحكيم ابا سليمان بالفقيه فاحضره واعطى الملك ابا سليمان كيساً فيه الف دينار قائلا له : هذا حصتك من الفدية فلما اخذ ابو سليمان الكيس قال للملك : هذه الالف دينار قد صارت لي أتصرف فيها تصرف الملاك في املاكهم فقال: نعم . فاعطاها ابو سليمان الطبيب للفقيه وطالبه ان يتقبلها منه إعانة على نفقة الطريق فقبلها الفقيه وسافر الى الملك الناصر .

وقد تراءى لطبيبنا ابي سليمان ان الملك الناصر لا بد منتصر لذلك احب ان يحسّن اليه فتح باب المقدس والدخول الى القدس من باب الرحمة ، ولكن من هو الشخص الذي يوثق به في نقل الخبر ؟ لم يتردد حينئذ ابو سليمان ان يفاتح بهذا الامر ابنه ابا الخير وكان من كبار فرسان الصليبيين ، فلبى الولد ابيه برغبة وغبطة ، مضى الولد الفارس الى الملك الناصر واتفق وصوله اليه في غرة سنة ٥٨٠ هـ فبحث فيها عن الفقيه عيسى واتصل بـه فادخله على الملك الناصر واوصل اليه الرسالة التي يحملها من ابيه ، فسر الناصر بعمل الولد وابيه وكتب كتباً الى سائر ممالكه براً وبحراً يحدث فيها عن اخلاص النصارى لبلادهم ورغبتهم عن الصليبيين الغازين العاتين ويوصي بهم خيراً .

استدعى فيما بعد الملك الناصر الحكيم أبا سليمان واستقبله قائماً وقال له : أنت شيخ مبارك قد وصل الينا بشراك وتم جميع ماذكرته فتمن علي ، فقال له : أتمنى عليك رعاية اولادي ، وفي ذلك دليل ناصع على ان ماعمله الوالد والولد لم يكن غرضه إلا تلبية صوت يجيء من اعماق النفس ناداهما إلى العمل مافي

وسعيها لانقاذ البلاد من أيدي الغزاة الطغاة .

ومما يدل على كبير ثقة امراء المسلمين بالنصارى وعلمائهم واطبائهم وهم المطلعون على الاسرار والدخائل من مدنية وعسكرية بحكم مراكزهم السامية ولا سيما الاطباء منهم ، العهدة اليهم بمهات عند الصليبيين[1] .

اننا نرى في الامثلة التي قدمناها دليلا على انالفكرة القومية وجدت عند العرب قبل أن يقول بها الغرب الذي يردها إلىاعقاب الثورة الفرنسية .

---

(١) من ذلك ما ذكره اسامة بن منقذ قال :

كتب سيد المنيطرة الى عمي يطلب ايفاد طبيب يعالج بعض المرضى من رجاله فارسل اليه عمي طبيباً مسيحيا يدعى « ثابتاً » ولم يطل غياب ثابت اكثر من عشرة ايام حتى قفل راجعاً ولما سئل عن سبب ايابه السريع أجاب : دعيت لمعالجة فارس اصيب بجراح في ساقه وامرأة بلهاء فداويت الفارس بالبخة حتى انفقأ الخراج وتحسنت حاله ، كما حددت للمرأة غذاءهـا وجعلت اطيب خاطرها ، وبينما الامور على هذه الحال اذا بطبيب افرنجي يطلع عليها ويفهم ذويها ان هـذا الرجل لا يحسن معالجتها ثم يسأل الفارس : أتفضل ان تعيش بساق واحدة او تموت بساقين ؟ فأجابه هـذا : أريد ان اعيش بساق واحدة ، حينئذ طلب اليهم ان ياتوه باحد الاشداء ومعه فاس قاطعة ففعلوا كما أمروا ولبثت انا واقفاً اتطلع ، ثم وضع الطبيب رجل المريض على قطعة من الخشب وأمر حامل الفأس بان يبتر الساق بضربة من فاسه . فضرب اولا ولكنالساق لم تنفصل فضرب ضربة ثانية واذا بالنخاع يسيل من العظم واذا بالرجل يموت لفوره ، ثم فحص المرأة البلهاء فقال : ان في رأسها روحاً شريرة قد تملكتها ويجب ان يزال شعرها ، ففعلوا بما اشار عليهم فشق فروة رأسها واخذ يدلك مكان الشق بالثوم يوميا كما سمح لها بمشاركة قومها في طعامهم الشاذ فساءت حالتها ، حينئذ قال طبيبهم ان ابليساً قد نفذ الى اعماق رأسها واخذ موسى حزّ به فروتها ثم ازاح الجلدة حتى برز العظم ففركه بالملح ، ولم تلبث المسكينة ان فارقت الحياة .

وقال ايضاً رأيت فارساً فيهم اصابته زلة عنيفة وضيق نفس شديد وقد طلبوا الى كاهنهم إراحته فاذاب مقداراً كبيراً من الشمع سد به انفالفارس المسكين فاسكتانفاسه والتفت الى ذويه وقال الآن تمت له الراحة .

عندئذ سالت القوم اذا كانوا لا يزالون في حاجة الى خدماتي ، ولما اجابوا سلباً قفلت راجعا وقد اطلعت على اساليبهم الطبية البشعة ما لم اكن اعرفه وما فيه الجهل كله .

إن تعبير النسب الذى اسهم باسمه فى ذلك الحين عرب النصارى ببعض الفتوحات الاسلامية العربيـة او التبشير بهـا او مساعدتها هو في نظرى مانسميه بالقومية .

ان عرب النصارى لم يخدعوا في الماضي البعيد كما لم يخدعوا في امس فلسطين القريب حيث حلت الكارثة بكل عربي . وسوف لاتنطـلي عليهم اساليب الاستعمار الحديثة الذى تفنّن في تنويع صداها وبرّع في نسج لحمتها محاولاً ايقاف الحركات التحررية وعرقلة توحيد البلاد العربية فقد عرفه النصارى العرب كما عرفه مسلموهم وقد اتجـه ادباء العرب النصارى الى التعبير عن ذلك بارق الالفاظ وأصدق التعابير [1] .

ويطيب لنـا ان نذكر اخيراً في هـذا الصدد قولا للجـاحظ يحاكى ببعض نواحيـه ما قاله علماء الاجتماع والقوميـات في العصور الحديثـة [2] وينطبق على ما استنتجناه من كلمـة النسب التي تعرضنا لذكرها . اما هذا القول فهو :

ان الاستواء في التربية واللغة والشمائل والهمة والأنفة والحمية ،وفي الاخلاق السجية تقوم مقام الولادة والأرحام الماسـة .

---

(١) من ذلك قصيدة قالها وديع البستاني في ثورة دمشق وقد خاطب فيها ابناء دينه محذراً لهم من احابيل الغرب الذي لايعرف الا مصلحته معلنا لهم لابل معبراً عما يدور في خلدهم بالابيات الاتية :

ايهـا الناطقون بالضاد ، صحواً	ايكم نائم وغـير مفاق
صيحة الحق قد علت فاسمعوها	وصـداها يرن في الآفاق
لانصارى ولادروز ولكن	ارض (سورية) وارض العراق
كلنا مسلمون في مذهب الغر	ب ، عـداة منقوضة الميثاق

(٢) نذكر من بينهم هرور Herder وفيخته Fichte ومووريس Moris. Z وماكس نورد Max Nord وغيرهم .

الفصل الخامس

كلمة موجزة في العلم عند العرب

وتطور معاهده في بلادهم

يشتمل هذا الفصل على بحثين نذكر في اولهما كلمة عامة عن العلم عند العرب ونبحث في الثاني عن تطور المعاهد العلمية في البلاد العربية .

البحث الأوّل

نزر من المعلومات عن العلم عند العرب

قبس من نور الحق اشرق في قلب عربي ولد بمكة فجعل منه احد افذاذ البشر الخالدين ، نبت محمد الرسول العربي في ارض عربية مزقتها روح قبلية ، ولقد كانت الدعوة الى اعلاء شأن العقل اول ما نادى به الرسول العربي لان العقل كما يقول نور في القلب نفرق به بين الحق والباطل ثم اتبع ذلك بنبذ التفرقة لانها وليدة طغيان الجهل وفساد العاطفة . ولقد استطاع بالعقل والعلم مطاردة جيوش الاوهام والاساطير فحرر الانسان من تبعية الانسان الا بما يقبله العقل ويقره العلم .

لقد اعتمد الرسول في رسالته على الإيمان والعقل والعلم والعرب فأنشأ جيلا عربياً مؤمناً قويا في جسمه وعقله متعطشاً للعلم المقرون بالعمل تحلّى بالعزة

وعلو النفس والاباء والجرأة والصراحة، جيلا فتح القلوب واثار البصائر والعقول استطاع هذا الجيل بما ولده فيه الرسول من ظمأ للعلم ارواء غليله منه فجمع في اقل من قرن علوم من سبقه من العلماء الاولين ، ثم زاد عليهم ونقلها الى الناس اجمعين ومكن منها مناصريه ومخاصميه .

يشير الى ذلك الاستاذ العلامة قسطنطين زريق رئيس الجامعة السورية الاسبق في محاضرته التي القاها في مؤتمر اليونسكو بقوله والحقيقة الناصعة هي ان الحكم العربي والتصرف العربي والعلوم العربية والخلق العربي، والخلق العربي، جميع هذه المظاهر كانت مرتبطة ارتباطاً وثيقاً برسالة الرسول العربي ولقد كانت المظاهر المذكورة تقدمية ، خلاقة منسجمة مع سير الروح العربية نحو مثل من الحياة اسمى واشرف وقد كانت هذه المثل ، بعد موت الرسول قوة حية تولدت منها حيوية الحضارة وقوة الابداع في الامبراطورية العربية على اشدها.

يقول في صدد العقل واستنارة العرب في علومهم بوحيه ادلاربات وهو اديب انجليزي من ادباء القرن الثاني عشر تثقف على ايدي علماء العرب في الاندلس والشام مخاطباً ابن اخ له درس في جامعات فرنسة ومتفاخرا عليه انني والعقل رائدي تعلمت الشيء الكثير والعلم الغزير من اساتذتي العرب المسلمين بينما انت ابهرت عينيك المظاهر فقيدت رأسك بعنان ، لقد اعطى الله الناس العقل ليميزوا به الحق من الباطل فكان له الاثر الكبير في العلم العربي ، ثم يقول ان اثمن الخدمات العلمية روح البحث والاعتماد على العقل الذي تميز بها الفكر الانساني الخلاق كان لهما الاثر الكبير في العلم العربي .

لقد استطاع العرب في سنوات معدودات ان يصبحوا اسياد العلم في العالم فقالوا باراء اخذ علماء اليوم يقولون بما يحاكيها واخذت الامم تفاخر بعضها بعضاً بأولوية القول بها فما هي علوم الوراثة وتحسين الولد واصلاح النسل التي يظن انها علوم حديثة كان للعرب فيها باع طويل وان الباحث ليستطيع بسهولة ان يرى في اراء ابن القيم بذور نظريتي دارون وايسمن في عوامل نقل

الصفات وما ان التأسن او النزوع الى الاصل عرفه العرب ، لقد عرفوا التهجين فكانت منه ابلهم العريقة ، واني لارجو ممن يشك في قولي ان يرجع الى بحث النتاج المركب في كتاب الحيوان للجاحظ ليقتنع بما اقول .

وكان العرب من الداعين الى العناية بالتشريح والتسليخ خلافاً لما يقال عنهم. يقول ابن رشد : ان معرفة الاعضاء بالتسليخ تقرب من الله ، ومما لاشك فيه ان ابا القاسم الزهراوي مارس التسليخ وقد اكد في جميع كتبه على ممارسة التشريح ومعرفة الاعضاء ووظائفها .

يقول العلامة الفرنسي جول لابوم [1] في تعليقه على القرآن الكريم: كانت الامبراطورية العربية في القرن العاشر تعلم التسليخ في قاعات مدرجة خصصت لتدريس التشريح انشئت في اماكن متعددة ولا سيما في صقلية وكان علماء العرب اول من عرف الدوران الشعري والعروق الشعرية ، ولقد اكتشف ابن نفيس الدمشقي المصري الدورة الدموية الصغرى ونقلها عنه هارفي الانكلتزي وعزاها لنفسه ،وعمل سرفيتوس الايطالي ماعمله زميله الانكليزي في سرقة آراء ابن نفيس وانتحالها لنفسه حتى ان مايرهوف العالم المعاصر قال في هذا الصدد ان ما اذهلني هو مشابهة لابل مماثلة بعض الجمل الاساسية في اقوال سرفيتوس لاقوال ابن نفيس كأنها ترجمت ترجمة حرفية ويدعم هذا الرأي الدوميالي العالم المعاصر وكذلك ليون بينه عميد كلية الطب في باريز وزميله في بحث هذا الموضوع الاستاذ هربين .

اما خبرة العرب في الكيمياء فكانت واسعة جداً حملت باكون الفيلسوف الانكليزي أن ينعت جابراً المشتغل بالكيمياء بانه معلم العالم وان يقرن بيرهان الطبيب الكيمياوي الفلمنكي ذكر علماء العرب وعلى الاخص منهم جابرا بالاجلال والاكرام .

Jules Labaume (١)

اما في العلم الفيزيكي فكان الكندي وقداعتبرت مؤلفاته اساس تآليف روجه باكون وغيره من أوائل الفيزيكيين وان في قصة الساعة المهداة من هارون الرشيد الى الامبراطور شارلمان، تلك الساعة التي خشيها الغربيون فنعتوا صنعها بالسحر دليلا آخر على توسع العرب في ذلك العلم واستفادتهم منه في الصناعة، يعتقد الكثيرون ان رقاص الساعة من مخترعات غاليلو في القرن السابع عشر والواقع ان ابن يونس العالم العربي المصري سبق غاليلو في معرفة الرقاص بستة قرون يعترف بذلك سيديو الفرنسي واما في صدد ابن الهيثم فيقول عنه سارطون انه من علماء البصريات القليلين والمشهورين في العالم كله ويعترف سخاو بان البيروني اكبر عقلية عرفها التاريخ .

ويحلو لي في هذه المناسبة ان اذكر بان ابن الهيثم كان اول من قال بالسد العالي وباشر عمله ولكن الجرأة خانته في انجازه

اما في الطب فقد كان اطباء العرب مريبين مخبريين اعتمدوا على الفحوص المخبرية [١] .

أما في الامراض فقد قالوا بسراية بعضها بينما كان يعتقد الغرب انها من عمل الشيطان ولقد حذر من عدوى السل حتى ادباء العرب [٢] بينما ظل الغرب يعتقد أن السل مرض بنيوي حتى القرن التاسع عشر .

وقد عرف العرب التطعم ضد الجدري ،تعلموه من الصين ، وكان الغناء من

---

(١) يطيب لي في هذه المناسبة ان اذكر قول احد الشعراء في ثابت بن قرة الطبيب وفي فحصه البول :

مثلت له قارورتي فرأى بها ... ما اكتن بين جوانحي وشغافي
يبدو له الداء الخفي كما بدا ... للعين رقراق الغدير الصافي

(٢) يقول الشاعر العربي قبل اربعة عشر قرنا

هو السل او داء الهيام اصابني ... فاياك عني لا يكن بك ما بي

وسائل العرب في المداواة ويبدو ان التراحيم ترتد في نشأتها الى محاولة تسكين آلام المؤرقين النفسية باقوالها الرائعة ينشدها مؤذن ذو صوت جميل .

وقد كان لهم في ميدان علم النفس خبرة واسعة ويجوز اعتبار بعض آراء ابن القيم وابن حزم وفرويد في الحب والبغض مماثلة كما ان في تفسير الاحلام لابن سيرين ما يحاكي آراء فرويد الحديثة .

واما في الجراحة فكان العرب اول من عرف الخياطـة بأوتار العود ـ الكاتكوت في يومنا ـ وكان كتاب مروان بن زهر موضوع التدريس في مدرسة باريز الطبية ويقول في حقه الاستاذ بوشوان ان ابن الزهر اول من اهتم بدرس العظام والكسور وقد اتيح له التشريح لان ما تركه من وصف الدمامل في الصدر والبريطوان والمعدة كان في غاية الروعة وكان العرب اول من عالج حصى المثانة باخراجها او تفتيتها كما عرفوا التخدير فجعلوا الاسفنج سواغه وكان الجراح ابو القاسم الزهراوي اول من اشار باستئصال الرضفة في كسرها وذلك قبل ان يقرر هذا الامر علماء اليوم بتسعة قرون .

اما امجادهم الفكرية في ميادين الرياضيات والفلك ففيها ما يبعث على حفز الهمم للاتيان بمثلها وما يصح الائتمام بها والمفاخرة باصحابها .

لقد برع العرب في العلوم الرياضية واجادوا فيها واضـافوا اليها اضافات هامة اثارت الاعجاب والدهشة لدى علماء الغرب يقول كاجوري ان العقـل ليدهش عندما يرى ما عمله العرب في الجبر وقد طبق العرب الهندسة على المنطق ولولا العرب لما كان علم المثلثات وقد خطوا بعلم الفلك خطى تقدمية ويرى بعضهم ان هنالك تشابها بين نظرية اينشتاين في الجاذبية وآراء الفارابي فيها فقد اتسقت بينهما الخواطر كما اتسقت خواطر دانتي في رواية الجحيم مـع رسالة الغفران لابي العلاء المعري وقد تنبأ الفارابي بالتزاحم على الفضاء والسموات[1] .

---

(١) يقول في ذلك

محيط السموات اولى بنـا فلمْ ذا التزاحم في المركز

ايها القارىء!!

مما لا شك فيه ان هنالك مجالا للتساؤل عن سبب استشهادي بشهادة علماء الغرب في علم العرب وعلمائهم والجواب عن ذلك هو ان شهادتهم تبعد عني اتهامي بالمبالغة في القول والواقع ان المدة التي قضاها العرب في التقاط العلم وبلوغهم الذروة فيه في زمنهم هي من القصر الشديد ما حيّر المفكرين الباحثين على ان اسسها ترتد في نظري الى ذكاء العربي وما جبل عليه من حب للاستطلاع وما شُجع عليه بآيات القرآن الكريم والاحاديث الشريفة من طلب للعلم مهما عز المنال .

ومما لا شك فيه ان عدداً كبيراً من القراء يحدس في سره اما كفانا البحث عن الامجاد الماضية ومالنا والزمن الغابر وعلينا بالمستقبل والحاضر !

وجوابي عن ذلك هو ان المستعمرين ومن ورائهم المبشرين سعوا الى تشتيت شملنا واضعاف الايمان في طاقاتنا لذلك كان لا بد من خلق الايمان في جيلنا ومن الثابت ان الامة التي تبغي مجداً عليها ان تخلق في الافراد روح الايمان بقابليتهم على الابتداع وان تنشىء فيهم الشعور بالعزة القومية وذلك بالاهتمام بماضيها وربطه بحاضرها ومستقبلها وما غايتي من كلماتي هذه الا تمتين ايمان العرب بطاقاتهم الكامنة فقد لا يكون هنالك امة لها من الامكانيات ما للامة العربية من امكانيات وليس هذا القول لي بل هو قول كثير من علماء الغرب .

وكأنني ببعض الناس يقول كلام محير ان بيننا وبين العالم هوة عميقة انه يبحث في الفضاء وما فيه من النجوم وعوالمها وفي الشمس وطاقاتها بينما يحوطنا النقص من كل جانب ، الى هؤلاء انقل كلمات العالم المعاصر هيو كينغ .

يقول هذا الاستاذ في كتابه مبادىء السياسة العالمية عند بحثه عن مستقبل الحضارة العربية وعن شغف العرب العلمي الذي كان من ابرز انطلاقتهم الاولى بعد الرسول ، وعما كان لهم من فضل على العلم والطب والمدنية ان الشغف العلمي الذي امتاز به العرب هو الجوع الباحث عن

العلم وعما وراء الطبيعة التي تنتسب اليها كل الفلسفات ، هو الحضارة بعينها التي يتغذى منها الجوع ويهضمها ويمثلها ، هو الانشاء العالمي للحكومة والثروة، بهما يمدان النبوغ والعبقرية والفن والعقول التي لا حدود لتغيرها في اللانهاية ،يمدانها ويضمنان لها الامن والازدهار في السلم والحرب،هو التعاون المثمر بين مختلف الذهنيات التي استطاع العقل العربي ان يجمعها لعشقه الحرية والمثل العليا وتحرره من التعصب والتزمت ثم يتابع قوله : ومما هو جدير بالذكر ان الشغف العلمي الذي ينعته هيو كينغ عند العرب بالواجب الديني قوي في البلاد العربية اكثر مما هو في الغرب وامريكا نفسها واخيراً يختم كلامه بقوله وسوف نرى عندما تزول اللفحة المحرقة التي اصابت العرب وخدرت نفوسهم ، ان بقية العناصر كالثروة والشجاعة الفكرية والحرية والشروع في العمل ، والبناء السليم الاجتماعي ستعود اليهم ، ثم يقول أخيراً هو كينغ أن الدليل على قولي هو ما كان من انطلاقة العرب في ثورتهم الاولى وما تركوه للاجيال من تراث علمي شامل وآثار خالدة . وهذا ما ازمعوا ان يفعلوه في عصرنا الحاضر .

ان شيطان التفرقة المدمرة التي ولدها التبشير والاستعمار والانانيات البغيضة والحزبية العمياء مزقت شمل العرب ، وجعلتهم في سبات عميق حتى ظن الناس ان العرب عادوا امة خلت ، فاصبحت في خبر كان، والواقع ان ماتعرضت له البلاد العربية والعرب ابان سيطرة المستعمرين والمبشرين والمستغلين عليها كانت كافية لتحويل العرب عن امانيهم وعن لغتهم ، وجعلها لغة لا يتحدث عنها سوى التاريخ كما يتحدث عن لغة الآشوريين وغيرهم فيحققوا بذلك هدفهم القديم الا وهو التخلص من اي امكانية تعيد العرب سيرتهم الرائعة البديعة ووثبتهم الماضية الرائعة .

ولكنهم كانوا وما زالوا عالمين ان لغة العرب لا تمحى من الوجود فالقرآن حاميها وما يدعو اليه من تفتيح العقول والتشجيع على كسب العلوم وضم الشمل

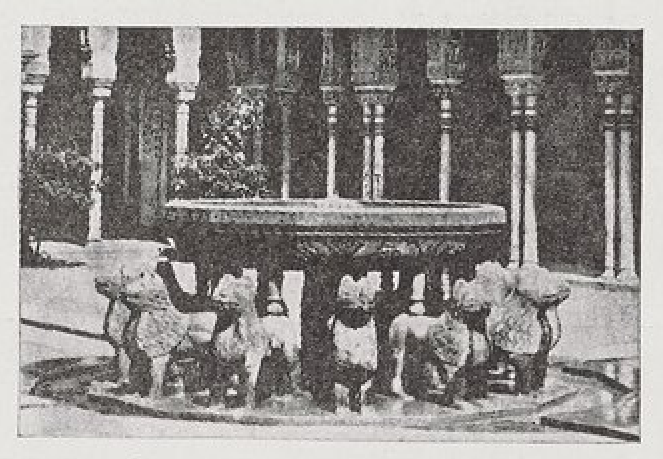
ونبذ التفرقة حارسها ، وتأبى المعجزة الا ان تثبت صلاحها لكل زمان ومكان ذلك ما كان في الجزائر وما سوف يكون في غيرها من بلاد العرب المناضلة.

لقد انتصرت العروبة واستيقظ الفكر العربي فوثب وثبات وانتصر انتصارات يدعمها العلم تعوض له عما فات وتبشر بمستقبل زاهر آت ، واذا استطاع العرب في وثبتهم الاولى الظفر بعلوم الاولين والآخرين في مئة عام فهم قادرون ان يسبقوا الزمن وينقلوا اليهم العلوم الحديثة في اقل من مئة عام ، شأنهم في حاضرهم كشأنهم في غابرهم ، فالتاريخ يعيد نفسه والادلة على ذلك كثيرة والشواهد العديدة موفورة .

وانه ليطيب لي ان اختم حديثي مبيناً انه ليس حديثاً اوحته الآمال ولا مداعبة الخيال ، انه حديث مستند الى اراء معاصرين غربيين عرفوا العرب وسجاياهم درسوا اقوام بقائهم وامكانية وثبتهم جربوا القضاء عليهم ففشلوا وعاد املهم مركزاً في تفريق كلمتهم لان في هذه التفرقة امكان تأخير وثباتهم العلمية ونهضتهم العالمية .

ولقد صاغ المتنبي للعرب بالنهوض البرشامدور مؤلف كتاب حمراء غرناطة حول نبوءته اطاراً ادبياً جاء فيه : عاش العربي في فجر التاريخ ، في تلك الارض القاحلة التي تلهب الشمس ذرات رمالها ، عاش في تلك الصحراء يحتمل التعب والجوع والعطش والعزلة فاتخذ النجوم له دليلا والعلم مرشداً وسبيلا ، ان هذا العربي الذكي الشجاع الذي استطاع ان يجمع علم العالم في اقل من مئة عام كما استطاع ان يفتح نصف العالم ايضاً في اقل من مئة عام ، قد ترك لنا في حمراء غرناطة آثار علمه وفنه ، آثار مجده وفخاره ، ان هذا العربي الذي نام نوماً عميقاً مئات السنين قد استيقظ واخذ ينادي العالم ، ها انا ذا لم امت ، اني اعود الى الحياة ، لا لأكون آلة طيعة او كتلا من البشر تسيرها العواصم الكبرى ووسائلها الجهنمية بل لأحيا حياة مستقلة مناضلة ثم يقول من يدرى !? قد يعود اليوم الذي تصبح فيه بلاد الفرنج مهددة بالعرب ، فيهبطون من السماء لغزو العالم مرة

ثانية في الوقت المناسب والزمن الموقوت ، فيحطمون الغرب عدوهم الابدي ، ثم يقول : لست أدعي النبوءة ، ولكن الاتجاهات تدل على ذلك ، والامارات الدالة على هذه الاحتمالات كثيرة لا تقوى الذرة ولا الصواريخ على وقف



الشكل – (٤) باحة الأسود وحوضها في الحمراء

تيارها ، ان الثورات التي تتأجج نيرانها في البلاد العربية دليل على صحة نبوءتي ، فترتعد من ذلك فرائصه ويخاطب حينئذ اشباح الحمراء من فرسان العرب ، تلك الاشباح التي أشار اليها « ارفنغ واشنطن »[١] في قصصه عن الحمراء

---

(١) ارفينغ واشنطن Erving Washington كاتب اميريكي من برزات الادب في عالم العصر الماضي أقام في قصور بني الأحمر الاندلسية المعروفة بالحمراء مدة طويلة تتبع خلالها سيرة الاندلس العربية فروى بعض نواحيها في قصص سماها قصص الحمراء . وعلى الرغم من مضي زمن يزيد عن قرن على تلك التحفة الأدبية فانها ما زالت تحتل في أدب القصة أعلى مقام ومما جاء فيها ان سكان غرناطة يرون في ظلام الليل البهيم اشباح فرسان العرب تطوف في باحة الاسود وحول حوضها تنتظر البعث وان في كهوف جبال الثلج جيوشاً عربية مرصودة بسحر النفاثات في العقد لابد أن تفك عقدها فيعود بعدها الى العرب مجدهم الأصيل. ذلك مايعبر عنه البرشاندور باسلوب ادبي في نبوءته عن يقظة العرب وايمانه بحتميتها ما لم تقاوم بالعمل على تمزيق كلمتهم باستمرار وهو يرى ان تشتيتهم يبقيهم كالاشباح بلا ارواح ، تلك الاشباح التي يروي الرواة قصة تطوافها حول حوض الأسود منتظرة بعثها المحتوم .

والتي ما زال الكثيرون يرددون ذكرها وينهي نبوءتـه مردداً : أبيدوا هذه الاشباح التي تنتظر البعث ، اسكنوها الى الابد ثم يقول : ولكن هيهات ان نستطيع الى ذلك سبيلا .

ويجدر بي في آخر هذه الكلمة ان اعلق على قول الاديب المذكور بأن اعمال المستعمرين ومن ورائهم المبشرين كانت محاولات لقتل الروح العربية وتكراراً لغايات الحروب الصليبية ولكنهم غير بالغي اهدافهم والنصر للعروبة ووثبتها المدعومة بالعلم والتي سوف تكون مماثلة لوثبتها الماضية شاء المستعمرون أم أبوا .. انهم بذلك تنبأوا وحقاً ماتنبؤوا به وبذلك آمنا وحقاً ما آمنا به .



الشكل – (٥) قصور الحمراء المطلة على غرناطة

تلك هي كلمتي في العروبة والعلم ، انها مستندة إلى حقائق تاريخيـة ، إلى دراسة نفسية ، إلى بحث علمي ، والواقع اذ بدون العلم تصبح كل الاحلام التي تجيش في صدرنا كسراب الصحراء وهما لا وجود له ، ان العلم هو طريق الحرية

الحقيقيه ، والجهل هو أشد ألوان العبودية ظلاماً ، بل ان الظواهر في العالم من حولنا لتوحي بأن احتكار العلم سوف يصبح الشكل الجديد للاستعمار ولسوف تصبح القوة نصيب الذين يعلمون ويعملون فان سنة الله في ارضه تقضي بان يرث الأرض عباده الصالحون وان لدينا جميع الطاقات لنكون في عدادهم .

لقد اجمع الباحثون فينا ، وما اكثرهم ، ولكنني أخص بالذكر منهم دهاقنة التاريخ والسياسة والاستشراق من طراز غوستاف لوبون وولز وتوند ولين ستانلي بول ودوزى على ان العرب لو استطاعوا ان يجدوا الاسلوب الصالح الموحد لكيانهم لكانت جامعات باريز ولندن واوكسفورد ، بل جامعات الدنيا جميعها في خدمة العرب والعروبة ولكن روح التفرقة التي سيطرت على العرب حتى في عصرهم الذهبي ، أخذت تنخر في ضلوعهم حتى مزقتهم شر ممزق ، وأنني لأويد اقوال هؤلاء الاعلام وارجو من الله ان يكون في مستقبلنا القريب بدء البناء لرتق الخرق الهائل الذي رآه فينا هؤلاء الافذاذ من رجال الفكر والبحث ، ذلك الخرق الذي مازال كثير من الناس ، بسبب انانيات بغيضة ومصالح شخصية ثانوية تافهة ، على توسيعه عاملون وعن المساهمة برتقة معرضون مع انهم لوحكموا العقل واعتبروا بالماضيين القريب والبعيد جداً لرأوا ان مصلحة الامة العربية لابل ان مصلحتهم الشخصية تدعو الى ان يحل بينهم الوئام محل القطيعة والخصام . وفق الله الشعوب العربية الى ما فيه ضم الشمل وجمع الكلمة على توحيد الجهود ومباشرة النهوض، نهوضاً يستمد وحيه من امكانيات العرب الضخمة ، وقد صدق من قال فينا : ليس على وجه الارض أمة لها من الامكانيات ما للامة العربية .

وما الحوادث والثورات وغيرها من الهزاهز والهزات التي تقع في البلاد العربية بوحي من شعوبها الا مخاض ولادة ذلك اليوم العتيد ، الذى تبعث فيه البلاد العربية من جديد ، صفاً واحداً لتعيد سيرتها الأولى في خدمة العلم ودعم السلام بين الأنام .

البحث الثاني

تطور المعاهد العلمية عند العرب في ماضيهم [1]

أ – **عصر الخلفاء الراشدين** : دام أربعين عاماً ، كان عهد دعوة وتبشير وفتح واتصال مع بيئات عالية الحضارة العلمية في الشام ومصر والجزيرة وفارس. كان المسجد المدرسة الاولى في هذا الزمن ثم أُلحق به مكاتب يمكث فيها الطلاب حتى السادسة عشرة . يقول ابن سحنون في هذا الصدد . اقبل القرشيون واشراف العرب على العلم فانتشرت المكاتب في مدن الحجاز ، بل بين البدو حتى ان ابن حزم قال : لم يبق بلد الا وبُنيت فيه المساجد ونسخت المصاحف وعُلِّم القرآن للولدان شرقاً وغرباً . وقد عني كل من أبي بكر وعمر بهذه المكاتب حتى انهم كانوا يعلّمون فيها أبناء الأسرى أيضاً .

ب – **عصر الامويين** : استمر اثنتين وتسعين عاماً امتد ملكهم مابين سمرقند واقاصي الاندلس وكانت دمشق مناراً يشع نوره على أرجاء واسعة لا بل العالم كله المعروف حينها حيث احتلت الثقافة العربية الإسلامية مركزاً لا مثيل له في التاريخ . فتح الامويون فتوحات عظيمة ، ورتبوا البريد وانشأوا القصور والاقنية وتركوا من جملة ماتركوا اثرين من أروع الآثار العمرانية في الشرق العربي وافخمها وهما المسجد الأقصى وقبة الصخرة في القدس والمسجد الاموي في دمشق . كان المسجد الأقصى مركزاً علمياً وجدت حوله المدارس والبيمارستانات والمكاتب وكذلك الحال في الجامع الأموي بدمشق . اقتبس

---

(١) نقتبس بعض ما جاء في هذا البحث عن احدى محاضرات كلية الآداب والفنون لسنة ١٩٤٨–١٩٤٩، القاها في قاعة وست السيد احمد سامح الخالدي مدير الكلية العربية في القدس. نشرتها مجلة الابحاث في عددها الصادر في اذار سنة ١٩٤٩ .

الامويون من علوم اليونانيين والبيزنطيين ونقلوا التدريس من الاسكندرية الى انطاكية وحران فانتشر العلم في البلاد. اشتهر في زمن الأمويين الضحاك بن مزاحم معلماً يشرف على تعليم ثلاثة آلاف صبي . مهد الخلفاء الامويون بالمعاهد التي أوجدوها ، وحركة النقل التي باشروها ، الى العصور الذهبية في الآفاق العربية الاسلامية فأخذ نور علمها يسطع في الدولة العباسية . لقد سمح الامويون لأهل البلاد الأصليين ان يستمروا على العمل في معاهدهم العلمية واستخدموا أولى المعرفة منهم في جميع اعمال الدولة . حتى انهم ارتضوا في بادىء الامر ان يستعمل هؤلاء بلغتهم الاصلية في التدوين والكتابة والحساب ولكن لم يمض وقت طويل حتى حلت اللغة العربية محل اللغات الاجنبية وضربت النقود بالعربية بأسماء الخلفاء فتعلم اهل البلاد الاصليين اللغة العربية واسهموا بنقل العلوم اليها

ويرجع الفضل للامويين في ربط العناصر التي تألفت منها الحضارة تحت تأثير عربي وفي اعطاء هذه الحضارة المركبة شكلاً عربياً .

ولقد حكم الوليد بن عبد الملك مع ابيه [1] امبراطورية عربية امتدت من جبال البرانس الى الصين تجلى فيها الحكم بفتوحات واسعة وعمران عظيم وباشادة معاهد علمية أدت الى نهضة علمية واجتماعية كبيرة الاثر واننا الذاكرون خاصة ماله صلة بالنهضة العلمية عامة والشؤون الطبية خاصة . لقد تجلت النهضة العلمية في زمن الوليد باشادة المدارس وتعميم العلم وتيسير سبله لكل طالب في كل قطر من الاقطار التابعة لملكه وباحترامه للعلماء واعلاء مكانتهم وتشجيعهم على البحث والحرية في ابداء الرأي وكانت له عناية خاصة بالطب والنظم الاجتماعية الطبية فأوجد عدداً كبيراً من المشافي التي تعلم الطب كما أمر بمعالجة المرضى في المشافي على نفقة بيت المال وجعل الدخول اليها مباحاً لكل مريض فقيراً

---

(١) هو الخليفة الأموي السادس عهد اليه بالخلافة بين ٧٠٥ - ٧١٥ م على ايامه بلغت الامبراطورية العربية اوج عزها . انتصر قواده على البيزنطيين وبلغوا القفقاس والمغرب وصقلية واسبانية وطشقند وفتحوا الهند وبلغوا حدود الصين .

كان أم غنياً ، مواطناً أم غريباً ، وعنى عناية خاصة بالمقعدين والزمنين ولا سيما المجذومين منهم .

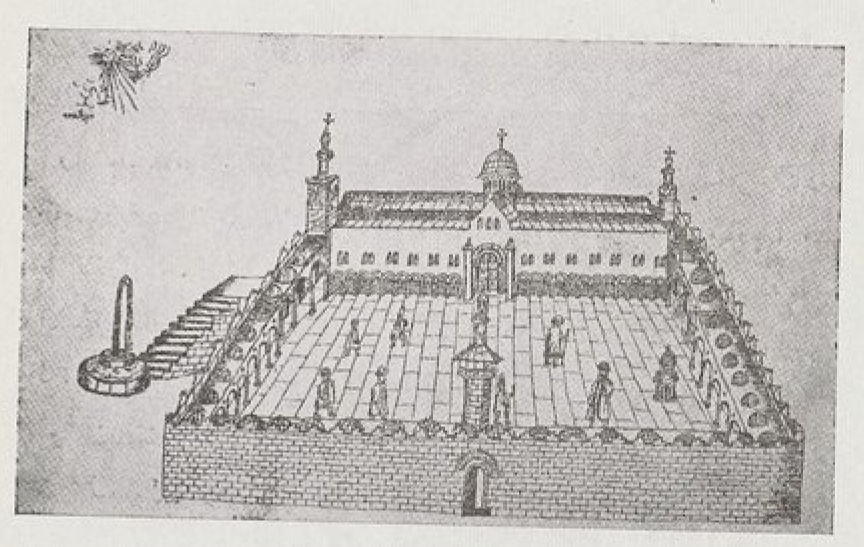
لقد خصص الوليد لكل مقعد فقير معيناً يساعده على تأمين مصالحه الحيوية واقتطع له من المال مايكفي لعيشه وكذلك عامل العميان فعين لكل منهم دليلاً يرشده الى سلوك الطرق وارتياد الاندية . ووجه عناية خاصة المجذومين فامر بانشاء دور لهم يعالجون فيها وفرز لهم نفقات من بيت المال وقطع لهم من الارزاق مايكفي حاجتهم وجعل لكل مجذوم يبدي مرضه بعض الخبث خادماً يقوم على خدمته على ان ماتمتاز به مجذمة الوليد التي اسسها في دمشق بين سنة ٧٠٥ و ٧١٥ م هي انها لم تكن كالمجاذم المعروفة في ذلك الزمن شبيهة بالسجن بل كانت قصراً منيفاً محاطاً برياض غناء يسلو بها المريض عن اصابته ويُحسن فيها اليه احساناً كبيراً [١]. وقد جرت منذ ذلك الحين عادة طريفة عند المسلمين هي تخصيص ريع من أوقافهم الى المجذومين .

وقد وقفت على المجذومين قرية كاملة من أعمال حوران هي قرية جلين . ومن الطريف أن حجج الوقف حينما تذكر المجذومين تنعتهم بالسادة المجذومين احتراماً لهم كمرضى في اجسامهم وانفسهم في حين كان ينظر الى

---

(١) على اننا اذ بينا هذه الناحية التاريخية واعتنقنا الدفاع عنها فاننا لا نجهل ما ذكرته الكتب في صدد المجذومين من الزمنى ومعالجتهم في المجاذم حيث يحدثنا بعضهم عن مجذمة صالاحون (Salahoun) في ارمينيا الغربية واشادتها من قبل الاميرة اغفيتا (Aghvita) نحو سنة ٢٦٠ و ٢٧٠ م ومجذمة سان كلو (Saint Cloud) المشادة سنة ٤٦٠ م في الجورا فاذا صح وجود هاتين المجذمتين قبل مجذمة الوليد فان معاملة المجذومين فيها لم تكن مماثلة لمعاملة مجذومي دار الجذام التي اشادها الخليفة الوليد كما ان المجذومين كانوا يجبرون على دفع تعويض عن اقامتهم من مالهم الخاص او من مال يجود به المحسنون عليهم وكان عليهم ان يستصحبوا جميع ما يحتاجون اليه من حوائج واواني . وكان يفرق فيها بين الغني والفقير فلا يلقى الفقير من العناية ما يلقاه الغني خلافاً لما كان عليه الحال في مجذمة الوليد حيث لا فرق بين اسود او ابيض وغني او فقير وغريب او مواطن . وقد اشار الى بعض ذلك كتاب عنوانه نحو الطب الاجتماعي ألفه ر. ساند René Sand .

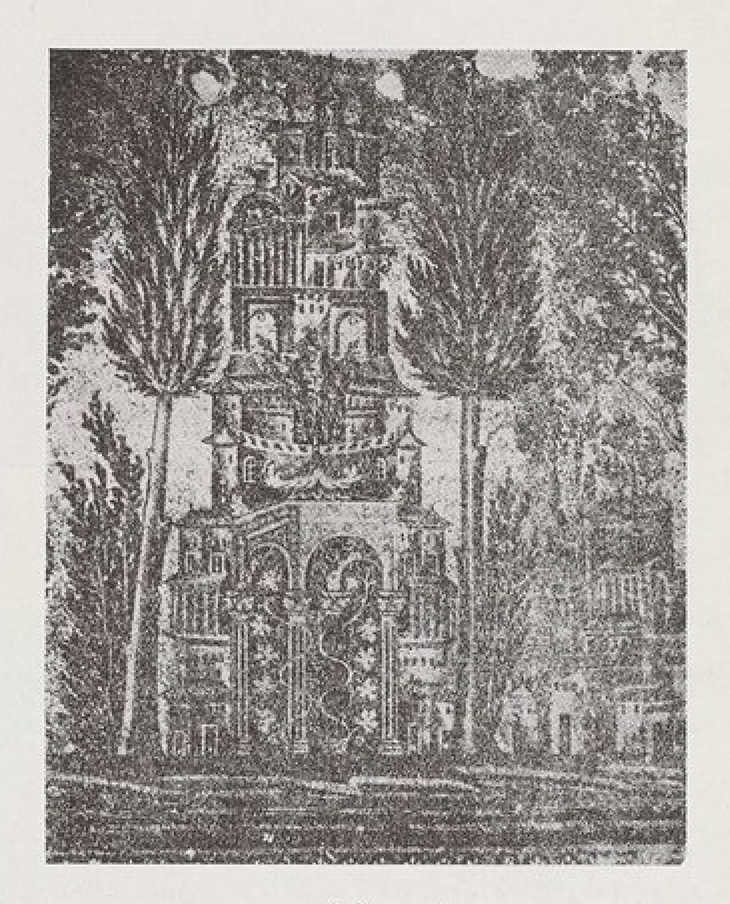
المجذوم في كثير من انحاء العلم نظرة من اصابه رجس من الشيطان لا يطهر منه الا بحرقه وكم من مجذومين أحرقوا بنتيجة ذلك الاعتقاد الخاطيء.



الشكل - (٦)
مستشفى الوليد بن عبد الملك عن الرحالة الروسي بارسكي سنة ١٧٢٨-١٧٤٤

لقد جعل الوليد من دمشق مدينة الفتنة والجمال، مدينة العلم العالي والفن الرفيع، اليها يفد الشعراء وعلى منابرها يتبارى الخطباء وفي مساجدها ودور علمها تعقد حلقات العلماء، استجلب اليها الصناع والمهندسين فبنوا اعمدة الجامع الاموي من الرخام وجملوا جدران صحنه بالفسيفساء فرسمت بها المدن ولونت الاشجار بالخضرة والصفرة والذهب وانشأ في دمشق بيت الحكمة ووضعت بيوت للكتاب يعلمون كلام العرب وفتحت مساجد وجوامع يتعلم فيها الناس ويتدارسون فسارت الثقافة والعبادة جنباً الى جنب في بيوت الله. وقد قارن كثير من الغربيين في ذلك الحين بين دمشق وروما وقارنوا بين حضارتها وحضارة غيرها من عواصم ذلك العصر في سائر الميادين، فاعترفوا بانها في طليعة الحضارة والتقدم ففيها العمارة والبناء والموسيقا والغناء، والصناعة والهندسة، والعلم والفقه

والفلسفة . كان فيها قصور رائعة منها قصر الخضراء الذي بناه معاوية كما كان فيها دور بديعة ، متعة للنظر وتحفة للسكن وصف حماد الراوية احداها فقال : انها دار قوراء مفروشة بالرخام ، وبين كل رخامتين قضيب من ذهب



الشكل - (٧)
فسيفساء الجامع الأموي بدمشق في القرن السابع

وحيطانه كذلك. تروي دور دمشق المياه ويشرف على توزيعها المهندس وهو الذي يقدر مجاري القنى حيث تحفر واقد تخيل بعض المستشرقين ان الخليفة كان يقف في

الصالحية عند سفح قاسيون ، ويرقب من عل توزيع المياه في مدينة دمشق ، ليطمئن الى ارواء العطش .

لقد شهدت دمشق [1] في زمن الامويين عصراً ذهبياً في السياسة والكياسة والعلم والثقافة والتسامح واللين والادب واللياقة .

ولم يكن عمل الوليد خاصاً بدمشق بل عممه قواده شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً في مملكته الواسعة الاطراف وبذلك يكون الوليد ذا فضل كبير على توجيه العالم نحو نظم اجتماعية طبية لم يستطع تطبيقها حتى الآن بالصورة التي طبقها الوليد بن عبد الملك في ذلك الماضي البعيد [2] .

عصر العباسيين : أطول العهود العربية واغناها استمر من سنة /١٣٢ م/ الى سنة /٦٥٦م/ ركز العرب فيها حصائل ثلاث مدنيات هي المدنيات الاغريقية ،

---

(١) تحلت دمشق بعد الفتح العربي بألوان من النشاط في جميع ميادين الحياة الاجتماعية أعجب الغربيون بها كل إعجاب وسطر شيخهم فون كرومر خير ما يسجل في هذا الكتاب كان الوليد يعطي أكياس الدراهم لتفرق على الصالحين وجعل منارات للطرق ونظم الدور والشوارع وأقام الضياع .

(٢) مصادر هذا البحث : أ – Encycpédie de l'Islam

ب – Sauvaget : Esquisse d'une histoire de Damas

ج – الاستاذ محمد كرد علي : كتاب دمشق مدينة الشعر والسحر وكتابه خطط الشام .

د – كتاب الذكرى المئوية الثانية عشر لوفاة القديس يوحنا الدمشقي الذي تضمن مقالاً عن دمشق في عهد الأمويين كتبه الدكتور سامي الدهان ومما جاء فيه: منذ فتحها تآخى في المدينة منذ القديم عنصر وعنصر وجنس وجنس . وقف على بابها الشرقي المنصور ابن سرجون وفتح ذراعيه لإخاء ابدي . واننا لنتساءل ما الذي دفعه الى تسليم المدينة الى الفاتحين العرب . إننا نرى ان دوافع النسب التي بحثنا عنها في الصفحة (٧٢) من هذا الكتاب كانت من جملة العوامل. اما عروبة المنصور بن سرجون فيقول لنا في صددها الأب يوسف نصر الله ان المنصور بن سرجون كان عربياً من عرب سوريا المسيحيين ويدلل على ذلك بأن هنالك افراداً من قبيلة إياد عرفوا باسم منصور كما ان اسم سرجيوس كان كثير الانتشار بين العرب المسيحيين وهو يميل الى الاعتقاد بأن منصوراً المذكور من أصل تغلبي (بني تغلب) .

والفارسية والسريانية بنى فيها المنصور سنة ٧٥٤ م بغداد وطالب من امبرطور الروم ان يبعث اليه بكتب الاغريق ولما تولى الخلافة هارون الرشيد رغب ورغّب في العلم وكان يحيط نفسه بسياج من العلماء واقام مكتباً بجانب كل جامع وأسس بعده المأمون دار الحكمة في بغداد واخذت تتكون المكتبات وتزخر بمختلف العلوم والفنون . ومما يجدر ذكره ان المكاتب كانت شائعة في هذا العهد ويذكر لنا ابن النديم اصطلاحاً جديداً هو مكتب العامة وربما كان هو المكتب الذي يؤمه عامة الطلاب . هندس الحروف العربية وبسطها الوزير العباسي ابن مقلة . ولقد ظهرت كلمة المدرسة في النصوص العربية في منتصف القرن الثالث الهجري وكانت اول مدرسة أنشئت في الشام وسميت بالمدرسة الصادرية سنة / ٣٥٠/هـ وقد استمر تأسيس المدارس في هذا القرن وأنشأ العباسيون في منتصف القرن الخامس سلسلة من المدارس وفي مقدمتها المدرسة النظامية في بغداد سنة /٤٥٩/ هـ ثم بوشر بتأسيس المدارس على نطاق واسع بحيث تكاد لا تخلو مدينة من مدن الدولة العباسية من مدرسة نظامية يُغدق فيها على طلبة العلم اغداقاً، ويؤمن لهم معاشهم وقد جذبت المدرسة النظامية في بغداد اليها الطلاب من جميع الاقطار كما قصدها اكابر اساتذة العالم العربي فخرّجت الفقهاء والقضاة والعمال وكتاب الدواوين للدولة . ولقد استمر تأسيس المدارس في القرن السادس وبعده فأقام الخليفة المستنصر بالله[1] سنة /٦٣٠هـ في بغداد مدرسة المستنصرية لتدريس علوم اللغة العربية والطب والصيدلة وعلوم الرياضة وألحق بها فرعاً للايتام وآخر للمكفوفين ومكتبة كبرى ومختبرات وآلات وادوات وأسست فيها دائرة الفلك لرصد الكواكب وزينت أبوابها بالساعات المبتكرة .

ويقول صاحب الحوادث الجامعة : وبنيت في أحد حيطانها دائرة، وصور فيها صورة الفلك ، وجعل فيها طاقات لها أبواب وفي الدائرة بازان من ذهب في طاستين

---

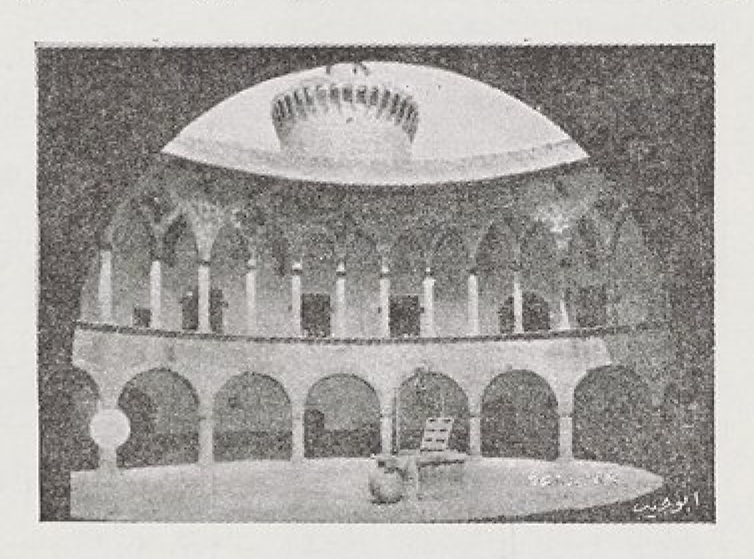
(١) هو الخليفة العباسي السادس والثلاثين ١٢٢٦ - ١٢٤٢ م . مُعطب لفي الاندلس.

من ذهب ووراءهما بندقتان . فعندمضي كل ساعة ينفتح فما البازين ، وتقع منهما البندقتان ، وكلما سقطت بندقة انفتح باب من أبواب تلك الطاقات وهو من ذهب فيصير حينئذ مفضضاً وإذا وقعت البندقتان في الطاستين تذهبان الى موضعهما ثم تطلع اقمار من ذهب في سماء لازوردية في ذلك الفلك مع طلوع الشمس الحقيقية وتدور مع دورانها وتغيب مع غيابها فاذا جاء الليل فهناك اقمار طالعة من ضوء خلفها ، كلما تكاملت ساعة تكامل ذلك الضوء في دائرة القمر ثم يبتدىء في الدائرة الاخرى إلى انقضاء الليل وطلوع الشمس فتُعلم بذلك اوقات الصلاة . واشيدت عدا المدارس الربط والزوايا والبيمارستانات .

الشكل – (٨) المدرسة المستنصرية

ويحدثنا ابن جبير الذي زار العراق وسوريا والحجاز ومصر في اواخر القرن السادس الهجري عن وجود هذه المعاهد في كل مدينة من المدن العربية التي مر بها ويغدق في الاطناب بوصفها كما يصف لنا حلقات التدريس، وداخلية الربط والبيمارستانات .

عصر الاندلسيين : كانت الاندلس [1] تضم في اواخر القرن الحادي عشر سبعين مكتبة عامة وكان في بعض المدن الرئيسية مدارس كبرى يصح تسميتها بالجامعات وفي طليعة هذه المدن قرطبة واشبيلية وطليطلة وغرناطة



الشكل-(٩) مدرسة اندلسية جامعة

ومجريط (مدريد) وكان في بعض الجامعات بيوت للطلبة على النحو المعروف في يومنا هذا باسم المدن الجامعية وقد شيدت في كثير من انحاء البلاد الاندلسية

---

(١) الأَنْدُلُس : بضم الدال وفتحها وقد جرى على الألسن ان تلزم الألف واللام وقد استعمل حذفها في الشعر من ذلك قول احدهم :

سألت القوم عن أنس فقالوا   بأندُلسٍ وأندَلسٌ بعيد

اطلق العرب هذا الاسم على شبه جزيرة ايبيريا اي اسبانيا بعد ان دخلوها وتجاوزوها حتى فرنسا حيث وقّف شارل مارتل هجومهم في بواتيه . استقلت الاندلس عن العباسيين وكونت امارة قرطبة تحت خليفة اموي هو عبد الرحمن الاول وتلاشت الامارة فعقبها دويلات حكمها ملوك الطوائف (١٠٣١) ومن بعدهم المرابطون ثم الموحدون . هزمهم الاسبان في وقعة العقاب بسبب تفرق كلمتهم سنة ١٢١٢ م وبعد ذلك انحصر سلطان العرب في مملكة غرناطة (١٢٣٦-١٤٩٢) واقصوا عنها بعد ان تفرقوا احزاباً يقاتل بعضهم بعضا .

وعلى مقربة من المدن الكبرى ضواحي خاصة بدور العلم منها طلمنكة [١].

وكان بين دوائر التدريس في جامعة قرطبة دوائر للطب والفلك والرياضيات والعلوم الدينية والشرعية وبلغ عدد الطلاب المنتسبين اليها بضعة آلاف واصبحت شهاداتها سبيلا للوصول إلى أسمى المراتب وارفع المناصب ، وكان النساء شقائق الرجال في إقتحام الحصون العلمية فاشتهر منهن في الادب والطب حتى في الفروسية عدد كبير . وقد بلغ عدد المدارس في قرطبة وحدها في خلافة الحكم المستنصر ابن عبد الرحمن الناصر ثمانون مدرسة واصبحت الاندلس في ختام القرن الحادي عشر ذات سبعين مكتبة ومدرسة كبرى جـــامعة في كل مدينة ، ومدارس متعددة في كل كورة .

وكان في غرناطة جامعة اسسها يوسف ابو الحجاج (١٣٣٣ – ١٣٥٤ م) سابع سلاطين بني نصر وقد وضعت امام المدخل في بناية هذه الجامعة تماثيل من الحجر كأنها تحرسها وكان للجامعة معاهد وفروع تدرس فيها علوم الطب والكيمياء والفلك والفلسفة والفقه والدين ، وكان يفد للتحصيل في معاهد كل من الجامعات الاندلسية طلاب من جميع الملل والنحل من كل قطر عربي أو غير

---

(١) ذهب بعض مؤلفي العرب المشهود لهم بالكفاءة الممتازة والتقصي العميق ان سلمنكة كانت تعرف بطلمنكة ايام العرب ، وقد أعددت على هذا الاساس بحثاً ليقدم في الاحتفال بمرور سبع مئة سنة على تأسيس جامعة سلمنكة غير اني كنت اشعر بنقطة ضعف في بحثي اذ من الثابت ان سلمنكة مدينة رومانية غزاها انيبال القرطاجي قبل الميلاد بمئتي سنة بينما تبدو طلمنكة من خلال التاريخ مدينة عربية لا اثر لغير العرب في احداثها كما ايد ذلك ياقوت في معجمه حيث قال : طلمنكة مدينة بالاندلس اختطها محمد بن عبد الرحمن بن الحكم ، لذلك صعب علي اقناع نفسي بأن سلمنكة هي طلمنكة نفسها . ذاكرت في هذا الموضوع المستشرق الاسباني الشهير غارسيا غومس واطلعته على ما يساورني من شك فزاد في شكي وقمنا بدراسة مشتركة تبين لنا منها ان سلمنكة وطلمنكة مدينتان مختلفتان الاولى رومانية الاصل والثانية عربية خالصة بناها العرب في ضاحية مدريد لتكون مركزاً علمياً ثقافياً ، نشأ فيها علماء عرب كثيرون ومن اشهرهم ابو عمر الطلمنكي وهي اشبه ما تكون بالمدن الجامعية اليوم ، وهكذا يكون العرب اول من فكر بانشاء المدن الجامعية ، على ان سلمنكة مازالت قائمة اليوم مشهورة بجامعتها ، واما طلمنكة فقد درست معالمها وقد تكشف الحفريات عن آثارها (مقتطفة من بحث قدمناه في سلمنكة سنة ١٩٥٤) .

عربي ، وقد جرت العادة أن تقام في الجامعة حفلات عامة وأخرى تذكارية تتلى فيها الخطب والاشعار المبتكرة يلقيها في الغالب اساتذة من الجامعة نفسها، وهناك قول مألوف كان ينقش غالياً فوق ابواب اكثر هذه المعاهد وهو : ان العالم يقوم على اربعة امور : علم الحكماء ، وعدل العظماء ، ودعاء الصلحاء ، وشجاعة الشجعان . وكان لكل جامعة خزائن عديدة من الكتب وكان لكثير من مشاهير الرجال والنساء مكتبات جامعة وقد تفردت قرطبة بانها كانت في مقدمة اسواق الكتب في الاندلس وكان اقتناء الكتب سبيل المنافسة بين



الشكل - (١٠) جامع قرطبة

الناس يتنقلون من مدينة الى مدينـــة لانتقائها أو يتهادونها كما تتهادى الجواهر النفيسة .

واشتهر بين ملوك الطوائف اصحاب اشبيلية بنو عباد بتشجيعهم العلوم والآداب والفنون فنبغ في اشبيلية عدد كبير من رجال العلم والفن.

وتعد ولاية المنصور حافلة بالابحاث العلمية والعمرانية ، ومن آثاره الرائعة في الفن المعماري البرج المعروف بالجيرالدا ، وكان منارة ومرصداً بناه المنصور عقب انتقاله إلى اشبيلية واتخاذها عاصمة ملكه سنة ١١٧٠م

واشتهر في دولة بني نصر محمد بن يوسف بن نصر ٢٣٢ هـ - ١٢٩٤ م وكان يعرف بابن الاحمر فجعل غرناطة عاصمة ملكه وكان عدد سكانها يزيد عن نصف مليون .

اشاد ابن الاحمر الحمراء كما أوجد اضافة إلى الاعمال العمرانية الاجتماعية التي حققها



الشكل -(١١) جامعة اندلسية وفيها مرصد يعرف بالجيرالدا

مشافي واقنية وحمامات وسوقاً عامة مازالت قائمة حتى اليوم تدعى القيصرية كما أوجد فيها عبد الله الوليد اسماعيل جنة الخليفة التي تعرف اليوم تحريفا بجنراليف وهي تحاكي أروع حدائق النبات اليوم .

وارتكبت في غرناطة سنة ١٤٩٩ م جريمة كبرى نحو العلم تحاكي جريمة التتر في بغداد فقد صادر كسيمه نه س الكتب العربية وجمعها اكواماً في ساحات غرناطة واشعل النار تحتها . وهكذا أفل نجم العرب عن اسبانية فبهت نور العلم وما لبث أن زال وعم الظلام وفشا الجهل ، لقد رحل العرب

عن الاندلس بعد أن بصموها ببصمات الفن العربي الخالد فعادت تواقيع أبدية تدل على عظمتهم وتكاد تصرخ في وجه الملحد بالعروبة والفن العربي قائلة: قف أيها الملحد بالعروبة فتأمل وعد عن الحادك بها . كما تنادي المؤمن بالعروبة قائلة : سر في طريق التقدم معتمداً على العلم والعمل والاخلاص وانهض من كبوتك واستيقظ من رقادك ، فالمستقبل لك متى وحد قومك كلمتهم وجمعوا شملهم [١] .

عصر الفاطميين : ٢٩٦-٥٧٦هـ (٩٠٦-١١٧١) نشأت دولتهم في شمال افريقية في اواخر القرن الثالث الهجري واستولت على مصر وسورية بعيد منتصف القرن الرابع وكان اول اعمال الفاطميين العلمية اقامة الجامع الأزهر [٢] سنة ٣٦١هـ وجعله مركزاً علمياً دينياً وقد بلغ عدد مدارس القاهرة وحدها في زمن الفاطميين عشرين مدرسة ولم يهتم الفاطميون بالناحية المادية من الحياة الاجتماعية فحسب بل وجهوا عناية كبيرة إلى رفع مستوى الناحية العلمية فنافسوا العباسيين في المشرق والأمويين في الأندلس فأسس الخليفة الحاكم بأمر الله داراً للعلم عام ١٠٠٥ للميلاد بمدينة القاهرة أفاض المقريزي في وصفها قائلا: انها جهزت بأجمل الأثاث وأفخر الرياش وشحنت بألوف الكتب ورتب لها النساخ والحبر والكاغد وقدر لها المدرسون والمعيدون وكانت تدرس فيها علوم الكلام والعروض والقانون والطب والفلك وألحق بها مكتبة واسعة جداً غنية بالمؤلفات النادرة وكانت هذه المدرسة كعبة لطلاب العلم في بلاد مصر وفي سائر الاقطار العربية

---

(١) بلغت التفرقة في غرناطة حداً جعلتهم يتقاتلون بينما كان يهاجمهم فرديناند بقواد عرب ولما فتح المدينة لم يكن فيها سوى ثلاث مائة فارس فقد افنى بعضهم بعضاً .

(٢) اصدر الرئيس السابق للجامعة الاميركية في بيروت الدكتور بايارد ضودج كتابا عن الازهر بمناسبة عيد تأسيسه الالفي في سلسلة منشورات معهد الشرق الاوسط اعطى فيه صورة واضحة عن الازهر وعن اعمال هذه المؤسسة ومما قاله : اعتبر عدد من السلاطين العناية بالازهر واجبا دينياً فتوصلوا بذلك ان يجعلوه مركزاً اسلامياً يؤمه المسلمون من جميع بلدان الشرق للتعلم والبحث عن الفتاوى في الامور العارضة .

الاسلامية وكثيراً ما اعتاد الخليفة الحاكم بأمر الله دعوة المدرسين في المدرسة لقصره للمباحثة والمناقشة بحضر منه ولا يصرفهم إلا بعد أن يغدق عليهم العطايا والهبات .

وكان في دار العلم مكتبة عامة للباحثين والعلماء وجامعة علمية للبحث والمناظرة وقد خصص للعلماء الرواتب الشهرية حتى يتفرغوا لابحاثهم. وكانت هذه المؤسسات تؤلف جزءا أساسياً من معاهد الدولة العلمية تنفق عليها وتشرف عليها إشرافاً مباشراً واشتهر أيضاً من بين هذه المعاهد معهد أحدث في طرابلس أحرقه الصليبيون في اوائل القرن السادس للهجرة ومعهد آخر أحدث في بيت المقدس أصبح فيما بعد المدرسة الصلاحية التي أسسها صلاح الدين .

وقد اتخذ الخلفاء قصورهم قاعات للمحاضرات كما جعلوا من دار العلم والجامع الأزهر قاعات لإلقاء مجالس الحكمة التأويلية وكانت تعقد ايضاً في جامع ابن طولون وجامع عمرو بن العاص ومساجد الاسكندرية ودمياط حتى في اسوان حلقات للتدريس والمناظرة .

ز عصر النوريين والايوبيين : زال الحكم الفاطمي عن الشام بغزو الصليبيين سورية في اواخر القرن الخامس الهجري واحتلالهم السواحل وبيت المقدس سنة ٤٩٢ هـ وبقي الفاطميون في مصر وكان العباسيون في العراق وايران فتقدم في هذه الفترة عماد الدين ومن بعده ولده نور الدين زنكي امير الموصل في اوائل القرن السادس نحو الشام واحتل حلب فدمشق فمصر وقضى على الدولة الفاطمية بواسطة صلاح الدين أحد قواده وخلفائه . كانت تدين الدولتان النورية والايوبية بالولاء إلى الخليفه العباسي في بغداد وقد تميز عصرهما بثلاث مؤسسات عامة تشرف الدولة عليها اشرافاً مباشراً وهي المدرسة الفقهية والبيمارستان الطبي والخانقاه المحاويين وباحداث مئات المنشئات من المدارس ودور القرآن والحديث وقد اشترك في تأسيسها رؤساء الدولة والأمراء والأميرات والفرق الصوفية والطوائف اشتراكاً فعلياً كما ساهم في التبرع لها

الجمهور ووقف عليها الأوقاف وحبست عليها الحبوس وأغدقت عليها الصدقات .
اهتم صلاح الدين بالعمران والمدارس وأدخل نموذج المدرسة الى مصر فاشتهرت مدارس القاهرة كما اشتهرت في القدس المدرسة المعروفة بالصلاحية نسبة اليه وكذلك وجدت عدة مدارس في الاسكندرية وكانت اكثر هذه المدارس تجمع بين المسجد والمدرسة واسس صلاح الدين مستشفى في القاهرة وقد انشاده على اسلوب المارستان النوري في دمشق وكان ابن طولون وكذلك كافور قد اسسا مثل هذه المستشفيات العامة . وكان في دمشق ثلاث مدارس للطب احداها الداخورية والثانية الدنيسرية والثالثة اللبودية وقد بنى الملك العادل أخو صلاح الدين المدرسة العادلية بدمشق وأكملها ابنه الملك المعظم .

وأسست في بغداد مدرسة طبية هي المستنصرية ومثلها في البصرة عرفت بالناصرية كما اسست في القاهرة مدرسة طبية أخرى عرفت بالمهذبية .

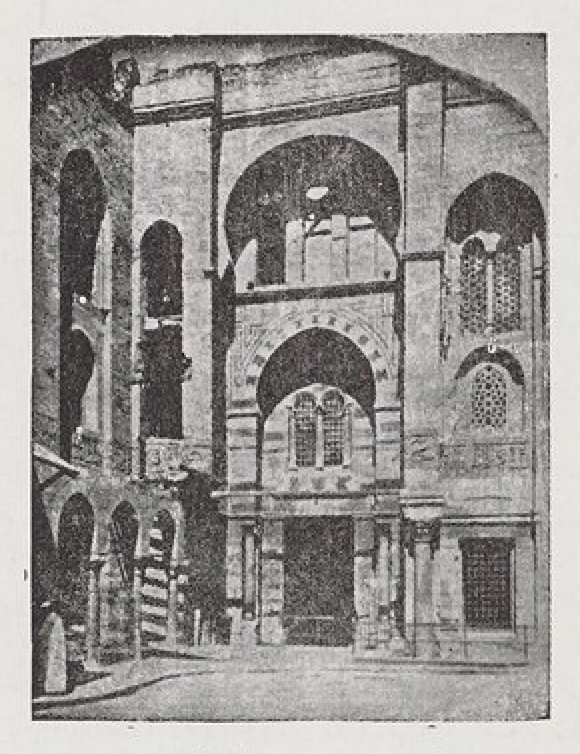
ح – **عصر المماليك** : يمتد من منتصف القرن السابع إلى أوائل القرن العاشر الهجري اي السادس عشر ميلادي . انتقلت فيه الخلافة العباسية إلى القاهرة فكثرت المدارس والمعاهد والبيمارستانات ومكاتب الايتام وحلقات التدريس حتى بلغت المئات في مصر والشام .

وكان من بين هذه المعاهد بيمارستان قلاوون في القاهرة وكان قلاوون قد عولج في بيمارستان نور الدين في دمشق فبرأ وأعجب به وباداراته ، ونذر أن يبني مارستاناً إن صار سلطاناً ، فلما تسلطن أخذ في عمل ذلك سنة ٦٨٣هـ وبنى بالقرب من المارستان مدرسة وقبة ومكتباً للايتام

---

(١) قلاوون – الملك المنصور ١٢٢٠–١٢٩٠م تسلطن على مصر ١٢٧٩–١٢٩٠م هزم في سهول حمص عسكر المغول والافرنج المتحالفين . فتح آخر ما كان من الحصون في ايدي الصليبيين ، على ايامه انتهت الحروب الصليبية ١٢٨٩ م

قال المقريزي : ولما نجزت عمارة المارستان اوقف المنصور عليه املاكا بمصر وغيرها ورتب مصارفه وقال في حفلة افتتاحه : إني اكرس هذا المستشفى للرفيع والوضيع وأقف هذا الوقف لمنفعة الملك والمملوك وللجندي والأمير وللعظيم والحقير وللحر وللعبد وللرجال والنساء[1] . وقد جاء في تولية نظر البيمارستان المذكور أقوال منها : أعد للضعفاء ، بها من مواد البر والألطاف ، ما لوتعاطته



الشكل-(١٢) صورة بيمارستان قلاوون

الاغنياء، قصر عن التطاول اليه أموالها وقصد بها النفع الى العلماء والفقراء والضعفاء، تقام معالم العلوم في أرجائها وتستعاد صحة من بها من الضعفاء باعداد الذخائر الملاطفة أسقامها ومعالجة أدوائها .

---

(١) قابل هذا بما ذكره ماك ايشرن عما يجب ان يكون عليه المستشفى في عصرنا حيث قال المستشفى مؤسسة يحصل فيها كل رجل وامراة وطفل بغض النظر عن الجنس واللون والنسب والمقام الاجتماعي على احسن العناية التي يقدمها علم الطب للمرضى والمصابين .

ط – معاهد العرب العلمية في صقلية[1]: لقد نشر العرب في صقلية لواء العدل والحرية والعلم والتسامح فازدهرت هذه الجزيرة في عهدهم ازدهاراً كبيراً وكثرت فيها المساجد وحلقات التدريس والمدارس. وملأوا عاصمتها بالرمو بالمكتبات العامة والمعاهد العلمية وبالقصور الشامخة البديعة والمباني الرائعة منها الدائرة العلمية التي كان يسميها العرب قصر العزيز وقد حرّف اسمها فصارت عزيزة - زيزة - كان عدد سكان بالرمو قبل أن فتحها العرب لا يزيد عن (٣٠٠٠) نسمة وما أن جعلها امراء المسلمين عاصمتهم وفتحوا فيها المدارس وشيدوا العمران ووطدوا أركان الأمان حتى أصبحت من أشهر المدن واكثرها سكاناً وقد تيسر لابن حوقل أن يزورها سنة ٩٧٢هـ فقال عنها أنها أجمل بلدان العالم العربي الاسلامي واكثرها

(١) فتحها رائد من رواد الفكر الاسلامي في القرن الثاني الهجري اسد بن الفرات وسمي كذلك لان مولده في حران من مدن المشرق العربي، ولكنه نشا في افريقيا وهذب في القيروان ثم رحل الى تونس حيث جامع الزيتونة وجامعته ثم رحل الى المشرق سنة ١٧٢هـ ليرضي نزعته العلمية فجلس الى مالك في المدينة وشهد حلقته ثم مضى الى العراق يستكمل حظه بالتفقه والتعلم. وكان اكثر اخذه بمصر عن ابن القاسم ثم عاد الى القيروان صاحب مذهب يسمى الاسدية فجلس للناس يؤدي حق العلم عليه فحفل مجلسه بالعلماء والمتعلمين. وقد عهد الامير ابراهيم بن الاغلب اليه مشاركته في القضاء لابي محرز الكتاني. وبعد أن قضى في القضاء ثماني سنوات اخذت تسيطر عليه رغبة قوية جارفة في ان يتقرب الى الله بالجهاد، فلما ان قرر الامير الاغلبي، غزو صقلية (سنة ٢١٢هـ و ٨٢٧م) حتى انخرط بين الغزاة وكانت سنه في ذلك الحين مشارفة على السبعين فولاه الامير الاغلبي امارة صقلية وقضاءها. وخرج على راس الجيش الزاحف الى صقلية فلما كان في سوسة ليبحر بالجيش منها، هاله ما راى من كثرة المشيعين من العلماء والوجوه ورجال الدولة وعامة الناس فكان مشهداً اثار نفسه فوقف في الناس والقى الكلمة الاتية مبيناً فيها اثر العلم في الانسان: لا اله الا الله وحده، لا شريك له، والله يا معشر الناس ما ولي لي اب ولا جد ولاية قط. وما رأى احد من سلفي مثل هذا قط، وما رايت ما ترون الا بالاقلام، فاجهدوا نفسكم واتعبوا ابدانكم في طلب العلم وتدوينه، واصبروا على شدته فانكم تنالون به الدنيا والآخرة. قاد الجيش الى النصر ووقف في وجه دعاة الهزيمة موقفاً حازماً حاسماً حين داخلتهم بعض الوساوس ثم توفي في شهر ربيع الاخر سنة ثلاث عشرة ومائتين، وبذلك ختمت سيرة هذا الرائد العامل على توسيع رقعة الايمان المتعطش للعلم، المشجع عليه وأحد زعمائه وقد تجلت فيها القوة والجراة والعزة والتصميم.

رخاء وما لبث أن زاد عدد سكانها فأصبح (٣٠٠,٠٠٠) وكان فيها من الجوامع (٣٠٠) جامع تدرس فيها العلوم بعضها رائع البناء فيه الأقواس الجميلة والفسيفساء العجيبة والنقش الدقيق وغير ذلك من آثار المدنية والفنون وتقدم العلوم وازدياد العمران . حكم صقلية ثاني عشرة دولة معظمة فكانت دولة العرب أكثرهم عمراناً تركت آثاراً رائعة لاتبيدها عاديات الزمن ولاتمحوها تتابع المحن ، تشاهد تلك الآثار في أمكنتها التاريخية العديدة كالقصر الملكي وكان مقراً لامراء المسلمين وفي كنائسها العديدة وكان اكثرها جوامع[1] .

معاهد العرب العلمية في العصر العثماني : ضاع فيه الملك العربي وفقدت اللغة العربية مكانها وأخذت المعاهد العلمية والاجتماعية العربية تضمحل شيئاً فشيئاً ماعدا الأزهر في مصر وبضع مؤسسات هنا وهناك وعفا الباقي ولم يبق منها الا الرسوم وأصبح القسم الاكبر خرائب متهدمة يمر العرب عنها اليوم فلايدرون ماهي ولايعلمون أية رسالة حملتها بل أي تراث ضخم ساهمت فيه . هذا ويحسن بنا الاشارة الى أن تراث الحضارة العربية ساهم به العرب وبرزات من نسائهم كما أسهمت به أقوام أخرى صقلتهم العروبة وطبعتهم بطابعها . هذه لمحة عامة تبين الخطوط الكبرى لتطور المعاهد العلمية والاجتماعية عند العرب لعل في ذكرها حافزاً لنا في بعثنا الجديد لقد بعث العرب اليوم من جديدوهم يدركون أن نهضتهم مرتبطة بتوحيد كلمتهم والعناية بالمعاهد العلمية والمؤسسات الثقافية والفنية ففيها يتقرر مصير الاجيال القادمة ومنها يشع نور العلم ، وسيلة البقاء وطريق الخلود .

---

(١) لقد قدر لي ان ازور بالرم سنة ١٩٣٨ فبدت لي بلداً زاهية في شاطيء البحر وقد تنضدت بروجها وقببها بشكل بديع ، حباها الله سهلا فسيحا منخفضاً تكاثفت اشجاره وتنوع نبته وازهاره يدر الخير على السكان لذلك سموه وادي الذهب . وفي افقها سلسلة جبال شاهقة وذرى ناتئة كأنها اطار احاطت به الطبيعة ذلك الوادي الجميل الذي تجري فيه المياه منسابة اليه من الجبال المحيطة به فتكسبه خصباً وجمالا حتى قيل عنه انه ابدع بقعة في الارض كان في بالرم ايام العرب عدد كبير من الحمامات وما لا يقل عن (٧٠٠٠) دكان لحام . لقد دب الخلاف بين الصقليين العرب حتى استظهر بعضهم على بعض بملوك الروم فأجلوهم عنها والغريب في الامر ان بعض ادعياء السيادة والشرف من زعمائها شمتوا بنكبتها .

الباب الثاني

حركة النقل والترجمة الى اللغة العربية

يتضمن هذا الباب فصولا وأبحاثاً نذكر فيها حركة النقل والترجمة الى اللغة العربية التي بزغ فجرها عند العرب بعد الاسلام فأشرقت شمس نهارها فأنارت العالم كله ثم أدركها المغيب فاذا الظلام البهيم يحل محل النور والنعيم. رأى العرب الترجمة رسول الفكر الى الفكر تتخطى المكان وتتحدى مرور الزمن لأنها سلك يربط بني الانسان بعضهم ببعض على اختلاف مللهم وألوانهم ونحلهم فشجعوا حركتها وأسسوا المدارس لها وكان الرسول أول من حث على تعلم الألسنة والاضطلاع بالترجمة فقد روى محمد بن عمر المدائني في كتاب القلم والدواة قول الرسول لزيد بن ثابت : أتحسن السريانية؟ قال : لا ، قال : تعلمها فتعلمها زيد [1].

الفصل الأول

السريان علومهم واسهامهم بنقل العلوم الى اللغه العربية

السريان هم بقايا الكلدان والبابليين القدماء الذين أنشأوا تمدناً ووضعوا علوماً هامة ورصدوا الكواكب واخترعوا المزاول ووضعوا أسس الطب قبل الميلاد بقرون. ولقد احتك السريان باليونان منذ عهد قديم فنقلوا علومهم وزادوا

---

(١) صبح الأعشى ج ١ ص ١٦٥ .

عليها وانكبوا على الفلسفة الاغريقية فتعلموها وعلموها وشرحوها وعلقوا عليها وكتبوا فيها .

أما اللغة السريانية فهي من أقدم لغات العالم ظلت طوال قرون عشرة لغة الأدب والدين والفلسفة وقد شرفت بأنها كانت لغة المسيح عليه السلام ولغة أحبار الكنيسة الأولى[1] .

لقد أنصف السريان عدد كبير من المستشرقين والمؤلفين والمؤرخين نذكر منهم مارتن سيرنكان الاميركي وشابو المستشرق الفرنسي وستانلي جونس المبشر الديني وجرجي زيدان المؤرخ العربي واوبلري المستشرق الاميركي وعلي مصطفى الغرابي وجميع المؤلفين العرب الذين تطرقوا لهذا الموضوع وشذ من بين الباحثين في السريان المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون فنعت لغة السريان بأنها لغة عذاب القبور وتهاليل القيامة والحقيقة التي لا مرية فيها ، ان السريان الذين قضوا على تراثهم الوثني حباً بالدين لم يكفوا عن العمل لدنياهم وقد تطرقوا في لغتهم الى سائر علوم العصر كالفلك والطب والهندسة والرياضيات وغيرها ولكنهم بالغوا أخيراً في العمل لآخرتهم وفي حبهم لله وابتعدوا عن الحكمة القائلة اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً.

لقد أسهم السريان بنقل علوم الأمم السابقة الى العرب اسهاماً كبيراً فكانت لهم مدارس فيما بين النهرين والبلاد المجاورة[2] يعتبرها بعض أعلام الفكر المهد

---

(١) راجع للتوسع في هذا الموضوع مقال الاستاذ توما الخوري عن دور اللغة السريانية في الادب والفلسفة والدين المنشور ما بين الصفحة (٤٠٨) و (٤٦٣) في العدد العاشر من المجلة البطريركية الصادر في ايار /١٩٦٣/ .

(٢) كان يقطن هذه المنطقة عرب الغساسنة المسيحيين الذين كانوا على مذهب السريان وكان ملكهم المنذر ابن الحارث حامي السريان محالفا للروم خدمهم في مواقف عديدة كافئوه عليها بالتآمر عليه ومحاولة قتله وفعلوا مثل ذلك بابنه وخليفته النعمان وذلك ليتسنى لهم تفريق كلمة مسيحيي العرب السريان وتمزيق شملهم راجع للتوسع المجلة البطريركية عدد كانون الثاني سنة ١٩٦٣ ص ٢٥٤ .

الأول للثقافة العالمية . واشتهرت من مدن هذه البلاد بين القرن الثالث والخامس مدينة الرها[1] حتى اعتبرت عاصمة الثقافة والأدب والحضارة فسميت اثيناسوريا كما اشتهرت مدينة حران[2] وكان يدرس فيها علماء أعلام نقلوا الى السريانية كتب الفلسفة والحكمة والطب وعلوم اخرى من اللغةاليونانية وغيرهاوأخذوا يعلمونها في مدارسهم كما أنشأوا على ضفة الفرات الشرقيـــةحوالي سنة ٥٣٠م دير قنسرين[3] فجعلوه مركزاً هاماً لتعليم اللغتين اليونانية والسريانية والعلوم الفلسفية . ويقدربعض الباحثين عددالمدارس التي كانت مابين النهرين بنحو خمسين

(١) الرها هي اورفا urfa فتحها العرب سنة /٦٣٩ م جاء عنها في معجم البلدان .
الرهاء : بضم اوله والمد والقصر مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام سميت باسم الذي استحدثها الرهاء بن البكندي بن مالك بن وعر بن حجربن جزيلة بن لخم وقال عنها يحيى بن جرير النصراني اسمها بالرومية أذاسا Edessa والنسبة اليها رهاوي‌اشهر اساتذتها القديس افرام السرياني وربولا الاسقف ومن بعدها خضعت لتعاليم النساطرة .

(٢) حران بتشديدالراء وآخره نون : قيل سميت‌بـ هاران اخي ابراهيم عليه السلام لأنه اول من بناها فعربت فقيل حران . وذكر قوم انها اول مدينة بنيت على الارض‌بعدالطوفان سكنها الصابئة من اهل الكتاب وهم الحرانيون وفيها يقول سديف بن ميمون :

قد كنت احسبني جلداً فضعضعني ... قبر بحران فيه عصمة الدين

يريد ابراهيم بن الامام محمد بن علي بن عباس فتحت في ايام عمر بن الخطاب على يد عياض بن غنم نزل عليهاسنة ٦٣٩ قبل الرها فخرج اليه مقدموها فقالوا له ليس بنا امتناع عليكم ولكنا نسألكم ان تمضوا الى الرها فعلينا مثل ما عليهم فأجابهم‌عياض الى ذلك ،ينسب اليها جماعة كثيرة من اهل العلم ولها تاريخ علمي مجيد وتعد هذه المدينة احدى مدن الجزيرة (جزيرة اقور) وسميت كذلك لأنها بين دجلة والفرات وتشتمل على ديار مضر وديار بكر ومن امهات مدنها حران والرها والرقة وراس عين ونصيبين وسنجار وماردين وميافارقين والموصل وغيرها وقد صنف لأهلها تواريخ وخرج منها الأئمة في كل فن .

(٣) قنسرين قديماً مدينة في سورية الشمالية كانت احد الاجناد التي قسمت اليها البلاد التي فتحها العرب في القرن السابع للميلاد وكان فيها دير ومدرسة انجبت عددا عديداً من جهابذة الفكر وفحول العلماء اشهرهم مارساويرا سابوخت‌النصيبيني مطران قنسرين المتوفي سنة ٦٦٧ الملقب بساويرا الرياضي لانه كان اول علماء الكنيسة الذين استجلوا غوامض العلوم الفلكية والطبية والرياضية حتى بذ في الفلك علوم اليونان .

مدرسة كما كان في الاديرة السريانية كثير من الكتب المترجمة عن فحول العلماء والفلاسفة وكانت الأديرة في كثير من الاحيان مراكز تدريس واستشفاء .

ولقد أدت الفتوحات الاسلامية في عهد عمر رضي الله عنه الى اتصال العرب بهؤلاء السريان من السوريين والاطلاع على مدارسهم فوجد العرب المسلمون فيها ما يرضي نهمهم الشديد الى العلم فأكرموا السريان وتركوا مدارسهم قائمة في انطاكية وحران ونصيبين وغيرها من المدن والبلدان اكراماً للعلم وحفظاً لأمهات الكتب الفلسفية والعلمية التي كانت بين ايديهم وعدد كبير منها من تأليفهم ومعظمها منقول من اليونانية الى السريانية[1] . ولقد أحب هؤلاء النصارى السريان الاسلام والمسلمين حباً جمـاً لما تحلوا به من التسامح الديني والمبالغة في اكرام العلماء واحترام رجاله فبادلوهم الاخلاص والولاء وتعلقوا بهم حتى اعتبروا عمر بن الخطاب مخلصهم[2] ومنقذهم من حكم الروم واضطهادهم وقد استفاد الامويون ولاسيما العباسيون من مدارس السريان وعلمائهم فوائد عظمى فعهدوا اليهم بترجمة الكتب من السريانية الى العربية أو من اليونانية الى العربية وكانت الترجمة السريانية في كثير من الحالات حرفية ثم تصرف المترجمون في النقل دون أن يضيعوا المعنى الأصيل فلم يدع السريان كتاباً في الحكمة إلا عربوه . لقد أدى فتح العرب لسورية وهي على ما هي عليه من حضارة رفيعة الى

---

(١) سمي العلم الذي حفظ في هذه البلاد بعلم حوض البحر الابيض المتوسط وهو علم كان نموه عاملا على تحقيق نشأة العلم العالمي الحديث وهو يشمل حضارات مصر وما بين النهرين والاغريق والرومان وليس هو كما يزعم الكثيرون علماً منقولاً عن اليونان لا اقل ولا اكثر

(٢) جاء في الصفحة ١٣٤ من العدد التاسع الصادر من المجلة البطريركية في ٩ نيسان من سنة ١٩٦٣ في آخر مقال كتبه قداسة البابا مار اغناطيوس يعقوب الثالث بعنوان اثر السريانية في الثقافة العربية قوله : وقد اثرت السريانية في اللغة العربية تأثيراً بليغاً بفرضها عليها بضع مئات من الفاظها ولا سيما المعاني الاصطلاحية والعبارات العلمية ، بعد ان صقلت بما يلائم قواعد العربية فجرت على يراع الكتاب الثقات وادخلت المعاجم العربية ومنها لفظة فاروق الخاص والمنقذ التي اطلقها السريان على عمر بن الخطاب لانه خلصهم من حكم الروم .

اتصالهم لا بعلوم السوريين الاصلية فحسب بل علوم الحضارة الاغريقية التي نقلها الى سورية السريان وزاولوها واعليها نخص بالذكر منهم: سرجيوس من مدينة رأس العين، الذي عاش في القرن الذي سبق ظهور الاسلام وتوفي سنة ٥٣٦ بالقسطنطينية وقد ترجم عدداً من كتب جالينوس وكتباً كثيرة في الفلاحة وكتباً أخرى لارسطاطاليس وفرفوريوس وغيرهما من علماء الاغريق. ولكن هذا النشاط العلمي ساهمت به أيضاً فرق مسيحية اضطرت أن تبتعد عن الدولة الرومانية الشرقية التي كانت تضطهدها فوجدت ملاذاً لها في دولة الفرس الساسانيين حيث استطاعت مواصلة عملها خلال الفتح الاسلامي. وكانت المرتبة الاولى في الترجمة للنساطرة فهم الذين أسسوا مدرسة طبية في الرها بعد هجرتهم الاولى الى المشرق. ولما أغلق القيصر زينون هذه المدرسة سنة ٤٨٩م، ظلوا يبحثون زماناً طويلاً عن مأوى لهم في بلاد مابين النهرين. وبعد قليل من التطواف تأسست في نصيبين مدرسة فلسفية وطبية، احتفظت في بعض جوانبها بالطابع الاغريقي، ثم نقلت هذه المدرسة أخيراً الى جند يسابور في الجنوب الشرقي من فارس. وازدهرت هذه المدرسة، التي تعاون فيها كثير من العلماء حتى الذين ينتمون الى فرق مختلفة وأوطان متباينة. فاضافوا الى ترجمة المصنفات اليونانية ترجمة كتب اخرى من لغات شرقية عديدة، وقد شجع العرب الفاتحون هذا النشاط المزدوج فتابع نموه وازدهاره بصورة باهرة الى عدة قرون بعد ذلك. ويحسن بنا هنا أن نذكر اسمي عالمين سوريين كانا يعيشان في بلاد مابين النهرين وهما الاسقف جورجيوس الذي نصبه العرب المسيحيون أسقفاً في بلاد مابين النهرين سنة ٦٨٦م وتوفي سنة ٧٢٤م لقد ترجم الى السريانية كتاب اورجانون لارسطاطاليس وشرحه ونظم قصيدة في التقويم. ثم الاسقف سويروس سابوخت من مدينة نصيبين وكان أسقف مدينة قنسرين بأعالي الفرات وقد ترجم الى السريانية وشرح في النصف الثاني من القرن السابع كتاب التحاليل لارسطاطاليس وصنف رسائل في الفلك والجغرافية.

الفصل الثاني

حركة النقل و التأليف عند الامويين

عني الامويون بنقل العلوم القديمة أخص بالذكر منها علوم اليونان الى اللغة العربية بواسطة العلماء السريان وقد اشتهر من هؤلاء في العصر الاموي يعقوب[1] الرهاوي ويؤثر عنه أنه أفتى رجال الدين النصارى بتعليم أولاد المسلمين التعليم الراقي[2]. ان لهذه الفتوى في زمنها شأناً كبيراً فقد كانت العلوم وقفاً على الكهان لايبوحون بها الا لمن اتبع دينهم وسلك سبيلهم. وقد نتج من امتزاج الأمويين بغيرهم من الامم ولا سيما السريان واعتمادهم عليهم ان تشعبت في المملكة العربية الاسلامية المعرفة وتزاوجت العقول المختلفة كما تزاوجت الاجناس المختلفة فنتج من هذا التزاوج الثقافة العربية. خدم السريانيون العلوم بما ترجموا وما ألفوا وظهر في هذا العصر كثير من العلماء وكان أكثرهم فلاسفة وأطباء معا لأن دراستهم الطبية لم تكن منفصلة عن دراستهم الفلسفية.

وهكذا طرأ على الأدب والعلوم في العصر الاموي تبدل سببه استفادة العرب من فتوحهم ووقوفهم على آثار المدنيات لامم ذات حظ من العلوم غير قليل، ولقد كان لكتاب الله، المعجز بآياته وسحر بلاغته، أثره في فتق أذهانهم وصقل عباراتهم وتوحيد لهجاتهم كما كان للحديث الشريف وتحريضه على طلب العلم أثره البالغ فيهم كما بينا ذلك في بحث سابق. وهكذا عني الامويون بالعلوم فأجازوا

---

(١) اسقف الرها ٦٨٤ـ٦٨٨ م : انصرف الى التأليف . اعاد النظر في ترجمة الكتاب المقدس وفي تتمة تواريخ اوسابيوس القيصري .

(٢) اكد ذلك الاستاذ توما الخوري في مقال نشره في عدد المجلة البطريركية العاشر الصادر في شهر مايس ١٩٦٣ ص ٤٦٣ .

ترجمة كتبها العلمية كالصنعة والطب والنجوم وتمت أول ترجمة في عهد الخليفة مروان بن الحكم بين سنتي ٦٤ و ٦٥ هـ فترجم بأمره ماسرجويه الطبيب البصري السرياني الموسوعة الطبية[١] تأليف القس اهرن[٢] بن أعين الاسكندراني وهي كناش في ثلاثين مقالة أضاف اليها ماسرجيس - ماسرجويه - مقالتين . وجد عمر بن عبد العزيز هذا الكتاب المترجم في خزائن الكتب فاستخار الله في اخراجه الى المسلمين للانتفاع به فلما تم له في ذلك أربعين صباحاً أخرجه الى الناس وبثه في أيديهم . لقد أورد هذه الحكاية مولى الخليفة عمر بن عبد العزيز وهي حكاية لها قيمة كبرى فى تاريخ العلم لأنها تدل على قدم الترجمة عند العرب وعلى وجود خزائن للكتب في صدر الدولة الاسلامية . وكانت هذه الترجمة سهلة لان اللغتين متشابهتان في الألفاظ والقواعد ، نستنتج من ذلك أن ماذكره ابن أبي اصيبعة في كتابه طبقات الاطباء عن الكتاب المذكور يقصد به نشر الكتاب بين الناس لا ترجمته فالترجمة أقدم عهداً من وضع نسخ الكتاب بين ايدي الناس وعلى هذا يكون أول نقل من اللغة اليونانية الى اللغة العربية قد تم في عهد مروان بن الحكم وأن نشر الكتاب المذكور تم في عهد عمر بن عبد العزيز . وكان في الاسكندرية فيلسوف مسيحي اسمه أدفر ، كان شغوفاً بعلم الكيمياء ، وتتلمذ عليه شاب روماني اسمه مورينوس وتعلم منه صناعة الكيمياء ثم أخذ الأمير خالد بن يزيد المتوفي سنة ٨٥ هـ علم الكيمياء عن مورينوس المذكور وألف الامير فيها كتباً ورسائل . ويظن لوكلرك[٣] أن أدفر هذا هو ابن أبجر الذي تولى التدريس في مدرسة الاسكندرية قبل الفتح الاسلامي .

ويبدو أن الطب كان متقدما في عهد عمر بن عبد العزيز الذي استمرت خلافته مابين (٩٩ و ١٠١)هـ وأنه كان يستطب ابن أبجر ويبعث اليه بمائه ، وقد اختلف في ابن أبجر وقيل أنه من بني أبجر الذين ينتسبون الى بني فراس

---

(١) Panadecta medicina .

(٢) Aaron d'-Alexandria .

(٣) Leclerc .

من كنانة وأنهم كانوا أطباء في الكوفة وقيل فيه أيضاً أنه من علماء الاسكندرية وحضر فتح العرب لها سنة ١٩هـ ومات سنة ٦١هـ . ويبدو للباحث أن التوفيق بين الروايتين غير ممكن لذلك يفترض بعض البحاثين ومنهم مايرهوف[1] أننا أمام طبيبين مختلفين مع أنهما سميان . ويعتبر في كل حال الامير أبو هاشم خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان أول من ألف بالعربية كتاباً في العلوم كان من أوائل المصنفات في الكيمياء وله ديوان في النجوم . كان هذا الامير خطيباً شاعراً وفصيحاً جامعاً جيد الرأي كثير الادب مولعاً بالعلوم ولذا سموه حكيم آل عمران ، وكان من أوائل من بدأ بترجمة المؤلفات اليونانية إذ أمر باحضار جماعة من فلاسفة اليونان ، ممن كان ينزل مدينة مصر وقد تفصح بالعربية ، وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي الى العربي .

قال الزبير بن مصعب : كان خالد بن يزيد بن معاوية موصوفاً بالعلم حكيما شاعراً . وقيل عنه : قد علم علم العرب والعجم ، وكان خالد شجاعا جريئا وكان بينه وبين عبد الملك بن مروان مناظرات ، تهدده مرة عبد الملك بالسطو والحرمان فقال له : أتهددني ويد الله فوقك مانعة ، وعطاؤه دونك مبذول ؟ وقيل لخالد : ما أقرب شيء ؟ قال : الاجل . قيل : فما أرجى شيء ؟ قال : العمل . قيل : فما أوحش شيء؟ قال : الميت قيل : فما آنس شيء ؟ قال : الصاحب المؤاتي . وقيل له : ما الدنيا؟ قال : ميراث . قيل : فالايام ؟ قال : دول . قيل : فالدهر؟ قال: اطباق والموت يكمل سبيله ، فليحذر العزيز الذل والغني الفقر ، فكم عزيز قد ذل ، وكم من غني قد افتقر . وقال : اذا كان الرجل مماريا لجوجا معجبا برأيه فقد تمت خسارته . وترجم له أيضا الصفدي في كتاب الوافي بالوفيات فقال عنه أنه كان من أعلم قريش بفنون العلم وله كلام في صناعة الكيمياء والطب وكان بصيراً بهذين العلمين متقنا لهما وله رسائل دالة على معرفته وبراعته وأخذ الكيمياء عن مريانس الراهب الرومي وله فيها ثلاث

---

(١) Mayerhoyff.

وسائل تضمنت احداهاماجرى له مع مريانيس وصورة تعلمه الرموز التي أشار اليها . وله أشعار كثيرة ومطولات ومقاطيع . ومما نسبوا اليه من التصانيف في الكيمياء : السر البديع في فك الرمز المنيع ، وكتاب الفردوس ورسائل أخرى . توفي خالد بن يزيد سنة تسعين ، وقيل سنة خمس وثمانين ، وشهده الوليد بن عبد الملك وقال : ليلق بنو أمية الأردية على خالد فلن يتحسروا على مثله أبداً[1] .

وأما دواوين الأموال فانها كانت بعد ظهور الاسلام بمصر والشام والعراق على ما كانت عليه قبل الاسلام ، فكان ديوان مصر بالقبطية ، وكان ديوان الشام بالرومية لأنه كان من ممالك الروم ، وكان ديوان العراق بالفارسية لانه كان من ممالك الفرس ، فلم يزل أمرها جارياً على ذلك الى أن نقل ديوان مصر من القبطية الى العربية في إمارة عبد العزيز بن مروان على مصر[2] كما نقل ديوان الشام من الرومية الى العربية في سنة احدى وثمانين من الهجرة ، وكان سبب نقله ـ على ماحكاه المدائني ـ ان بعض كتاب الروم في ديوانه أراد ماء لدواته ، فبال في الدواة ، فبلغه ذلك فأدّبه ، وأمر سليمان بن سعد أن ينقل الديوان الى العربية ، فسأله أن يعينه بخراج الأردن[3] سنة ، ففعل وولاه الاردن وكان خراجه مائة ألف وثمانين الف دينار ، فلم تنقض السنة حتى فرغ من الديوان ونقله ، وأتى به عبد الملك فدعى مرجون[4] كاتبه فعرضه عليه فغمّه وخرج

---

(١) ويجدر بنا ان ننبه الى ان لخالد بن يزيد الاموي سميا في قرطبة الاندلس كان بارعا في الطب ، ناهضا في زمانه فيه وكان صانعا بيده . وظهرت منه في البلد منافع واعقب ولدا اسماه يزيد ، ولم يبرع في الطب براعة ابيه .

(٢) صبح الاعشى ج ١ ص ٢٣ ؛ .

(٣) الاردن بضم الهمزة وتشديد النون : الاردن في الاصل كورة واسعة ،منها الغور وطبريا وصور وعكا وما بين ذلك .

(٤) كذا فيتاريخ الطبري قسم ٢ ص ٨٣٧ طبع ليدن، والذي في الاصل «سرحون» بالحاء المهملة .

كثيباً ، فلقيه قوم من كتاب الروم ، فقال لهم : اطلبوا المعيشة من غير هذه الصناعة فقد قطعها الله عنكم .

وأما ديوان العراق فكان سبب نقله الى العربية أن كاتب الحجاج بن يوسف كان زاذان فرّوخ[1] وكان معه صالح بن عبد الرحمن يكتب بين يديه بالعربية والفارسية ، فأوصله زاذان فروخ الى الحجاج ، فخف على قلبه ، فقال صالح لزاذان فروخ ان الحجاج قد قربني ولا آمن أن يقدمني عليك ، فقال : لاتظن ذلك فهو إلي أحوج مني اليه ، لانه لايجد من يكفيه حسابه غيري ، فقال له صالح والله لوشئت أن أحول الحساب الى العربية لفعلت ، قال : فحول منه ورقة أو سطراً حتى أرى ، ففعل . ثم قتل زاذان فروخ في حرب عبد الرحمن بن الاشعث[2] ، فاستخلف الحجاج صالحاً مكانه ، فذكر له ماجرى بينه وبين زاذان فروخ فأمره أن ينقله ، فأجابه الى ذلك وأجّله فيه أجلاً حتى نقله الى العربية ، فلما عرف مَردانشاه بن زاذان فرّوخ ذلك بذل له مائة ألف درهم ليظهر للحجاج العجز عنه ، فلم يفعل ، فقال له : قطع الله أصلك من الدنيا كما قطعت أصل الفارسية .

وكان عبد الحميد[3] بن يحي كاتب مروان آخر خلفاء بني امية يقول فيه : لله در صالح ما أعظم منته على الكتّاب ! .

هذا ماحكي في ابتداء نقل الدواوين .

---

(١) كذا في مقدمة ابن خلدون ص ١١٩ طبع بولاق وتاريخ الطبري قسم ٢ ص ٤٥٨ طبع ليدن ، والذي في الاصل : « زاذا بفروخ » ، وهو تحريف .

(٢) عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث : سيره الحجاج بالجيش الى سجستان واهانه بالكلام فانقلب عبد الرحمن بالثورة على الحجاج (٧٠٠ م) وحالف عليه رتبيل ملك كابلستان ، لكنه انكسر في وقعة دير الجماجم ورمى نفسه من مشارف حصن فات .

(٣) شامي الأصل ، علم الصبية ثم صار كاتباً لمروان الجعدي آخر الأمويين فخلص له اشتهر باسلوبه الادبي في المراسلة وبلغته المتينة . من اشهر كتبه : رسالة الى الكتاب .

الفصل الثالث

العباسيون وحركة النقل العلمية

عنى العباسيون بالعلوم عناية بالغة فقد مال عدد من الخلفاء في العصور العباسية الى العلوم فاندفع الناس الى تحصيلها واقتناء كتبها . اقتبس العباسيون العلوم عن الفرس والهنود ولاسيما عن اليونان بواسطة تراجمة كثيرون معظمهم من السريان وبعضهم من الهنود ، وكان عصر هارون الرشيد عصر العرب الذهبي فأصبحت بغداد عاصمة العالم في الثقافة والسياسة والاقتصاد .

لقد نشط الخليفة الرشيد العلوم بجميع الوسائل خاصة الطب فكان عنده من يطب له على طريقة اليونان والهنود والفرس والكلدان .

ينسب بعضهم ترجمة الكتب اليونانية في عهد المأمون الى رؤيا رآها المأمون أو نحو ذلك فقد ذكر ابن أبي اصيبعة أن المأمون رأى في منامه شيخاً بهي الشكل جالساً على منبر وهو يخطب ويقول: أنا أرسطاطاليس[1] فانتبه من منامه

---

(١) ارسطا طاليس المجذوني . المقدوني . من بلد مجذونية . مقدونية . فيلسوف الروم وعالمها وجهبذها وتحريرها وخطيبها وطبيبها تكلم في الطب وغلب عليه علم الفلسفة وكان معلم الاسكندر ، وله اليه رسائل عجيبة ، منها رسالة اليه حين افتتح ارض فارس وبعث اليه يقول له : ايها العالم الفاضل ، اني وجدت بارض فارس ، قوما ، لهم عقول راجحة واحلام ، وقد اعتزمت على قتل جميعهم ، فما رأيك في ذلك ؟ فجاوبه ارسطاطاليس : ان كنت مقدما على قتل جميعهم ، وقادراً على ذلك فيهم ، فلست بقادر على قتل بلادهم ، ولا تغير هوائهم ومائهم ، فاملكهم بالاحسان اليهم ، تظفر بالمحبة منهم والسلام ، فقبل الاسكندر وصية ، وسار على هديها ، فكانت الفرس اطوع امة دانت له ، وله كلمات ، جامعات فلسفية سياسية وهي العالم بستان ، سياجه الدولة ، الدولة سلطان تحيا به السنة ، السنة سياسة يسوسها الملك ، الملك راع ، يعضده الجيش ، الجيش اعوان ، يكفلهم المال ، المال رزق تجمعه الرعية ، ويتعبدهم العدل ، وهو صلاح العالم .

وسأل عن ارسطاطاليس فقيل له : رجل حكيم من اليونان فأحضر حنين ابن اسحاق وأمره بتأسيس مدرسة للترجمة ، اذ لم يجد من يضاهيه في نقله وسأله نقل كتب الحكماء اليونانيين الى اللغة العربية وبذل له من الاموال والعطايا شيئاً كثيراً . ان هذه القصة لا يصح ان تكون السبب الرئيسي لما عمله المأمون من أجل العلم على انها تبين في كل حال رغبة الخلفاء العباسيين في التوسع العلمي ونقل كل ما كان معروفاً من علوم الاولين ، ودليلنا على ذلك ان حركة الترجمة بدأت قبل عهد المأمون وقصة رؤياه ان صحت دلتنا على ان الحلم كان انعكاس صورة طبيعية لما كان يفكر فيه المأمون في اليقظة . وقيل ان المأمون بعث الى حاكم صقلية ان يبادر بان يرسل مكتبة صقلية الشهيرة الغنية بكتبها الفلسفية والعلمية الكثيرة وان الحاكم تردد في ارسالها وكان بين الضن بها والحرص عليها والتخوف من المأمون ، ومن اجل ذلك جمع كبار رجالات الدولة وادلى اليهم بطلب المأمون فرأوا الاذعان اليه . واتحف المنصور ملوك الروم بالهدايا الثمينة وسألهم صلته بما لديهم من كتب الحكماء والفلاسفة فاستجاد لها مهرة التراجمة وكلفهم إحكام ترجمتها ثم حض الناس على قراءتها ورغبهم في تعلمها فنفقت سوق العلم في زمانه وقامت دولة الحكمة في عصره وتنافس أولو النباهة في العلوم لما كانوا يرون في إحظائه لمنتحليها ، فكان يخلو بهم ويأنس بمناظرتهم فينالون عنده المنازل الرفيعة والمراتب السنية حتى صارت الدولة العباسية تضاهي الدولة الرومية ايام اكتمالها وزمان اجتماع شملها . ويمكن القول بصورة عامة ان الترجمة كانت في العهد العباسي عمل دولة وافراد فقد زاد عدد التراجم عن المئة وقد تخصصت بعض الاسر باعمال النقل كما اقيمت مدارس خاصة لتعليم المترجمين واصلاح ما يترجمونه .

البحث الأول

مدارس الترجمة في العصر العباسي

لقد وجدت مدارس تخصصت بالترجمة في العهد العباسي رعى عدداً منها الافراد واشرفت على بعضها الدولة اشرافاً مباشراً وعهدت بادارة احداها الى حنين بن اسحاق .

وكان من ابرز رجال ذلك العصر الذين اقتدوا بالخلفاء في تشجيع النقل في مدارسهم الخاصة الأبناء الثلاثة لموسى بن شاكر ،الذين كانوا هم انفسهم رياضيين فلكيين وهم ابو جعفر محمد المتوفي سنة ٨٧٣ م والحسن والاحمد والأولان عنيا بالهندسة على الاخص وعني الاخير بعلم الحيل ـ الميكانيك ـ على انه من العسير تمييز الآثار الخاصة بكل من الثلاثة المذكورين . واشتغلوا ايضاً بالارصاد الفلكية وحل مشكلات الهندسة العلمية واسسوا كذلك في قصرهم ببغداد موصداً يزاولون فيه اعمال الرصد بانتظام ووضعوا في كتاب الحيل كثيراً من الآلات الموسيقية الذاتية كالناي وكانوا الى جانب ذلك حماة للعلوم والمترجمين الذين جعلوهم في خدمتهم . وكان من المشجعين على الترجمة والعاملين في حقلها.

علي بن يحيى المعروف باسم المنجم : احد كتاب المأمون

محمد بن موسى ابن عبد الملك وقد نقلت له كتب طبية وكان من الفضلاء .

عيسى بن يونس الكاتب الحاسب : وهو من جملة الفضلاء بالعراق وكان كثير العناية بتحصيل الكتب القديمة والعلوم اليونانية .

علي المعروف بالفيوم : اشتهر باسم المدنية التي كان عاملها .

احمد بن محمد المعروف بالمدبر : كان يصل الى النقلة من افضاله شيء كثير

ابراهيم بن محمد موسى الكاتب : كان حريصاً على نقل كتب اليونانيين الى العربية ومشتملا على اهل العلم والفضل وعلى النقلة خاصة .

محمد بن عبد الملك الزيات : كان يقارب عطاؤه للنقلة والنساخ في كل شهر الفي دينار وترجمت باسمه جماعة من اكابر الاطباء .

ولقد اشتهر من التراجمة : **آل بختيشوع** : منهم :

جورجس بن جبريل بن بختيشوع المتوفى سنة ٧٧١م وكان من اوائل مترجمي الكتب الطبية بأمر الخليفة . التحق بعض الوقت بسدة المنصور .

جبريل بختيشوع المتوفى سنة ٨٠٠ م وهو اشهر اعضاء هـذه الاسرة التي اشتهرت بالطب في بغداد فتوارث افرادها صناعة الطب خلفاً عن سلف ثلاثة قرون فنفعوا الخلفاء وغيرهم بطبهم كما نفعوا الطب وغـير الطب من العلوم بآثارهم ونقلهم العلوم ولا سيما الطبية منها الى العربية ويقال ان حظية الرشيد تمطت ذات يوم ورفعت يدها فبقيت مبسوطة والاطباء يعالجونهـا بالتمريخ والادهان دون جدوى فاشار جعفر على الرشيد بان يعهد الى جبريل المذكور بالعناية بها فاحضره وشرح له حـال الصبية فقال جبريل ان لم يسخط علي امير المؤمنين فلها عندي حيلة . استدعيت الجارية وما ان رآها جبريل حتى اسرع اليها ونكس رأسها فانزعجت الجارية واسترسلت اعضاؤها وبسطت يدها الى اسفل ومسكت ذيلها فقال جبريل لقد برئت يا امير المؤمنين فقـال الرشيد للجارية ابسطي يدك يمنة ويسرة ففعلت فسر الرشيد واعجب بجبريل .

عمر بن فرخان الطبري : عده الجاحظ بين حذاق التراجمـة . قال عنه القاضي الطيطلي هو احد رؤساء التراجمة والمحققين توفي حوالي ٨١٥ م .

ايوب الرهاوي الأبرشي : عمل تراجم كثيرة من اليونانية الى السريانية ومن بينها تبعاً لحنين بن اسحاق خمسة وثلاثون كتاباً لجالينوس وله كتاب الكنوز بالسريانية وهو دائرة المعارف للعلوم الاسلامية كما كانت تعلم ببغداد نحو سنة ٨١٧ م .

الحجاج يوسف بن مطر : عاش ببغداد بين سنة ٧٨٦ و ٨٣٣م وهو اول من ترجم كتاب بطليموس الكبير في الفلك باسم المجسطي .

هلال الحمصي : هو عبد المسيح بن عبد الله بن ناعمه الحمصي كان صحيح النقل توفي حوالي سنة ٨٣٣ م ترجم اربعة اجزاء من كتاب المخروطيات لابولونيوس .

آل ماسويه : اشتهر منهم :

ابو زكريا يوحنا بن ماسويه : توفي سنة ٨٥٧ م وكان سريانياً نسطورياً من مدرسة جند يسابور وهو يعرف في الغرب باسم ماسويه الكبير تمييزاً له من ماسويه الماريديني الملقب بالصغير. قلده الرشيد ترجمة الكتب القديمة مما وجد بانقرة وعمورية وبلاد الروم حين فتحها المسلمون ووضعه اميناً على الترجمة ووضع له كتاباً حذاقاً يكتبون ، خدم هارون والامين والمأمون وبقي الى ايام المتوكل وكان معظماً ببغداد جليل المقدار وله في الطب مؤلفات خلدها للناس ، منها كتابه الذي سماه بالبرهان وكتابه المعروف بالبصيرة وكتابه المعروف بالكمال والتمام ، وكتابه المعروف في الحميات وكتابه في المعدة وكتابه في الادوية المسهلة ، كان طبيباً حسن البصارة بالتأليف والعلاج ، كان معظماً ببغداد يعقد في مدارسها مجلساً للنظر ويجرى فيه من كل نوع العلوم باحسن عبارة وكان يدرس ويجتمع اليه تلاميذ كثيرون .

ابو زكريا يحيى بن البطريق : هو يوحنا بن البطريق مترجم مشهور في اوائل القرن الثالث الهجري عرف بترجمان المأمون كان اميناً على الترجمة حسن المعاني وكانت الفلسفة اغلب عليه من الطب ترجم كتاب سر الاسرار وهو كتاب السياسة في تدبير الرياسة كتبه ارسطاطاليس الى الاسكندر . قال يحيى مشيت في طلب الكتاب حتى ظفرت فيه عند راهب متناسك في هيكل عبد الشمس فتلطفت به واعملت الحيلة عليه حتى اباح لي مصاحف الهيكل المودوعة فيه فوجدت في جملتها المطلوب الذي امرني امير المؤمنين بطلبه مكتوباً بالذهب

فرجعت الى الحضرة المنصورة ظافراً بالمراد وسار على منواله في الترجمـة ابنه وكان يعرف اللاتينية ايضاً .

قسطا بن لوقا البعلبكي : أحد مشاهير نقلة العلوم الى العربية توفي نحو سنة ٩١٢ م وله مؤلفات حسنة وكان حاذقاً بالطب والفلسفة والهندسة والحساب وعلم النجوم . وفد الى بلاد الروم فحصل على تصانيفهم الكثيرة وعاد إلى الشام واستدعي إلى العراق ليترجم الكتب وله تصانيف مختصرة بارعة .

ابو زكريا يحي بن عدي – ٨٣٩م – ٩٤٧م : من تكريت كان مريداً للفارابي ومتى بن يونس ترجم بعض كتب ارسطاطاليس وشرحها وعلق عليها . وليس لدينا شيء من كتبه اليوم.

ابو علي عيسى بن زرعة: عاش ببغداد وهو احد المتقدمين والفلسفة واحد النقلة من المجودين من السرياني الى العربي

البحث الثاني

مدرسة الدولة للترجمة

انشأ الخليفة المأمون سنة ٢١٥هـ ٨٣٠م مدرسة للترجمة وعهد الى حنين بادارتها.

حنين بن اسحق العبادي[1] عاش من سنة ٨٠٩–٨٧٧م اشرف على مدرسة الترجمة واسهم بعملها: كان أبو زيد حنين من أئمة الترجمة في الاسلام، اختير للترجمة واتمن عليها ووضع له كتّاب عددهم أربعون نحارير، عالمون بالترجمة، كانوا يترجمون

(١) جاء عنه في اعجام الاعلام لمؤلفه محمود مصطفى : كان اوحد عصره في الطب ومعرفة اللغات وكان يعرب كتب الحكمة . انقطع الى القاسم بن عبد الله وزير المعتضد . والعبادي نسبة الى عباد الحيرة وهم عدة بطون من قبائل شتى نزلوها وكانوا نصارى ونسب اليهم خلق كثير منهم عدي بن زيد العبادي وقيل لهم عباد لانهم كانوا اهل طاعة للملوك .

ويتصفح حنين ماترجموا ، مثل اسطيفن - اصطفن بن بسيل - وحبيش، وموسى بن أبي خالد الترجمان ويحيى بن هارون . ولد حنين سنة ١٩٤هـ في الحيرة بالعراق ، من أب مسيحي نسطوري كان يشتغل بالصيدلة ، وقد تتلمذ حنين في بادىء الامر ليوحنا بن ماسويه في مدرسة جنديسابور ثم تركه لكي يدرس لعدة سنوات اللغة اليونانية حتى حذقها تماماً . وعندما حقق أمنيته قصد البصرة كعبة اللغة العربية حينذاك فأتقن فيها لغة الضاد وبذلك أصبح حنين متقناً أربع لغات هي : العربية لغته والسريانية ثم الفارسية واليونانية . ورحل بأمر المأمون الى كثير من البلاد في العراق وسورية وفلسطين ومصر للحصول على نوادر المخطوطات التي تيسر له أن يحسن ضبط الترجمات التي تولاها ويؤخذ من قائمة وضعها حنين وأتمها أحد تلاميذه أنه ترجم الى السريانية من كتب جالينوس خمسة وتسعين كتاباً وترجم الى العربية منها تسعة وثلاثين . هذا الى أنه راجع ترجمة تلاميذه فأصلح ستة كتب مما نقل الى السريانية ونحواً من سبعين كتاباً الى العربية كما راجع وأصلح معظم الخمسين كتاباً التي كان قد ترجمها الى السريانية سرجيس الراسعيني وأيوب الرهاوي وغيرهما ، وكان حنين طبيباً ماهراً امتاز بمعالجة أمراض العين ، وقد أحصى المستشرق غابريلي سبعة وأربعين كتاباً من مؤلفات حنين الخاصة بالطب فقد اكثرها لسوء الحظ .

وأوضح حنين معاني كتب بقراط وجالينوس ولخصها أحسن تلخيص ، وكشف ما استغلق منها ، وأوضح مشكلها ، وله تواليف متقنة حذا فيها حذو الاسكندرانيين فصنعها على سبيل المسألة والجواب ، وله كتاب في صناعة المنطق وكتاب في الاغذية وكتاب في تدبير الناقهين ، وفي الادوية المسهلة والأغذية على تدبير الصحة لم يسبقه اليه أحد ، وله كناش اختصره من كتاب بولس الحكيم اليوناني ، ولقد وُصف حنين بحق بأنه شخصية قوية أنجبها القرن التاسع ومن أشد رجال التاريخ ذكاءً وأحسنهم أخلاقاً ، فشارك في نهضة الشرق مشاركة فعالة وراسخة ومثمرة . أنسل ولدين داود واسحاق ، وأما اسحاق فخلفه على الترجمة

وتولاها فأتقنها وأحسن فيها ، وكانت نفسه أميل الى الفلسفة وهو الذي ترجم كتاب النفس للفيلسوف ارسطاطاليس في سبع مقالات وجده بتفسير ثامسطيوس الذي صنف ليوليانوس قيصر رسالة في الكف عن اضطهاد النصارى .

ابو يعقوب اسحاق بن حنين : توفي سنة ٩١٠م وقد لحق بأبيه في النقل وكان يحاكيه في اتقان الترجمة وفي معرفة اللغات وفصاحته فيها إلا أن نقله للكتب الطبية قليل جداً ، خدم اسحق من خدم أبوه من الخلفاء والرؤساء وكان منقطعاً الى القاسم بن عبيد الله وخصيصاً به ومتقدماً عنده يعطي اليه بأسراره ولاسحق حكايات مستظرفة وأشعار[1] .

أبو الحسن ثابت بن قرة الحراني : ٨٢٧ ـ ٩٠١ سكن مدينة بغداد وكان الغالب عليه علم الفلسفة دون الطب وكان في دولة المعتضد وله كتب كثيرة في فنون من العلوم كالمنطق والحساب والهندسة والتنجيم والهيئة ولد سنة ٢١١ هـ وتوفي سنة ٢٨٨هـ وكان من مشاهير نقلة العلوم في الاسلام نقح ثابت الترجمة التي عملها اسحق بن حنين لكتاب عظم شأنه في العلم العربي ثم في العلم اللاتيني وهو كتاب ارسطاطاليس في النبات وندين أخيراً بكتاب الذخيرة في الطب لثابت وهو كتاب يبحث بالعلاج .

حبيش بن الحسن الدمشقي المعروف بحبيش بن الاعسم ابن اخت حنين ابن اسحق وتلميذه وقد اشتهر بالطب والترجمة من اليوناني والسرياني وهو ناقل

---

(١) منها قوله مفتخراً بطب اجداده :

انا ابن الذي استودع الطب فيهم	وسموا بـه طفل وكهل ويافـع
يبصرني ارسطاطاليس بارعـا	يقـوم مـني منطق لا يدافـع
وبقراط في تفصيل ما اثبت الألى	لنـا الفر والاسقام طـب مضارع
وما زال جالينوس يشفي صدورنا	لمـا اختلفت فيه علينا الطبائـع
ويحيى بن ماسويه واهرن قبله	لهـم كتب فيها للناس منافـع
رأى انه في الطب نيلت فلم يكن	لنا راحـة من حفظها واسابـع

مجود يلحق بحنين تجشم معه عناء كبيراً في التعبير عن معنى اصول الكتب اليونانية بقدر مايستطاع من الوضوح .

اصطفان بن بسيل : وهو مترجم من مدرسة حنين بن اسحاق يحمل اسمه الظن على أنه كان من اليونان، ولم يقتصر اصطفان هذا على ترجمة كتب جالينوس الى العربية ، بل كان أيضاً أول من ترجم الى العربية كتب ديوسقوريديس وينسب اليه أيضاً أول ترجمة لكتب اوريبازيوس .

ابو عثمان يعقوب بن سعيد الدمشقي : ترجم كثيراً من الرياضيين اليونان ومن ذلك الجزء العاشر من اصول اقليدس . كان طبيباً مشهوراً ولما أسس الوزير علي بن عيسى بيمارستاناً جديداً ببغداد سنة ٩١٤م لم يقتصر على توليته رئيساً له، بل جعله أيضاً رئيساً على جميع بيمارستانات بغداد ومكه والمدينة . ترجم هذا العالم الكبير كتباً لارسطاطاليس وجالينوس .

ابراهيم بن بكّس: طبيب كان يدرس الطب في البيمارستان العضدي ببغداد سنة ٣٦٠ هـ ترجم كتباً كثيرة الى العربية ونقله مرغوب فيه وله كتب في الجدري والأقرباذين .

وانـا ننقل هنـا بعض أسماء الكتب التي ترجمت في ذلك العصر ، ملخصة عن ابن النديم وعن طبقـات الأطباء والحكماء لمؤلفه أبي داود سليمان بن حسان الاندلسي وعن عيون الانباء في طبقات الأطباء .

أ – الكتب المنقولة عن اليونانية منها :

كتب افلاطون [١] في الفلسفة والادب :ترجم منها حنين بن اسحاق كتاب

---

(١) جاء عنه في طبقات الاطباء لابن جلجل : هو حكيم من اهل مدينة اثينا فيلسوف يوناني طبي عالم بالهندسة وطبائع الاعداد وله في التأليف كلام لم يسبقه احد اليه وله في الفلسفة كلام عجيب وله كتاب السياسة و كتاب النواميس وهو الكتاب المعروف الآن بكتاب الجمهورية والسياسة المدنية كان ترجم من قبل حنين بن اسحق واعيدت ترجمته حديثا من قبل حنا خباز وطبع بمصر بمطبعة المقتطف سنة / ١٩٢٩ .

السياسة وترجم يحيى بن عدي كتاب المناسبات وكتاب التوحيد وكتاب الحس واللذة وكتاب الجدل وكتاب المغالطات أو الحكمة المموهة وترجم حنين ويحيى كتاب النواميس وترجم قسطا بن لوقا كتاب الهندسة .

كتب ارسطاطاليس[١]: نقل منها حنين كتاب المقولات وكتاب العبارة ونقل تيادروس كتاب تحليل القياس وأصلحه حنين ونقل اسحق وابراهيم بن عبد الله كتاب الخطابة ونقل أبو بشر كتاب الشعر وترجم أبو روح الصابي وحنين ويحيى وقسطا وابن ناعمة كتاب السماع الطبيعي وترجم ابن البطريق كتاب السماء والعالم وأصلحه حنين وترجم اسحاق الدمشقي كتاب الكون والفساد وكتاب الاخلاق وكتاب النفس وترجم أبو بشر ويحيى كتاب الآثار ونقل أبو بشر متى بن يونس كتاب الحس والمحسوس ونقل ابن البطريق كتاب الحيوان ونقل اسحاق ويحيى وحنين ومتى كتاب الحروف والآلهيات ونقل الحجاج بن مطر كتاب المرآة .

ولكتب ارسطو شروح وتعاليق لبعض تلاميذه او من جاء بعده ولبعض هؤلاء مؤلفات خاصة وكلها في الفلسفة وفروعها وقد نقل كثير منها الى العربية ولم يعلم ناقلها .

كتب بقراط[٢] : منها كتاب عهد ابقراط نقله حنين الى السريانيه وحبيش وعيسى الى العربية وكتاب الفصول وكتاب الكسر والجبر والخلع نقلهما حنين لمحمد بن موسى وكتاب تقدمة المعرفة نقله حنين وتلميذه عيسى بن

---

(١) انظر الى ملخص سيرته في ذيل الصفحة ١١٢

(٢) بقراط جاء عنه في الصفحة ٥٠ من تاريخ مختصر الدول لابن العبري انه كان يسكن مدينة حمص ويتردد الي مدينة دمشق ويأوى الى بستان فيها بوادي النيرب وجاء عنه في الصفحة ١٦ من طبقات الأطباء والحكماء لابن جلجل الاندلسي : كان مسكنه مدينة حمص من ارض الشامات ، وهو الذي تكلم في الطب والف فيه الاسفار والكتب وعهد في كتاب عهده الا يكون طالب الطب الا من أهل الصفات والفضل والرحمة لأبناء جنسه .

يحيى[1] وكتاب الامراض الحادة نقله عيسى بن يحيى وكتاب الاخلاط نقله عيسى بن يحيى لاحمد بن موسى وكتاب الماء والهواء نقله حنين وحبيش وكتاب طبيعة الانسان نقله حنين وعيسى .



الشكل - (١٣)
بقراط

كتب جالينوس[2] : منها كتبه الستة عشر وهي : كتاب الفرق ، كتاب الصناعة ، كتاب النبض ، كتاب شفاء الامراض ، كتاب التعرف على علل الأعضاء الباطنة ، كتاب النبض الكبير ، كتاب الحميات ، كتاب البحران كتاب ايام البحران ، كتاب تدبير الأصحاء ، كتاب حيلة البرء ، وقد نقلها كلها حنين بن اسحاق الى العربية كتاب العلل الباطنة ، وكتاب النبض الكبير ، وكتاب تدبير الأصحاء ، وكتاب حيلة البرء نقلها حبيش وكتاب الأغذية ، اما ما بقي من كتب جالينوس الطبية ، فاليك

---

(١) طبعه المحامي صادق كمونه في مطبعة الغري في النجف سنة ١٩٣٨ وهو كتاب صغير الحجم يبحث في الأعراض التي ترافق مختلف الامراض وما ينبغي لكل واحد منها من التدابير

(٢) جالينوس جاء عنه في طبقات الأطباء والحكماء لابن جلجل ص ٤١ : جالينوس ١٣٠ - ٢٠٠م من مدينة برغمش برع في الطب والفلسفة جدد من علم بقراط وشرح من كتبه ما كان قد درس وغمض على اهل زمانه ، وكانت له بمدينة رومة مجالس عامة خطب فيها واظهر من علمه بالتشريح ما عرف به فضله وله تواليف كثيرة العدد في فنون العلم وكانت ديانة النصرانية قد ظهرت في ايامه فقيل له ان رجلا ظهر ببيت المقدس يبرىء الأكمه والأبرص فقال: يوشك ان تكون معه قوة الهية يفعل بها ذلك . فسأل : ان كان هنالك بقية ممن صحبه ؟ فقيل له نعم ، فخرج من رومة يريد بيت المقدس ، فجاز الى صقلية فمات هنالك وهو مفتاح الطب وباسطه وشارحه لقب بالبديع القول وبقوال الأوابد .

اسماءها مع ناقليها : التشريح الكبير ، اختلاف التشريح ، تشريح الحيوان



شكل - (١٤)
جالينــوس متأملا في الهيكل العظمي (عن ج سميث)

الحي ، تشريح الحيوان الميت ، علم ابقراط بالتشريح ، الحاجة الى النبض ، علوم ارسطو ، تشريح الرحم ، آراء ابقراط وافلاطون ، العادات ، خصب البدن ، المني ، منافع الأعضاء ، تركيب الأدوية ، الرياضة بالكرة الصغيرة ، الحث على تعليم الطب قوى النفس ومزاج البدن وقد نقلها حبيش الاعسم وكتاب علل النفس ، كتاب الحاجة الى النفس ، كتاب الامتلاء ، كتاب المرة والسوداء نقلها اصطفان وأصلحها حنين ، كتاب علل الصوت ، كتاب الحركات المجهولة ، كتاب افضل الهيئات ، كتاب سوء المزاج المختلف ، كتاب الادوية المفردة ، كتاب المولود لسبعة اشهر ، كتاب رداءة التنفس ، كتاب

الذبول ، كتاب التدبير الملطف ، كتاب مداواة الامراض ، كتاب ابقراط في الامراض الحادة ، كتاب الطبيب والفيلسوف كتاب كتب ابقراط الصحية ، كتاب محنة الطبيب نقلها حنين و كتاب تقدمة المعرفة و كتاب الادوية و الادواء نقلهما عيسى و اصطفان و كتاب صفات لصبي يصرخ و كتاب الاورام نقلهما ابن الصلت و كتاب الكيموس نقله ثابت وحبيش كتاب الترياق نقله ابن البطريق .



شكل - (١٥)

جالينـــوس يصف استعمال الدواء

وذكر لجالينوس في جملة كتبه الطبية بضعة كتب في الفلسفة والادب وهي : كتاب مايعتقده رأياً وقد ترجمه ثابت ، و كتاب تعريف المرء عيوب نفسه نقله توما وأصلحه حنين ، و كتاب الاخلاق نقله حبيش وعيسى وغير ذلك ، وهناك كتب في الطب وتوابعه ذكرها صاحب الفهرست ولم يذكر ناقلها

وأما مؤلفوها فمنها بضعة وعشرون كتاباً لروفس من أهل أفسيس كان قبل جالينوس ولعلها لم تنقل كلها ومما ذكر ناقلوه بضعة كتب لاوريباسيوس وهي كتاب الادوية المستعملة نقله اصطفان بن باسيل و كتاب السبعين مقالة نقله حنين وعيسى بن يحيى الى السريانية و كتاب الى ابنه اسطات نقله حنين و كتاب الى أبيه اوناقيس نقله حنين ولد يسقوريدس[1] ويقال له السائح في طلب العقاقير والحشائش كتاب في الحشائش ولاسكندروس كتاب البرسام نقله ابن البطريق.

ب - **الكتب المنقولة عن اللغة الهندية في بغداد**: نقل العرب عن اللغة الهندية (السنسكريتية) كثيراً من كتب الطب والنجوم والرياضيات والحساب والتواريخ. اما الكتب الطبية منها فلم يصل الينا من اخبارها الا القليل، كان للبرامكة عناية باستقدام اطباء الهند اليها. وقد بعث يحيى بن خالد فاستقدم بضعة صالحة منهم وهم: «كنكه» و«بازيكر» و«قليرفل» و«سندباذ» وغيرهم. ويظهر مما كتبه العرب بعد العصر العباسي في الأدب أو الطب أو الصيدلة أو السّير انهم اعتمدوا في جملة مصادرهم على كتب هندية الأصل، فانك اذا راجعت مثلا قانون ابن سينا أو الملكي للرازي او غيرهما من كتب الطب الكبرى، رأيتهم يذكرون بعض الامراض ويشيرون الى ان الهنود يسمونها مثلا كذا وكذا أو يعالجونها بكذا وكذا. واذا قرأت العقد الفريد لابن عبد ربه أو سراج الملوك للطرطوشي أو غيرهما من كتب الأدب المهمة، رأيت مؤلفيها اذا ذكروا بعض الآداب أو الاخلاق أو نحوها قالوا: «وفي كتاب الهند كذا وكذا».

على اننا نعلم مما كتبه صاحب طبقات الاطباء أنه اشتهر حوالي العصر العباسي جماعة من علماء الهند في الطب والنجوم والفلسفة وغيرها، منهم كنكه الهندي، وهو من متقدميهم وأكابرهم، وخصوصاً في علم النجوم فضلاً عن الطب،

---

(١) تكتب دياسقوريدوس وهو شامي حشائشي كان بعد بقراط من عين زربى بفتح الزاي وسكون الراء وباء موحدة وألف مقصورة كان علامة في العقاقير المفردة سماه قومه شجار الله من دياشقور، شجار وديوس الله لأنه كان متعلقاً بالجبال ومواضع النبات لا يدخل الى قومه في طاعة ولا مشورة ولا حكم.

وله مؤلفات كثيرة منها : كتاب في الأعمار ، وكتاب اسرار المواليد، وكتاب في الطب يجري مجرى الكناش ، وكتاب في التوهم، وكتاب في أحداث العالم.

وقد نقلت كثير من مؤلفاتهم في النجوم والطب الى اللغة العربية ، اما رأساً أو بوساطة اللغة الفارسية ، بان ينقل الكتاب من الهندي الى الفارسي ،ثم ينقل من الفارسي الى العربي ، منها كتاب سيرك الهندي ، وقد نقله من الفارسي الى العربي عبد الله بن علي ، وكتاب آخر في علامات الادواء ومعرفة علاجها، أمر يحيى بن خالد البرمكي بنقله . وكتاب فيما اختلفت فيه الروم والهند في الحار والبارد وقوى الأدوية . وكتب اخرى في فروع الطب .

ومن مشهوري الهنود في بغداد « منكة » الهندي. وقد أتى بغداد باشارة يحيى بن خالد لمعالجة الرشيد فأجرى عليه الرشيد رزقاً واسعاً . وكان «منكة» يعرف الفارسية ايضاً ، فكان ينقل من الهندي الى الفارسي ،وله حديث طويل ذكره صاحب طبقات الاطباء . ومنهم صالح ابن بهلة الهندي ، جاء العراق في ايام الرشيد ايضاً، ونال شهرة واسعة وخالط اطباءها يومئذ واختلطوا به ،فان لم يكونوا قد نقلوا شيئاً من كتبه فلا بد ان يكونوا قد اقتبسوا شيئاً من آراء الهند فيه. ومن مشهوريهم ايضاً «شاناق»، وله في السموم كتاب في خمس مقالات، نقله من اللسان الهندي الى الفارسي « منكة » الهندي ، وأوعز يحيى بن خالد الى رجل يعرف بأبي حاتم البلخي بنقله الى العربي ، ثم نقل للمأمون على يد العباس بن سعيد الجوهري مولاه. ولجودر الحكيم كتاب في المواليد نقل الى العربي ايضاً. ومن الكتب الطبية التي نقلت من الهندية الى لسان العرب في العصر العباسي غير ماتقدم ذكره كتاب سسرد[1] ويبحث عن النباتات الطبية وكتاب اسماء عقاقير الهند نقله منكه لاسحق بن سليمان وكتاب الجامع وكتاب صفوة النجح نقلها ابن دهن وكتب في العقاقير وعلاجات النساء والسكر والحبالى والتوهم في الأمراض والعلل وفي اجناس الحيات وسمومها لم يذكر ناقلوها .

---

(١) كتاب سسرد Sousrouta ويبحث عن النباتات الطبية .

الفصل الرابع

الترجمة والتأليف واقتناء الكتب في الاندلس

عني رجال الاندلس – من خلفاء وامراء وعلماء وذوي وجاهة وثروة – بتشجيع حركة النقل والترجمة والتأليف فترجموا كتباً جديدة وأصلحوا الترجمة التي قام بها الامويون والعباسيون ، فقد جاء في سيرة ابن جلجل ان كتاب ديوسقوريدس ترجم بمدينة السلام – بغداد – في ايام جعفر المتوكل العباسي وكان المترجم له اصطفن بن بسيل الترجمان ، من اللسان اليوناني الى اللسان العربي وقد وردت نسخة من الترجمة الى الاندلس وفيها نقص كبير ، اذ ذكر اصطفن اسماء عربية للمفردات اليونانية ما استطاع الى ذلك سبيلا وترك قسما كبيراً منها بلا ترجمة ولا تعريب ، ومع ذلك فقد انتفع الناس من الكتاب المذكور بالمشرق والمغرب حتى عهد عبد الرحمن الناصر الذي عرف ملوك العالم رغبته في العلوم وتشجيعه لها فكانوا يهادونه بالكتب ، وهكذا أهداه سنة ٣٣٧ هـ ارمانيوس[1] ملك القسطنطينية هدايا قيمة كان أنفسها في نظر الخليفة الاندلسي كتاب ديوسقوريدس مصوراً بصور الحشائش والنباتات الواردة الذكر فيه ولم يكن يومئذ بقرطبة من يقرأ اللسان الاغريقي ، وهو اللسان اليوناني القديم فلما جاوب الناصر ماوينوس سأله ان يبعث اليه برجل يحسن الاغريقية ليعلمها لعدد كبير من الاندلسيين يخصصوا فيما بعد للقيام باعمال الترجمة فبعث ارمانيوس الملك الى الناصر براهب اسمه نقولا

(١) Romanos

فوصل الى قرطبة سنة ٣٤٠ هـ ، وكان يومئذ بقرطبة من الاطباء قوم لهم بحث وتفتيش وحرص على استخراج ماجهل من اسماء عقاقير كتاب ديوسقوريديس الى العربية ففسر من اسماء عقاقير الكتاب ما كان مجهولا وكان في جملة الاطباء العاملين على تصحيح اسمـاء عقاقير الكتاب المذكور حسداي بن شبروط ومحمد المعروف بالشجار ورجل كان يعرف بالبسباسي وابو عثمان الجزاز ومحمد بن سعيد الطبيب وعبد الرحمن بن اسحق بن هيثم وابو عبد الله الصقلي وكان يحسن اليونانية ويعرف اشخاص الادوية ولقد صحح هؤلاء العلماء ببحوثهم اسماء عقاقير الكتاب فصح النطق باسمائها وضبطت معانيها ، وساهم في هذا العمل ايضاً ابن جلجل مساهمة كبيرة الاثر وذلك بتفسير اسماء الادوية المفردة من كتـاب ديوسقوريديس ، وهكذا تكوّن من الاندلسيين الخبيرين باللغة اللطينية (اللاتينية) ومن الراهب نقولا ومن علّمهم اللغة اليونانية ومن جملة العلماء الذين ذكرنا اسماء بعضهم مدرسة للترجمة شابهت زميلتها في بغداد ، دار السلام .



(الشكل – ١٦)
باحة عربية في مدرسة اندلسية

انجبت الاندلس عدداً لا يحصى من العلماء في شتى العلوم ،فقد أغنى الاندلسيون العالم ببحوثهم في التاريخ الطبيعي ولا سيما علـم النبات فقاموا بترتيب النباتات على اساس ماينمو منها من الفسائل وما ينمو من البذور وما ينمو بنفسه ،وجمع الطبيب القرطبي الغافقي نباتات اسبانية وافريقية وسمى كلا منها باسمائها العربية

واللاتينية ، اما اشهر مؤلفاته فهو الادوية المفردة فقد كان هذا التأليف من الاهمية بحيث ان مواطنه وزميله ابن البيطار اقتبس الشيء الكثير من ابحاثه . وقد وضع ابن البيطار الطبيب الغرناطي رسالة دافع فيها عن نظرية العدوى بمناسبة انتشار مرض الطاعون في اوروبا في منتصف القرن الرابع عشر ووقوف اوروبا حياله مكتوفة الايدي .

وكان معظم الاطباء من عرب الاندلس قد اتخذوا الطبابة حرفة كمالية الى جانب عمل آخر يتعاطونه ، فقد كانوا فلاسفة أو فقهاء أو مؤرخين أو ادباء أو كتاباً أو شعراء .

وكان للاندلس العربية أثر رائع في تأريخ العلم والفن والطب بما في ذلك العمران ، فقد حملت تراث العلوم والفنون القديمة فحافظت عليه ونفحته باضافات عظيمة الشأن كبيرة الاثر . بلغت الاندلس قمة المجد في عهد الامويين مابين سنة ٧٥٦م وسنة ١٠٣٠م وكانت قرطبة سرير ملكهم وعاصمة خلافتهم ردحاً من الزمن . وصف المؤرخون الاندلس لما صارت لبني أمية بقولهم: ولما صارت الاندلس لبني امية وتوارثوا ممالكها وانقاد اليهم كل أبي وطاعهم كل عصي عظمت الدولة واستتبت الأحوال فيها وكانت قواعدهم في الحكم اظهار الهيبة ومراعاة أحوال الشرع والانقياد الى الحق وتعظيم العلم وتقدير العلماء بأقوالهم وإحضارهم في مجالسهم واستشارتهم وبذلك انضبط لهم أمر الجزيرة .

ازدهر العلم في قرطبة في عهد الحكم الأول وعبد الرحمن الثاني وكان كل منهما محباً للعلوم والآداب والفنون ، مشجعاً للعلماء والادباء ورجال الفن ، وقد أرسل عبد الرحمن أحد علماء قرطبة عباس بن ناصح الى العراق لشراء المؤلفات العربية واليونانية والفارسية أو استنساخها اذا تعذر ابتياعها . وقد أصبحت قرطبة في عهد عبد الرحمن الثالث مركزاً ثقافياً ومصراً معموراً لا تحاكيه بعظمته الا بغداد ودمشق ، واعتلى عبد الرحمن الثالث مكان الصدارة بين الملوك الذين حكموا اسبانية ، ويرى « دوزي » أنه كان جديراً بالتقدير

والاعجاب وأهلا لخلود اسمه في سجل العظماء الخالدين . ينفرد عبد الرحمن الناصر بالمكان الأول بلا منازع بين الملوك الذين حكموا اسبانية وان مآثره وحده ليكاد يكون معجزة فقد جمع الكلمة ووحد المملكة وجعل من العرب والاسبان أمة أندلسية متضافرة فتقدمت تقدماً كبيراً وقد نشطت العلوم في عهده فسمي بحق حامي العلم والعلماء والأدب والأدباء . ولقد أصاب المؤرخون بتسمية عصره بالعصر الذهبي فقد نفقت فيه سوق العلم وارتقت الفنون فكنت ترى أنى ذهبت مجالس علم وأدب ، وكان بلاط الناصر مزدحماً بالعلماء ورجال الأدب والفن ، وكان ابنه الحكم الثاني يحاكيه في سيرته العلمية ، فقد رباه والده على صفوة من أدباء ذلك العصر وعلمائه فبلغ رقيه الفكري شأواً بعيداً وأصبح عالماً كبيراً لم يحكم الاندلس أمير عالم مثله .

جاء عنه في طبقات الأمم تأليف صاعد بن أحمد القاضي الطليطلي قوله : انتدب عبد الرحمن الناصر ابنه الحكم المستنصر بالله الى العناية بالعلوم والى ايثار أهلها فاستجلب من بغداد ومصر وغيرهما من ديار الشرق عيون التآليف الجليلة والمصنفات العربية في العلوم القديمة والحديثة وجمع منها في بقية أيام أبيه ثم في مدة ملكه من بعده ما كاد يضاهي ماجمعه ملوك بني العباس في الازمان الطويلة وتهيأ له ذلك لفرط محبته للعلم وبُعد همته في اكتساب الفضائل وسمو نفسه الى التشبه بأهل الحكمة من الملوك فكثر تحرك الناس في زمانه الى قراءة كتب الأوائل وتعلم مذاهبهم .

وقد سار الحكم على غرار والده عبد الرحمن الثاني بايفاد رسله الى المدن الكبرى لشراء المخطوطات مهما عز الثمن وأوصاهم باستنساخها اذا لم يتيسر ابتياعها، وكان يكتب بنفسه لمؤلفي زمانه يطلب منهم كتبهم ويجزيهم عليها خير الجزاء. وقد بلغ في أيامه عدد الكتب في مكتبة قرطبة العامة ست مائة الف كتاب علق بنفسه على عدد كبير منها وكثيراً ما كانت تنتهي اليه المؤلفات قبل أن يقرأها أحد وقبل أن يباشر مؤلفها بنشرها فلم يكد يبلغه أن أبا الفرج الاصبهاني

عالم العراق أنجز كتابه «الاغاني» حتى اقتنى أول نسخة منه وكان شديد العناية بالعلماء دائباً على تشجيعهم ، مستمراً في مكافأتهم ، كما كان شديد العناية بمكتبته الخاصة ، وكانت قرطبة تضم في عهده ثمانين مدرسة ، وكانت نعمه على العلماء من مواطنين وغرباء لاتقف عند حد ، فازدهرت العلوم في عهده وزالت الأمية حتى لم يعد في الأندلس من لايحسن القراءة والكتابة على حين كانت أرفع الطبقات في أوروبا أمية[1] خلا رجال الكهنوت ، فسارصيت قرطبة ، العاصمة الاسلامية في الاندلس حتى أقاصي ألمانيا ، وقد زارت أديبة ذلك الزمن السكسونية هورتسويزا قرطبة فوصفتها بأنها جوهرة العالم[2] . وكانت قرطبة في ذلك الحين مثار اعجاب الناس وكان الرحالة القادمون من الشمال يتسامعون بين الخشوع والتقدير أخبار المدينة ، وبلغ من ارتفاع شأن هذه المدينة أن حكام ليون ونافار وبرشلونة كانوا يقصدون اليها كلما مست بهم الحاجة الى طبيب أو جراح أو مهندس أو معمار أو مطرب . ومن ذلك ماحدث مع « طوطا » ملكة نافار فقد أوفدت بولدها « سانكو » البدين لتعالجه من السمنة على أيدي أطباء قرطبة[3] وكان يفد اليها الطلاب من كل جانب[4] ومن جميع الملل والنحل ومن كل قطر عربي وغير عربي ، وممن اشتهرت دراستهم في جامعها

---

(١) قال صاعد بن احمد القاضي الطليطلي عنهم : فافراط بعد الشمس عن مسامتة رؤوسهم برّد هوائهم وكثّف وجوههم فصارت بذلك امزجتهم باردة واخلاقهم فجة فعظمت ابدانهم وانسدلت شعورهم فعدموا بهذا دقة الافهام وثقوب الخواطر وغلب عليهم الجهل والبلادة وفشا فيهم العمى والغباوة . لقد اثبتنا هذه الكلمة لنبين ما كان عليه الغرب من جهل مطبق على انه من البديهي أننا لا نقر التعليل الذي اورده المؤلف في سبب غباوة الغربيين في ذلك الحين .

(٢) Horstwisa ، ذكر انها كانت راهبة وقيل انها كانت اديبة تقيم بدير ولم تترهب .

(٣) عدّ شاعر اندلسي العلم اعظم شيء فاقت به قرطبة غيرها من الامصار وذلك في قوله :

بأربع فاقت الامصار قرطبة ... منهن قنطرة الوادي وجامعها
هاتان اثنتان والزهراء ثالثة ... والعلم اعظم شيء وهو رابعها

(٤) امر سنة ٨٧٣ م هرتموت رئيس دير ماري جماعة من رهبانه بدروس اللغة العربية لتحصيل معارفها وكان الرهبان البندكتيون يطلبون العلوم العربية بشوق لامزيد عليه .

ومدارسها من عظماء الرجال البابا سيلفستر الثاني[1] وكان يعرف باسم الراهب اوفرنيان جربرت وفرانسيس امبريه .

اما تزويد البيوت بمكتبات وولع الاندلسيين بشراء الكتب والمفاخرة بها فقد بلغ حداً كبيراً كما تشير الى ذلك الحادثة الآتية :

قال الحضرمي : أقمت مرة بقرطبة ولازمت سوق كتبها مدة أترقب فيه وقوع كتاب كان لي بطلبه اعتناء الى أن وقع وهو بخط جيد ففرحت به أشد الفرح فجعلت أزيد في ثمنه فيرجع لي المنادي بالزيادة علي الى أن بلغ فوق حده فقلت له : ياهذا أرني من يزيد في هذا الكتاب حتى بلّغه الى ما لا يساوي .

قال : فأراني شخصاً عليه لباس رياسة فدنوت منه وقلت له: أعز الله سيدنا إن كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حده فقال لي : لا أدري ما فيه ، ولكن أقمت خزانة كتب في داري لأتجمل بها بين أعيان البلد وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب فلما رأيته حسن الخط جيد التجليد استحسنته ولم أبال بما أزيد فيه ، والحمد لله على ما أنعم به من الرزق فهو كثير .

ولم تكن سوق الكتب لتروج الى ذلك الحد لولا صناعة الورق المحلية ، كانت هذه الصناعة من أجل الخدمات التي أسداها العرب والاسلام الى أوروبا ولولاها لما تم اختراع آلات الطباعة ذات الحروف المتحركة ، وكانت شاطبة مركز صناعة الورق في اسبانية المسلمة ، ثم انتقلت صناعة الورق من اسبانية العربية الى فرنسة ، وكان لعبد الرحمن كاتب اعتاد أن ينشيء الرسائل الرسمية

---

(١) اصله رجل فرنساوي طاف بقسم كبير من اوروبا طالباً المعارف حتى دبت قدماه في الاندلس فرتع في مدارس اشبيلية وقرطبة وصرف الى العلوم رغبته فلما ساغها هنيئاً عاد الى دياره وما زال يسمو على اقرانه حتى نصب بابا فشاد للعلم مدرستين الواحـــدة في ايطاليا والثانية في ريمز وادخل الى اوروبا معارف العرب ثم ثارت في ايطاليا وفرنسة وجرمانية وانكلترة رغبة عند علية القوم للتعلم والدرس فقصدوا الاندلس من كل فج عميق وتناولوا المعارف من اهلها .

في منزله ثم ينفذها الى ديوان خاص يصير فيه اظهارها على الورق وهو نوع من الطبع فتصدر فيه نسخ متعددة توزع على عمال الدولة .

وقد لمع في قرطبة اسم محمد بن عبد الله بن مسرة القرطبي ٨٨٢ - ٩٣١م فعد من كبار مفكري الاندلس ، كما اعد ابو القاسم مسلمة بن احمد المجريطي المولود في مدريد والمتوفي بقرطبة سنة ١٠٠٧م علماً من أعلام الاندلس وقد اشتهر تلميذه أبو الحكيم عمر بن عبد الرحمن القرماني المتوفي سنة ١٠٦٩م في سرقطة بتعمقه في العلوم الطبية والرياضية كما اشتهر في الطب عدد كبير من العلماء وبعض برزات النساء.

زهت غرناطة مابين سنة (١٢١٣ و ١٤٩٢) م وقامت بين خراب قرطبة (٩١٢-٩٦١م) ونهضة غرناطة ممالك ازدهرت فيها اشبيلية وبلنيسية وطليطلة وسرقطة وغيرها .



(الشكل ١٧) سيدة اندلسية

* * *

الباب الثالث

العصور الذهبية للحضارة العربية [1]

ومقارنتها بالحياة الغربية في ذلك الزمان

يتضمن هذا الباب فصلين نبحث في اولهما عن حال البلاد العربية الاسلامية ابان ازدهار حضارة ذلك الزمن فيها ونخص الثاني بالبحث عن الحياة في البلاد الغربية آنذاك وغايتنا من ذلك افساح المجال للقارىء ليحسن المقارنة بين ما كان عليه العرب من جهة والغرب من جهة ثانية في ذلك الحين .

ولقد لاحظنا ان الكثير من الناس الذين لايقدرون الحضارة العربية حق قدرها يقارنون بين حضارة العرب في عصورهم الذهبية وحضارة هذا اليوم ، ومما لاشك فيه ان مقارنة من هذا القبيل غير منصفة والحكم من خلالها بعيد عن الصواب .

الفصل الأول

العصور الذهبية للثقافة العربية

استمرت العصور الذهبية للثقافة العربية زهاء خمسة قرون توطدت فيها دعائم حضارة عربية شملت العالم المعروف آنذاك ، فقد بزغ فجر الثقافة العربية

---

(١) ملخص من كتاب غربيين بينهم ستانلي بول Stanly Lan Pol وولز Wells وغيرهما . وستانلي بول استاذ اللغة العربية في جامعة دوبلن ومؤلف كتاب الفن العربي بمصر وكتاب المجتمع العربي في القرون الوسطى . ترجم المقال من قبل حسن السلمان مدير منطقة معارف البصرة ونشرفي المقتطف ج ٩٦ — ص ٢٧٩ وقد زودنا المقال باضافات عديدة تناسبه .

في اوائل القرن التاسع وافل نجمها بنهاية القرن الثالث عشر للميلاد ، واضاء نورها جميع ما افتتحه العرب من بلاد ومن امصار ، فكانت الثقافة العربية تهيمن على بلاد فارس شرقا حتى ساحل الاطلنطي غربا ، وكان المسلم يتكلم العربية سواء في تركستان كان ،ام في بلاد الاسبان .

ان الاسلام ببساطة تعاليمه وبمبلغ تأثيره ، وبما وعد به الصابرين من اتباعه من جزاء اثار الشوق في قلب العربي والحماسة في نفسه ، فما ان سمع المنادي ينادي الله اكبر حتى اندفع الى الجهاد في سبيل الله واعلاء كلمة الاسلام دون ان يخشى موتا او هلاكا ، ولقد كان للنداء الله اكبر الله اكبر في قلوب العرب المجاهدين وقع دونه وقع اعظم موسيقى في نفوس الجيوش المحاربة ومهما يقال في الدوافع للفتح الاسلامي فان مبادىء الدين الجديد وتعاليمه كانت اقوى الدوافع وأشدها تأثيراً في نفوس اتباعه . وهناك دافع آخر لايقل عن الدافع الديني تأثيراً ، ذلكم هو الرغبة في القضاء على سيطرة الروم والفرس ، فقد شعر العرب بما أصاب كلاً من مملكتي الفرس والروم من وهن وضعف ، فلم يمض عشرون عاماً على بدء فكرة الجهاد والتوسع العربي الاسلامي حتى وجد العرب أنفسهم سادة في مملكتي قيصر وكسرى ، تدين لهم ثقافات غير متماثلة مستمدة من فلسفات الهند وفارس واليونان ،ومن شرائع الرومان بينما العرب لايتكلمون الا العربية وليس لهم الا كتاب واحد يستمدون منه علمهم وثقافتهم وشرائعهم وهو القرآن ، وما أن نقل الامويون مركز حكمهم من المدينة المنورة الى الشام حتى أخذت نظراتهم الى الحياة تتبدل رويداً رويداً .

مهد الخلفاء الامويون السبيل الى العصر الذهبي الذي أخذ نجمه يتألق في أفق سماء الاسلام ، ففتحوا ابواب قصورهم للعلماء ، وسمحوا لاهل البلاد الاصليين ان ينصرفوا الى دراسة العلوم والفلسفة واستخدموا أولي المعرفة منهم في التدوين والكتابة والحساب وفي جميع اعمال الدولة ، وقد ارتضوا في بادىء امرهم ان يستعمل هؤلاء لغتهم الاصلية في الكتابة وفي التدوين ، وأن يتداول الناس

النقود الرومانية القديمة ، ولكن لم يمض وقت طويل على ذلك حتى حلت اللغة العربية محل اللغات الاجنبية في دواوين الحكومة وضربت النقود باسماء الخلفاء مما اضطر اهل البلاد الاصليين لتعلم اللغة العربية .

ولما كانت دمشق الشام ، عاصمة العرب ، بعيـدة عن بلاد فارس لم يستفد العرب من الثقافة الفارسية باديء ذي بدء ، الا ان انتقال الحكم من ايدي بني أمية الى أيدي بني العباس واتخاذ بغداد عاصمة للمملكة أدى الى اقتراب العرب من الفرس والى تسرب الثقافة الفارسية الى اللغة العربية .

لقد كانت جميع قصور الامراء معاهد للنقاش العلمي وللمجادلات الكلامية ومن المؤسف حقاً ان هذا الجد العلمي العظيم لم يدم طويلا .

ان هذا العصر الذهبي وان كان قصير الامد الا أن أثره في العالم كان عظيما جداً ، فقد خلق مدنية فاقت ماتقدمها من مدنيات [1]

إن تاريخ الحضارات لايعرف حركة ثقافية أشد وأعظم من تلك التي نشأت في البلاد الاسلامية ، ولايعرف حركة في العلم تحاكي اقبال المسلمين عليه ، فقد كان تهافت طلاب العلم في جميع انحاء البلاد الاسلامية على بغداد وغيرها من مراكز التعليم أشد وأكثر من تهافت طلاب العلم على جامعات اوروبا وامريكا في هذه الايام ، كان الاساتذة يتوافدون الى مراكز التعليم من مختلف الاقطار التي تتكلم العربية لاطمعاً في مغنم ولا جرياً وراء حطام وانما حباً في نشر أفكارهم

(١) ومن محاسن الاتفاق ان هذه المدنية العربية أسست دعائمها على ضفاف نهر عظيم يتصل بالبحر فيسهل الاتجار مع بلاد الشرق والغرب ، فكان خزف الصين وتوابل الهند وفراء بلاد الروس وجلود بلاد اوروبا تباع في اسواق بغداد ، وكانت نقود الخلفاء تتداولها أيدي الناس في بلاد غير بلاد المسلمين ، ومما يدل على سعة انتشار التجارة العربية في العصر الذهبي ان بعض الأثريين اكتشف مؤخراً طائفة من النقود العربية المضروبة في بغداد المكتوبة بالخط الكوفي ، مطمورة في احدى الخرائب في اسكندناويه . وان رحلات السندباد البحري وان كانت خرافة لا يصح الاعتماد عليها الا انها تصوّر شغف العرب بالاسفار والمتاجرة .

وتلقين معارفهم ، وكان التزاحم بين الاساتذة على أشده فأقدرهم وأفقههم من جمع حوله اكبر عدد ممكن من المستمعين .

وكان القرآن اساساً لجميع ما كان يعلم في حلقات التعلم ،سواء أصرفا ونحوا كان مايعلم ،أم منطقاً أم عروضاً أم أي علم من علوم اللغة والكلام،ولاريب ان اختلاف الاساتذة وتباين طرق تدريسهم وتشعب مادة الدراسة وعدم التفريق بين استاذ وآخر من حيث الجنسية أدى الى إلهاب شعلة الفكر في أدمغة كثيرين ممن كانوا يرتادون تلك المساجد ، فقد كان الطلاب لايترددون في في الاستماع الى استاذ من نيسابور ، ثم ينتقلون الى استاذ من سمرقند بعد أن يأخذوا من الاول مايريدون أخذه دون ان يجد الطلاب والاساتذة غضاضة في عملهم هذا مادام جميعهم يتكلمون لغة واحدة هي لغة القرآن العربية ويبحثون في موضوع واحد ويشعرون شعوراً واحداً .

كانت علاقة القرآن بالفلسفة العربية قوية ، فهو ركنها ومنه تستمد قوتها ، ان جامعات الغرب وان كانت لاتعنى اليوم العناية الكافية بتعاليم الكندي والفارابي والخوارزمي وابن سينا والرازي وابن طفيل وابن باجه وابن رشد والبيروني،الا ان جامعات اوروبا خلال القرون الوسطى كجامعات باريس وبادوا ونابولي وبولونيا ما كان يدرس اساتذتها إلا تعاليم هؤلاء وغيرهم من الفلاسفة المسلمين.

لقد أدخل العرب على العلوم الرياضية الترقيم الهندي ، واستعملوا الرموز بدل الارقام فابتدعوا بذلك علم الجبر ووضعوا المثلثات ، كما انهم استعملوا الجيب عوضاً عن القوس ، إن مالهم من بحوث ونظريات يشهد بمدى اهتمامهم بالعلوم على اختلاف انواعها اما الكيمياء فقد انحدرت اليهم من مدارس الاسكندرية فأضافوا اليها كثيراً من مادتها واستعملوها في الطب والصيدلة .

وما زلنا نستعمل في بحوثنا الكيميائية كثيراً من الكلمات العربية ،اننا وان كنا ننظر نظرة استغراب الى ما كان يسعى اليه الكيميائي العربي من البحث وراء حجر الفلاسفة لتحويل المعادن الخسيسة الى ذهب خالص فان البحث العلمي

الحديث أثبت امكان ذلك وان كانت الطريقة في ذلك غير الطريقة القديمة .

وسارت فكرة الارتياد عند رجال العلم جنبا الى جنب مع فكرة البحث العلمي فكان اكثر الاساتذة والعلماء روادا يفدون الى البلاد العربية طلباً للعلم والمعرفة ولا تعزى كثرة رواد العرب الى التوسع التجاري فقط بل الى حبهم للتعلم والتثقيف كذلك ، فقد كان الاساتذة مضطرين الى الارتحال من بلد الى آخر للتدريس والاستفادة ، ويجب ان لا ينكر ان اللغة العربية بجمال لفظها وبكونها لغة القرآن كانت اقوى عامل في اجتذاب طلاب المعرفة من اقصى البلاد الاسلامية الى المراكز العلمية مثل بغداد وغيرها من عواصم العالم العربي كما اشتهرت كل من البصرة والكوفة بعلم الكلام .

وبعد ما ضعف شأن العباسيين وأصبح الخلفاء العوبة في أيدي مواليهم الترك انتقلت مراكز العلم من بغداد الى دمشق وحلب ، فاجتذبت هذه المراكز الجديدة عدداً كبيراً من قادة الفكر ومن فلاسفة الاسلام .

ومما يسترعي النظر ان مصر اشتهرت بمدرسة الاسكندرية العظيمة ، فلما مكنت الاحوال لابن طولون الاستقلال في مصر جمع اليه أهل العلم ورجال الأدب وأخذ يغذي الحركة العلمية بكثير من ماله الخاص وجهده ، وكانت اولى البدائع الفنية التي ظهرت في مصر ، المسجد الذي بناه ابن طولون قرب القاهرة فكان تحفة نادرة المثال والروعة بزخارفه وباقواسه .

ومما امتاز به الفاطميون انهم نظروا الى النحت ولاسيما نحت التماثيل والهياكل البشرية نظرة تسامح ورضا وتشجيع ، والمتاحف الاوروبية ملأى بالآثار الفاطمية التي تنطق بمبلغ تقدمهم في فني الرسم والنقش ، ولقد أثارت هذه الروح الفنية في نفوسهم الميل الى الترف والبذخ فازدانت قصور الخلفاء في العهد الفاطمي بالغالي والنادر من التحف الفنية وأن المخلفات التي تركها آخر خلفائهم ـ الخليفة المستنصر ـ والتي عبث بها جند الترك المحتلون للبلاد لاعظم دليل على عظم ثروة الفاطميين المادية والفنية .

لقد باع الجند العابث بمحتويات قصر الخليفة مقادير كبيرة من الأحجار

الكريمة قدّر وزنها بما يزيد على مائة كيلوغرام ، وعدداً ليس بالقليل من الأواني الزجاجية والذهبية المطعمة بالمينا ، وكذلك كمية من المحابر المصنوعة من الذهب والفضة والعاج واقتسموا جميع الهدايا التي قدمها أباطرة الرومان الى الخلفاء ، وعدداً ليس بالقليل من المرايا الفولاذية ومن ألواح الشطرنج المغطاة بالحرير الموشى بالذهب ومن قطع الشطرنج المصنوعة من الذهب والفضة والعاج والابنوس ، وكان في قصر الخليفة طاووس مصنوع من الذهب الخالص صيغت عيناه من الياقوت الذهبي وطعّم ريشه بمختلف الأحجار الكريمة ، وكذلك كان فيه غزال من ذهب غطي جيده بعقود اللؤلؤ الغالي ، وشجرة نخل صيغت من الذهب وزينت بالجواهر الكريمة وكان اكبر أبهاء القصر مفروشاً بسجادة كبيرة رسمت عليها خريطة بلاد العالم.

ومما بدده الجيش الفاتح مجموعة فاخرة من الاسلحة والسيوف والخناجر المطعمة مقابضها بالجواهر والاحجار الكريمة ، وكان لبعض تلك الاسلحة قيمة تاريخية كبيرة جداً فمن بينها درع للحسين بن علي رضي الله عنهما ودرع للحمزة عم النبي عليه السلام وسيف للامام علي كرم الله وجهه عرف بذي الفقار .

ومما لاشك فيه أن تقدم العرب هذا التقدم السريع وبلوغهم الذروة الرفيعة من المجد كان له أثر بعيد في الحياة الاوروبية ، وكيف لايكون ذلك والاساطيل الاسلامية التجارية كانت تنقل كثيراً مما تنتجه البلاد الاسلامية مما يصنعه المهرة من أبناء العرب في الشرق والغرب والاندلس لبلاد الغرب ، والصلة التجارية اولى دواعي التمدن . ولم يقتصر نفوذ العرب بالبحر المتوسط على شواطئه فقط بل عم الجزائر الهامة فيه ، فقد دامت سطوة العرب على جزيرة مالطه زهاء قرنين ـ منذ القرن التاسع حتى القرن الحادي عشر ـ ومازالت اللغة المالطية حتى الآن تشهد بعظم تأثير اللغة العربية في أبناء تلك الجزيرة ، ودانت للعرب كذلك جزيرتا ساردينيه وصقلية ، ودام حكمهم في هاتين الجزيرتين حتى أواخر القرن العاشر ، وكان للفن الأندلسي في العمارة أثر كبير بين قصور صقلية وفي أبنيتها .

ولقد ظل العرب يعلمون العالم الاوروبي ثقافتهم وعلومهم طوال القرن العاشر والقرن الحادي عشر، حتى أن ملوك صقلية فتحوا أبواب قصورهم للمسلمين ليستفيدوا من علومهم وليستمدوا من معارفهم، وان ننس لاننسى كيف أن روجر الثاني استقدم الادريسي أعظم رجال العرب شهرة الى بلاده وأسكنه قصره تقديراً لعلمه واعجاباً بشهرته .

وكان أهل الأندلس أحرص الناس على التميز بالعلم، حتى أن الجاهل الذي لم يوفق للتعلم يجهد نفسه لكي يتميز بصنعة نفيسة ويربأ بنفسه أن لايتميز بمايرفع ذكره . ويظهر من تاريخ الاندلسيين أن زراعتهم بلغت درجة عاليه فوسعت متاجرهم حتى بلغت الآفاق براً وبحراً في زمن الخلفاء وأنهم فاقوا غيرهم في التجارة والزراعة وبرعوا في استخراج المعارف وسبكها وفي البناء والحياكة والصياغة والدباغة والنقش والتدهين والتذهيب والزخرفة على اختلاف أنواعها . كانت مالقة من أشهر أمصار الأندلس بصنع الفخار المذهب العجيب ترسله الى أقاصي البلاد، وكانت خيراتها كثيرة من عنب وتين ولوز ورمان . واشتهرت اشبونه بعنبرها ومسكها واشبيلية بموسيقاها وغنائها وزيتها وزيتونها حتى أن الماشي كان يسير في ظل زيتونها وتينها أربعين ميلاً طولاً واثني عشر ميلاً عرضاً، واشتهرت كورة باجه بمعدن الفضة الذي فيها وبدباغة الأديم وصناعة الكتان، وفاقت المرية سائر المدن بصنعة ديباجها ودار صناعتها، وكان يصنع بها من صنوف آلات الحديد والنحاس والزجاج مالا يوصف. وفاكهة المرية يقصر عنها الوصف حسناً وواديها طوله أربعون ميلاً في مثلها عرضاً كله بساتين بهيجة وجنات نضرة وأنهار مطردة وطيور مغردة . وقيل لم يكن في الاندلس أكثر مالا من أهلها ولا أعظم منهم متاجر وذخائر، وكان بها من الحمامات والفنادق نحو الألف، ولجودة أرضها قيل انها ذهب كأنما غربلت من تراب . واشتهرت شنترة بجودة أرضها وحسن غرسها . وكانت مرسية تسمى البستان لكثرة جناتها، وبالاجمال كان بعض أهل الاندلس خبيرين باستعمال الأطياب والعقاقير

والأفاوية وباستخراج الحجارة الكريمة والمعادن ومنها الزئبق والكبريت والتوتيا والنحاس والحديد والشب والكحل، وقيل كانوا يطعمون الذهب والنحاس بالفضة وكانوا يتجرون بالزعفران والزنجبيل ويلتقطون المرجان عن سواحلهم .

فاذا تأمل القارىء في كثرة هذه المواد وما ينهال منها على البلاد من سيول الثروة وضم اليها نخوة العرب وعظم اقدامهم على الاعمال تبين له أن الاندلس صارت تحت يد العرب جنة العالم وتحقق صدق القائل فيها[1].

وأتقن شيء في مصنوعات الاندلسيين مبانيهم فأهل الصناعة والذوق في هذه الأيام لايزالون يقرون لهم بحسن المباني أيام كان سواهم من أهل أوروبا لايسكن غير البيوت الحقيرة . وأشهر من شاد المباني الباذخة الخليفة الناصر أكبر سلاطين بني أمية واعظمهم شأناً وخطراً وكان الناصر كلفاً بعمارة الأرض وتخليد الآثار .

ففي أيامه استقام السلم والعدل واتسع نطاق الحضارة وامتد العمران ، وراجت سوق الزراعة والتجارة ، ففاضت على الاندلس ينابيع النعم واحدقت بها مجاري الثروة . وكان بمدينة قرطبة وحدها مئتان وستون الف دار والف وستمائة مسجد والف الف نسمة . وقال ابن سعيد حسبما ذكره القلقشندي أن العمارة اتصلت في مباني قرطبة والزهراء والزاهرة بحيث أنه كان يمشي فيها ليلاً على ضوء السرج الممتدة عشرة أميال. وأشهر مابناه الناصر مدينة الزهراء اعجوبة زمانها وفريدة هذه الأيام لوبقيت ، وبها فاقت قرطبة سائر البلدان حتى صارت في الاندلس كالرأس في البدن .

---

(١) وكيف لا تبهج الابصار رؤيتها ... وكل روض بها في الوشى صنعاء
انهارها فضة والمسك تربتها ... والخز روضتها والدر حصباء
وللهواء بها لطف يرق بـه ... من لا يرق وتبدو منه اهواء
ليس النسيم الذي يهفو بها سحراً ... ولا انتثار لآلي الطل انداء
وانما أرج الند استثار بها ... في ماء ورد فطابت منه ارجاء

وأصل بناء الزهراء على ما رواه بعض مؤرخي العرب والافرنج أنه كان للناصر جارية تسمى الزهراء وكان يحبها حباً شديداً فطلبت منه أن يبني مدينة باسمها تكون خاصة لها فبنى أولاً قصر الزهراء الشهير ثم بنى مدينة الزهراء حوله على بعد ما بين أربعة وخمسة أميال من قرطبة وإلى الشمال منها تحت جبل يسمى جبل العروس وغرسه تيناً ولوزاً ولم يكن منظر أحسن من منظر الزهراء ولا سيما في زمان الازهار وتفتح الاشجار .

ونصب فيها أربعة آلاف وثلاث مئة سارية من الرخام النفيس وجعل لها اكثر من خمسة عشر ألف باب ملبسة بالحديد والنحاس . ونصب فيها ايضاً حوضاً منقوشاً مذهباً غريب الشكل غالي القيمة جلبه إليه أحمد اليوناني من القسطنطينية وحوضاً صغيراً اخضر منقوشاً بتماثيل الانسان جلبه من الشام وقالوا أنه لاقيمة له لفرط غرابته وجماله قال المقري : ونصبه الناصر في بيت المقام في مجلسه الشرقي المعروف بالمؤنس وجعل عليه اثني عشر تمثالاً من الذهب الأحمر مرصعة بالدرّ النفيس الغالي ، ومما عمل بدار الصناعة بقرطبة صورة أسد الى جانبه غزال إلى جانبه تمساح وفيما يقابله ثعبان وعقاب وفيل وفي المجنبتين حمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك وحدأة ونسر وكل ذلك من ذهب مرصع بالجوهر النفيس ويخرج الماء من أفواهها .

وصنع في الزهراء بحيرة وضع فيها الحيتان انواعاً . أما قصر الزهراء فكان متناهياً في الجلالة والفخامة والرواة يقولون انه لم يدخل اليه احد من سائر البلاد النائية والنحل المختلفة الا وكلهم قطع انه لم ير له شبها بل لم يسمع بمثله وكانت مجالسه مبلطة بافخر أنواع الرخام وسقوفها مغشاة بالذهب الابريز وأبوابها من خشب الارز منقوشاً نقشاً يحير الالباب وعمدها غاية في الاحكام والاتقان كأنها أفرغت في قوالب . وكان بها برك عظيمة يجري منها الماء الصافي الى أبدان تماثيل غريبة الشكل والصنعة تكاد المخيلة تعجز عن تصورها فكيف يجد القلم إلى وصفها سبيلاً . وأشرف هذه المجالس القصر الذي كان يُسمى قصر الخلافة قال المقري يصفه .

كان سقفه من الذهب والرخام الغليظ الصافي لونه ، المتلونة أجناسه وكانت حيطان المجلس مثل ذلك . وجعلت في وسطه اليتيمة التي اتحف الناصر بها ليون ملك القسطنطينية . وكانت قرامد هذا القصر من الذهب والفضة وكان في وسط هذا المجلس صهريج عظيم مملوء بالزئبق فإذا اراد الناصر ان يفزع أحداً من اهل مجلسه أومأ الى احد مواليه فيحرك حوض الزئبق فيظهر في المجلس نور يخطف الابصار بلمع لمعان البرق حتى يخيل للحاضرين ان المحل قد طار بهم . وكان في كل جانب من هذا المجلس ثمانية أبواب قد انعقدت على حنايا من العاج والابنوس المرصع بالذهب وأصناف الجواهر قامت على سواري من الرخام الملون والبلور الصافي . وكانت الشمس تدخل على تلك الابواب فيضرب شعاعها في صدر المجلس وحيطانه فيصير من ذلك نور يأخذ بالابصار .

أما ما يعد بالصواب مأثرة من مآثر الاندلس فهو جر الماء إلى قرطبة من الجبال التي حولها في أقنية غريبة الصنعة وايصالها إلى قصر الناعورة غربي قرطبة في الأنهار المهندسة وعلى الحنايا المعقودة حيث يجري ماؤها بتدبير عجيب وصنعة محكمة إلى بركة عظيمة عليها أسد عظيم الصورة بديع الصنعة شديد الروعة لم يشاهد أبهى منه في ما صور الملوك في غابر الدهر مطلى بذهب أبريز وعيناه جوهرتان لهما وميض شديد . يجوز الماء إلى عجز هذا الاسد فيمجه في تلك البركة من فيه فيبهر الناظر بحسنه وروعة منظره وثجاجة صبه فتسقى منه جنات هذا القصر على سعتها ويستفيض على ساحاته وجناته ويمد النهر الاعظم بما فضل منه فكانت هذه القناة وبركتها والتمثال الذي يصب فيها من أعظم آثار الملوك لبعد مسافتها واختلاف مسالكها وفخامة بنيانها وسمو ابراجها التي يرقى الماء منها ويتصوب من أعاليها .

ومن مباني الاندلس المشهورة قصر طليطلة ، شاده المأمون بن ذي النون وجلب اليه أهل الصناعة والمهندسين والمصورين من الاقطار واتقنه إلى الغاية وانفق عليه اموالاً طائلة وصنع في وسطه بحيرة وصنع في وسط البحيرة قبة

من زجاج ملوّن منقوش بالذهب وجلب الماء على رأس القبة بتدبير أحكمه المهندسون . فكان الماء ينزل من أعلى القبة على جوانبها محيطاً بها ويتصل بعضه ببعض فكانت قبة الزجاج في غلالة مما سكب خلف الزجاج لايفتر من الجري والمأمون قاعدٌ فيها لايمسه من الماء شيء ولا يصله وتوقد فيها الشموع فيرى لذلك منظر بديع[1] » . ولا يسعنا أن نستكمل وصف ما كان للأندلس من المتجر الوسيع والأثاث النفيس والمصنوعات الفاخرة والزخارف الزاهرة والنقوش الباهرة والمساجد المحكمة الشامخة والقصور المزوّقة الباذخة والصور والتماثيل والمحوكات والحياض والنواعير والفوارات الى غير ذلك من غرائب وعجائب وصفت بابيات من نظم ابن حمديس الصقلي[2] تشهد له بالوصف الشائق

---

(١) قال ابو محمد البصري يصف البركة والقبة عليها

شمسية الانساب بدرية	يحار في تشبيهها الخاطر
كأنما المأمون بدر الدجى	وهي عليه الفلكُ الدائر

(٢) قال في قصيدة يصف بها قصراً وبركة فيه عليها اشجار من ذهب وفضة تقع المياه من فروعها وعليها تماثيل اطيار وعلى حافاتها اسود قاذفة بالمياه ايضاً .

وضراغم سكنت عرين رياسةٍ	تركت خرير الماء فيه زئيرا
فكأنما غشى النضار جسومها	واذاب في افواهها البلورا
أسد كأنّ سكونها متحرك	في النفس لو وجدت هناك مثيرا
وتذكرت فتكاتها فكأنما	اقعت على أدبارها لتثورا
وتخالها والشمس تجلو لونها	ناراً والسنها اللواحس نورا
فكأنما سلت سيوف جداولٍ	ذابت بلا نار فعدنَ غديرا
وكأنما نسج النسيم لمائه	درعاً فقدر سردها تقديرا
وبديعة الثمرات تعبر نحوها	عيناي بحر عجائب مسحورا
شجرية ذهبية نزعت الى	سحر يؤثر في النهى تأثيرا
قد صوبحت اغصانها فكأنما	قبضت بهنّ من الفضاء طيورا
وكأنما تأبى لوقع طيرها	أن تستقل بنهضها وتطيرا
من كل واقعة ترى منقارها	ماء كسلسال اللجين غميرا
خرس تعدُّ من الفصاح فان شدت	جعلت تغرد بالمياه صفيرا

=

والنظم الرائق وللاندلسيين بحسن الذوق وكمال البراعة في البناء والنقش والتصوير والتزويق وسائر أنواع الزخرفة .

لقد اثبت المؤرخ آماري أن صقلية وايطاليا من بعدها مدينتان للعرب لا في العلوم فحسب بل وفي الآداب ايضاً فهم الذين أوجدوا فن القصة فيهما . وقد كتب الشاعر بطرركا[1] إلى صديقه الطبيب الشهير جيوفاني[2] يقول له: لقد بلغ علماء العرب وشعراؤهم وفلاسفتهم ورياضيوهم وخطباؤهم، كلٌ في فنه قمة المجد في السماء.

وكان اهتمامهم بالزراعة عظيماً فعملوا على رقيها واغنائها وأوجدوا طرق الري الصناعية في الحقول ولا تزال صقلية تحتفظ بكلمة ساقية[3] في الري كذلك لفظ رزمة[4] مأخوذة من العربية وهي تذكرنا بأصل صناعة كان لها دخل عظيم في انتشار العلوم والحضارة أي صناعة الورق التي كان العرب أول من ادخلها في أوروبا وانشأوا مصانع عظيمة للورق في صقلية والاندلس ومن ذلك الحين انتشرت صناعة الورق في ايطاليا كلها كذلك كلمة قطن مأخوذة

وكأنما في كل غصن فضة	لانت فأرسل خيطها مجرورا
وتريك في الصهريج موقع قطرها	فوق الزبرجد لؤلؤاً منثوراً
ضحكت محاسنهُ اليك كأنما	جعلت لها زهر النجوم ثغورا
ومصفح الابواب تبراً نظروا	بالنقش فوق شكوله تنظيرا
تبدو مسامير النضار كما علت	تلك النهود من الجنان صدورا
خلعت عليه غلائلاً ووشيهُ	شمس ترد الطرفَ عنه حسيرا
واذا نظرت الى غرائب سقفهِ	ابصرت روضاً في السماء نضيرا
وعجبت من خطافِ عسجده التي	حامت لتبني في ذراه وكورا
وضعت به صناعها اقلامها	فأرتك كل طريدة تصويرا
وكأنما للشمس فيه ليقَةٌ	مشقوا بها التزويق والتشجيرا
وكأنما اللازَوَرْد فيه مخرمٌ	بالخط في ورق السماء سطورا
وكأنما وشوا عليه ملاءة	تركوا مكان وشاحها مقصورا

(١) Petrarca (٢) Giovanni

(٣) Secchia (٤) Risma

من العربية ومثلها قباله [1] ومخزن [2] ويقول لويجي رينا لدي أن العربي مازال يحتفظ بصفاته العجيبة وذكائه النادر ونحن لم نصل الى ما وصلنا إليه من المعرفة إلا بفضلهم لقد كانوا موجدي المدنية وظلوا على اعـــلاء شأنها عاملين قروناً عديدة .

يقول الأستاذ جيرالدي: ان ظهور العرب في الغرب لحادث جليل يستحق أن يذكره الغربيون بالشكر والامتنان لأن مدنية هذا الشعب العظيم كان لها تأثير كبير في حياة الشعوب اللاتينية بل الاوروبية .

كان العالم اليوناني وأخوه الروماني قد سقطا في كل مكان عندما أخرج محمد العظيم خلفاءه من أبناء الصحراء ونشرهم في انحـاء العالم لفتحه وغزوه فانتشروا في كل مـكان وشيدوا ذلك الملك الزاهر الذي كان يمتد من بلاد الهند إلى بلاد الاندلس ومن بحر الخزر حتى المحيط الاطلسي .

وكان الرعايا المحكومون يعيشون في هذه البلاد الواسعة في راحة وسرور تحت حكم الأمراء المسلمين واعتبروهم خلال حقبة طويلة من الزمن منقذيهم من الظلم والعدوان والتسلط والطغيان . على هذا النحو انتشرت الثقافة العربية في اكثر البلاد الاوروبية ، وما زال أثر الثقافة العربية ظاهراً حتى اليوم في بعض المقاطعات الفرنسية المجاورة لبلاد اسبانيا ، فان شارل مارتل وإن واتاه الحظ لصد العرب إلى ما وراء جبال البرينه فقد خانه في منع تسرب ثقافتهم إلى بلاد الفرنسيين ، والاغاني الشعبية لتلك المقاطعات ما زالت تشهد بأنها مستمدة من الالحان العربية القديمة .

كانت المدة بين العصر الذي عاش فيه ارسطو وبين ذلك الذي عاش فيه ابن رشد تزيد على خمسة عشر قرناً ،ولذا يصح لنا أن نقول ان فلسفة ارسطو استغرقت في سيرها من اثينا الى الاندلس مدة طويلة كما انها اجتازت مسالك وعرة كادت تقضي عليها لو لم ينبر لها المسلمون .

---

(1) Gabella (2) Magasina

كانت اللغة العربية الوسيط في نقل تعاليم أرسطو مرة ثانية الى بلاد الغرب بعدما خبت نار العلم فيه فأذكتها من جديد . وكان طبيعياً أن تصطبغ فلسفة أرسطو بصبغات ثلاث هي : اليونانية فالمسيحية فالاسلامية وان تدون بلغات عدة هي السريانية فالعربية فاللاتينية ، وأن نضم اليها كثيراً مما كان يدين به المصريون والفرس والهنود ، الا أن اللغة العربية استطاعت أن تحتفظ بالاصل فتنقله بامانة واخلاص الى أبناء اوروبا ثانية . ولايخفى ان وحدة اللغة ووحدة الدين كانتا اكبر العوامل في حفظ تراث اليونان والرومان ونقله من الغرب ورده ثانية اليه .

ان اللغة العربية بآدابها العالية التي تحببها الى نفوس الباحثين والتي ستبقيها دائماً في مستوى اللغات الحية الاخرى أسدت أعظم خدمة الى البشرية عندما احتفظت بالتراث العلمي القديم في زمن كان فيه الغرب في ظلام دامس من الجهل ومن الأمية ، وان سحر اللغة العربية وتشبع أبنائها بالروح العلمية كانا من أعظم أسباب البحث العلمي الحديث .

وخلاصة القول ، لقد كان تأجج الفكر العربي في السنوات التي أعقبت انتشار الاسلام شبيهاً بتوهج النور من نار كامنة تحت الرماد أيقظها الظفر ولقد اتصف العالم العربي بنشاط زائد واندفاع قوي لا مثيل له في تاريخ الحركة الفكرية حتى يصح القول بأنه إذا وصف اليوناني بأنه أب العلم جاز القول أن العربي خلفه ولولاه لاضمحل علم العالم المعروف آنذاك ولأصبح أثراً بعد عين ولانطفأت الشعلة العلمية التي وهبها الفكر اليوناني للعالم .

لقد أضاء العلم العربي بأشعته العلمية العالم المعروف آنذاك وبسطها فيه وليس في الدنيا ماحيا كي توقد شعلة العلم العربي وانتشاره . ولم يكتف العرب بنقل العلوم بل بسطوها تارة ووسعوها طوراً وشرحوها أحياناً وأضافوا اليها الكثير .

لقد ناقش الفكر العربي القضايا العلمية التي جمعها من علوم المدنيات السابقة مناقشة فيها بساطة وصراحة وتحليل[1] أدى الى تقرير آراء ثاقبة فيها ، كشف

---

(١) كلمات منقولة عن كتاب ولز في تاريخ العالم

عما يكتنف بعض القضايا العلمية من غموض وأزال عنها كل التباس وتعمية وبرأها من الابهام والشكوك وقدم كثيراً منها الى العالم حقائق راهنة .

كانت طريقة العربي أن تجلي الغامض وتبسط المعقد وقد انتقل الينا نحن الغربيين حب نشدان النور من العرب لا من اللاتين[1] .

لقد نقلنا لك أيها القارىء الكريم نتفاً من شهادات الغربيين في الحضارة العربية وذلك لتزيد ايمانك بامكان بعثها من جديد وأرى لزماً علي أن انقل لك أقوالا مؤلمة مزعجة بجانب تلك الاقوال المبهجة .

يقول ولزوبراند في أبحاثهما عن حضارة العرب والاسلام جملاً تستجلب اليها الانظار ولو كانت الحقيقة التي فيها مؤلمة : ان كل هذا النشاط الفكري حصل في العالم العربي الاسلامي في وسط الاضطراب السياسي والقلق ، فان العرب لم يوفقوا في وقت من الاوقات الى نظام حكومي ثابت آمن من غوائل الاضطراب والانقلاب ، بل جميع الحكومات التي أسسوها كانت عرضة للزلازل والمكايد والغيلة . إلا أنه برغم هذه الهزاهز المستمرة وهذا القتل الذي يكاد يكون متصلاً ، وهذه الفتن الطويلة العريضة بين الاحزاب كان لروح الاسلام نظام خاص مطرد بادي التأثير في حياة الامة ماسك بها عن التهور . ولقد ذهب ولز الى ان الاسلام كاد يفتح العالم أجمع لو بقي سائراً سيرته الاولى ولم تنشب في وسطه من اول الامر الحرب . فقد كان هم عائشة ان تقهر علياً قبل كل شيء وكان هم كل من الفريقين العلوي والاموي ان يستولي على الخلافة الى غير ذلك من الآراء التي نجدها في كتب المحققين من علماء التاريخ والتي لا نقدر مع الاسف أن نقول أنها غير صحيحة ولكن فيها نظر .

---

(٢) جملة منقولة من كتاب حاضر العالم الاسلامي لمؤلفيه دارير الامركي وولز الانجليزي.

الفصل الثاني

حال الغرب في شباب الاسلام[1]

في القرون التي كانت فيها العرب تنعم بلذائذ العقل والعمل ، وتأخذ من مسرات الحياة الفاضلة بأوفر نصيب ، ويهاب سطوتها البادي والحاضر في كل قطر استصفته أو لم تستصفه ، وتؤلف أمة منطوية على علم كثير ، وأدب غزير ، وتعرف لها وثبات ظاهرة ، وحكومات ناهضة ، في هذه القرون كان الغربيون متوحشين جاهلين ، لايعرفون طعم الراحة ، ولايتذوقون عيش الرفاهية ، لاأمن ولاإدارة ، ولاملوك يعرفون واجبهم في إقامة العدل وتوطيد الامن ، وهم في كل أحوالهم الى حالة البوادي أقرب منهم الى حياة المدن والحضارة .

كانت انجلترا[2] الانجلوسكسونية في القرن السابع الميلادي الى مابعد العاشر فقيرة في أرضها ، منقطعة الصلات بغير بلادها ، سمجة وحشية ، تبنى البيوت بحجر غير نحت ، وتشيدها من تراب مدقوق ، وتجعلها في وطء من الارض: مساكن ضيقة المنافذ ، غير محكمة الإغلاق ، واصطبلات وحظائر لانوافذ لها ، تقرض الامراض والاوبئة المتكررة المواشي والسائمة ، وهي المورد الوحيد في البلاد ولم يكن الناس أحسن مسكناً وأمناً من الحيوانات . يعيش رئيس القبيل في كوخه مع أسرته وخدمه ومن اتصل به ، يجتمعون في قاعة كبرى في وسطها كانون ينبعث دخانه من ثقب فتح في السقف فتحاً غليظاً ، ويأكلون كلهم على خوان واحد ، يجلس السيد وقرينته في أحد أطراف المائدة ، ولم تكن الشوكات معروفة ، وبالاقداح حروف من أسفلها ، فكان على كل مدعو أن يمسك بيده قدحه أو يفرغه في فيه دفعة واحدة ، وينتقل السيد الى غرفته في المساء ، بعد أن

---

(١) ننقل اكثر ماجاء في هذا البحث عن كتاب الاسلام والحضارة لمؤلفه المغفور له الاستاذ العلامة محمد كرد علي .

(٢) التاريخ العام للافيس ورامبو .

يتناولوا الطعام ويعربدوا على الشراب ، ثم ترفع المنضدة والصقالات ، وينام جميع المجتمعين في تلك القاعة على الارض أو على دكات ، واضعاً كل فرد سلاحه فوق رأسه ، لان اللصوص كانوا من الجرأة بحيث يقتضي على الناس أن يقفوا لهم بالمرصاد كل حين ، لئلا يؤخذوا على غرة .

وكانت أوربا في ذلك العهد غاصة بالغابات الكثيفة ، متأخرة في زراعتها ، وتنبعث من المستنقعات الكثيرة في أرباض المدن روائح قتالة ، تجتاح الناس وتحصدهم ، وكانت البيوت في باريز ولندرا تبنى من الخشب والطين المعجون بالقش والقصب ، ولم يكن فيها منافذ ولا غرف مدفئة . وكانت البسط مجهولة عندهم ، لابساط لهم غير القش ، ينشرونه على الارض ، ولم يكونوا يعرفون النظافة ، ويلقون بأحشاء الحيوانات وأقذار المطابخ أمام بيوتهم ، فتتصاعد منها روائح مزعجة . وكانت الاسرة كلها تنام في حجرة واحدة تضم الرجال والنساء والاطفال ، وكثيراً ما كانوا يؤون معهم الحيوانات الداجنة ، وكان السرير عندهم عبارة عن كيس من القش ، فوقه كيس من الصوف ، يجمل مخدة أو وسادة ، ولم يكن للشوارع مجار ولا بلاط ولا مصابيح . قال درابر : وكان من أثر ذلك أن عمت الجهالة أوربا ، وساورتها الاوهام ، فانحصر التداوي في زيارة الاماكن المقدسة ، ومات الطب وحييت أحابيل الدجالين ، فكانت الاوبئة تفتك بهم فتكاً ذريعاً ، وقد زارت أوربا مرارا فاجتاحت الملايين من أهلها في أيام قليلة .

كان العالم القديم يقتسمه في القرن الحادي عشر[1] مدنيتان : في الغرب مدن حقيرة صغيرة ، وأكواخ فلاحين ، وقلاع لاهندسة لها ، وبلاد مضطربة على الدوام بالحرب ، لايتأتى أن يسير فيها السائر عشرة فراسخ دون أن يسلب وينهب . وفي الشرق مدن القسطنطينية والقاهرة ودمشق وبغداد وجميع مدن ألف ليلة وليلة ، بما فيها من قصور المرمر والمعامل والمدارس والاسواق والحدائق الممتدة

---

(١) التاريخ العام لمكسيم بتي .

على بضعة فراسخ ، وبرية تروى أحسن إرواء خاصة بالقرى والضياع ، وحركة التجار لاتنقطع ، يذهبون بسلام من اسبانيا الى فارس . قال سنيوبوس : ولاشك أن العالم الاسلامي والعالم البيزنطي كانا أغنى واحسن نظاماً ونوراً من العالم الغربي ومن يحب ان يتعلم يقصد الى مدارس العرب . وبدأ العالمان الشرقي والغربي في القرن الحادي عشر يتعارفان . ولقد دهش[1] الصليبيون في القرن الخامس من الهجرة لما بلغوا الشرق ووقعت أعينهم على مدن حافلة منظمة في بيزنطية والشام وغيرهما من بلاد الاسلام إذ ما كان لهم عهد بغير قرى حقيرة ودساكر لاشأن لها في بلادهم .

وبينا كان شارلمان أعظم ملوك أوربا ، وهو معاصر للرشيد العباسي ، وصاحب فرنسا وجرمانيا وشمالي إيطاليا ، أقرب الى الامية منه الى النور ، كانت كتب الفلسفة والعلوم المادية والأدبية يتنافس فيها علماء العرب في بغداد وقرطبة ، وتترجم للمنصور العباسي الكتب من اللغة العجمية[2] الى العربية ، منها كتاب كليلة ودمنة وكتاب السند هند ، وتترجم له كتب أوسطاطاليس من منطقيات وغيرها ، وكتاب أقليدس وكتاب الارثماطيقي ، وسائر الكتب القديمة من اليونانية والفهلوية والفارسية والسريانية ، وتخرج الى الناس فينظرون فيها ويتعلقون الى علمها . ومعظم الخلفاء الأول من بني العباس يشرفون على علوم الناس وآرائهم من تقدم وتأخر من الفلاسفة وغيرهم من الشريعيين ، وتجري في مجالسهم مباحث في انواع العلوم من العقليات والسمعيات في جميع الفروع والاصول .

وبينا يقوم في العرب اعلم خلفائهم المأمون العباسي الذي قلما جاء حتى في ملوك الغرب من يدانيه بعلمه وعقله ، يطلب الى ملك الروم لما غلبه كتب العلم التي عنده ، وهو عمل مدهش لم يعهد لملك ولا لحكومة أن طلبت مثله من عدوها في قديم الدهر وحديثه ، وبه يعرف قدر المأمون وتفانيه في خدمة الانسانية

---

(١) التاريخ العام للافيس ورامبو . (٢) مروج الذهب للمسعودي .

كما قال فرّان[1] ويستمتع الناس في ايامه بنعمة الحرية العلمية والوجدانية، حتى عد عصره عند العرب كعصر بركليس في آثينة وعصر أغسطس في رومية ، بينا كانت الحال عند العرب على ماذكر كان شارلمان يحاول أن يتعلم ويتحبب الى الآداب[2] تحبباً ساذجاً ، كما يحب غير المتعلمين ان يروا احياناً السطور المكتوبة وتشبه آداب عصره ادب صبيان المدارس وتماوينهم اليوم . ولم يكن في غاليا شيء يشبه الادب ، وما دوّن اهلها قط كتاباً ولا اخباراً . وكانت الكتابات الرسمية التي لا يستغنى عنها كالمواثيق والهبات والوصايا تكتب باللغة اللاتينية البربرية ، وهي من سقم الخط بحيث يصعب حلها ، ولا يمتاز شرفاء القرون الوسطى بتعلمهم وتهذيبهم عن الفلاحين ، وكان معظم الزعماء يجهلون القراءة ، ولا همّ لهم غير الشراب والطعام والصيد والحرب ، وهم في العادة جفاة غلاظ شداد . فقد قتل ريشاردس قلب الأسد مثال الفروسية ٢٥٠٠ أسير من العرب وفقأ عيون خمسة عشر فارساً كان لهم يد في حرب أثارها على فيليب أغسطس ، وكثيراً ما كانوا يفقأون عيون النساء ويجدعون أنوفهن ، ولم يزل هذا الاغراق في الشدة والقسوة البربرية مألوفاً الى القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر ، وقست بحياة التشرد على هذا النحو قلوب الفرسان ، وغلظت طباعهم ، وغدوا يتقاتلون لأقل سبب ، ولا قصد لهم من تقاتلهم الا السلب والنهب ، ومن الفرسان من كان يقف على قارعة الطريق ، يستوقف التجار ويسلبهم ويسجنهم ويعذبهم ، ليكرههم على أن يفتدوا بالمال أنفسهم ، وليس عندهم أمن ولا أمان.

بل فقد من غاليا على عهد شرلمان ، وبعده بزمن طويل كل اهتمام بشيء يقال له الثقافة العامة[3] ، وأصبحت اللغة اللاتينية ، وهي اللغة المكتوبة الوحيدة على غاية من الفساد ، وأصبح الكتاب أندر من الكبريت الاحمر .

أما صنائعهم السائرة فهي من العبث والفساد بالمحل العالي . وذكر

---

(١) غرائب الغرب . (٢) تاريخ الحضارة لسنيوبوس .

(٣) البرابرة للويز هالبن Louis Halpen: Les Barbares .

روبرتسون[١] أنهم عثروا على عدة قوانين ووثائق صادرة عن أهل الطبقة الاولى من الاعيان ، يستدل منها أنهم كانوا اميين ، بل كان هربون اعظم قضاة الدولة أمياً ، وكان دجسلين رئيس الجيوش الفرنسية في القرن الرابع عشر وأعظم رجال عصره أمياً ، كانت الكتب نادرة الوجود لا تتعدى أسوار البيَع . وما خرج الغربيون من الجهل إلا باختراع الطباعة في القرن الخامس عشر . وذكر القزويني[٢] أن تجاراً من العرب ذهبوا الى شلشويق ـ من بلاد الدانيمرك اليوم ـ لاستحضار العنبر فوصفوا أهلها بأنهم وحوش عراة يسترون عوراتهم بقطع من الجلود.

هكذا كانت أوربا الغربية وما اليها ، أما حال أوربا الشرقية فكانت الى الهمجية المطلقة ، بل إن تاريخ روسيا لم يكن بدأ في القرن التاسع للمسيح . وكانت تلك البلاد الواسعة مسرحاً لبعض قبائل الصقالبة ، يتسلط عليها التتر ويسومونها سوء العذاب . بل دامت أيام الجهالة في روسيا الى ما بعد ذلك العهد بقرون.

وقد جاء عن الروس في معجم البلدان قول المقدسي : هم في جزيرة وبئة تحيط بهم بحيرة وهي حصن لهم من أرادهم ، وجملتهم على التقدير مائة الف انسان وليس لهم زرع ولا ضرع والصقالبة يغيرون عليهم ويأخذون اموالهم واذا ولد لاحدهم مولود القي اليه سيفاً وقال له ليس لك الا ما تكسبه بسيفك وقرأت في رسالة احمد بن فضلان ابن العباس بن راشد بن حماد رسول المقتدر الى ملك الصقالبة حكى فيها ما عاينه قال ورأيت الروسية فلم ار أتم ابداناً منهم كأنهم النخل شقر حمر يلبس الرجل منهم كساء يشتمل به على احد شقيه ويخرج احدى يديه منه ومع كل واحد منهم سيف وسكين وفاس لا يفارقه ، ومن حد ظفر الواحد منهم الى عنقه مخضّر شجر وصور وغير ذلك وكل امرأة منهم على ثديها حقة مشدودة اما من حديد واما من نحاس واما من فضة واما من ذهب على قدر مال زوجها وفي اعناقهم اطواق ذهب وفضة ، واجل الحلي عندهم الخرز الاخضر وهم لا يستنجون من غائط ولا يغتسلون يجيئون من بلدهم فيرسون سفنهم باتل ـ الفولغا ـ وهو نهر كبير ويبنون على شاطئه بيوتاً كباراً من الخشب ويجتمع في البيت الواحد العشرة والعشرون والاقل والاكثر ولكل واحد منهم سرير يجلس عليه ومعه جواريه للبيع ، ولا بد لهم في كل يوم بالغداة ان تأتي الجارية ومعها قصعة كبيرة فيها ماء فتقدمها الى مولاها فيغسل فيها وجهه ويديه وشعر راسه فيغسله ويسرحه بالمشط في القصعة ثم يتمخط ويبصق فيها ولا يدع شيئاً من القذر الا فعله في ذلك الماء فاذا فرغ مما يحتاج اليه حملت الجارية القصعة الى الذي يليه فيفعل مثل ما فعل صاحبه ولا تزال ترفعها من واحد الى واحد حتى تديرها على جميع من في البيت . وساعة موافاة سفنهم الى هذا المرسى يخرج كل واحد منهم ومعه خبز ولحم ولبن وبصل ونبيذ حتى يوافي خشبة طويلة منصوبة لها وجه يشبه وجه الانسان وحولها صور صغار وخلف تلك الصور خشب طوال قد نصبت في

---

(١) تاريخ شارلكان لروبرتسون (٢) آثار البلاد واخبار البلاد للقزويني

الارض فيوافي الى الصورة الكبيرة ويسجد لها ثم يقول يا رب قد جئت من بعد ومعي من الجواري كذا وكذا راساً ومن السمور كذا وكذا جلداً حتى يذكر جميع ما قدم معه من تجارته ثم يقول وقد جئتك بهذه الهدية ثم يترك ما معه بين يدي الخشبة ويقول اريد ان ترزقني تاجراً معه دنانير فيشتري مني كلما اريد ولا يخالفني في جميع ما اقول ، فاذا مرض منهم الواحد ضربوا له خيمة ناحية منهم وطرحوه فيها وجعلوا معه شيئاً من الخبز والماء ولا يقربونه ولا يكلمونه بل لا يتعاهدونه في كل ايامه لا سيما ان كان ضعيفاً او كان مملوكاً فان برأ وقام رجع اليهم وان مات احرقوه وان كان مملوكاً تركوه على حاله تأكله الكلاب وجوارح الطير . .

وكان يقال لي انهم كانوا يفعلون برؤسائهم عند الموت اموراً اقلها الحرق فكنت احب ان اقف على ذلك حتى بلغني موت رجل منهم جليل فجعلوه في قبره وسقفوا عليه عشرة ايام حتى فرغوا من قطع ثيابه وخياطتها وذلك ان الرجل الفقير منهم يعملون له سفينة صغيرة ويجعلونه فيها ويحرقونها والغني يجمعون ماله ثلاثة اثلاث فثلث لاهله وثلث يقطعون له ثيابا وثلث يشترون به نبيذاً يشربونه يوم تقتل جاريته نفسها وتحرق مع مولاها وهم مستهترون بالخمر يشربونها ليلا ونهاراً وربما مات الواحد منهم والقدح في يده ، فلما مات ذلك الرجل الذي قدمت ذكره قالوا لجواريه من يموت معه فقالت احداهن انا فوكلوا بها جاريتين تحفظانها وتكونان معها حيث ما سلكت حتى انهما ربما غسلتا رجليها بايديهما واخذوا في شانـــه وقطع الثياب له واصلاح ما يحتاج له والجارية في كل يوم تشرب وتغني فارحة مستبشرة فلما كان اليوم الذي يحرق فيه هو والجارية حضرت الى النهر الذي فيه سفينته فاذا هي قد اخرجت وجعل لها اربعة اركان من خشـــب ثم جاؤا بسرير فجعلوه على السفينة وغشوه بالمضربات من الديباج الرومي ، ثم جاءت امراة عجوز يقولون لها ملك الموت ففرشت على السرير الذي ذكرناه وهي وليت خياطته واصلاحه وهي تقتل الجواري فلما وافوا قبره نحوّا التراب عن الخشب واستخرجوه في الازار الذي مات فيه فرايته قد اسود فالبسوه سراويل وجعلوا على راسه قلنسوة من ديباج سمور وحملوه حتى ادخلوه القبة التي على السفينة واجلسوه واسندوه بالمســـاند وجاءوا بالنبيذ والفواكه والريحان فجعلوه معه وجاؤا بكلب فقطعوه نصفين والقوه في السفينة ثم جاؤا بجميع سلاحه فجعلوه الى جانبه والجارية التي تقتل ذاهبة وجائية تدخل قبة قبة من قبابهم ، فلما كان وقت العصر من يوم الجمعة جاؤا بالجارية فوضعت رجلها على اكف الرجال وتكلمت بكلام لها فانزلوها ثم اصمدوها ثلاثة ثم دفعوا لها دجاجة فقطعت راسها ورمت به فسالت الترجمان عن فعلها فقال قالت في المرة الاولى هوذا ارى ابي وامي وقالت في المرة الثانية هوذا ارى جميع قرابتي الموتى قعـــدوا وقالت في المرة الثالثة هوذا ارى مولاي قاعدا في الجنة والجنة حسنة خضراء ومعه الرجال والغلمان وهو يدعوني فاذهبوا بي اليه فمروا بها نحو السفينة فنزعت سوارين كانتا معها فدفعتها الى المراة العجوز التي تسمى ملك الموت وهي التي تقتلها ونزعت خلخالين وأعطتها لابنتي تلك العجوز اللتين كانتا تخدمانها ثم صعدوها الى السفينة ولم يدخلوها الى القبة وجاء الرجال ومعهم التراس والخشب ودفعوا اليها قدحاً من نبيذ فغنت عليه وشربته فقال لي الترجمان انها تودع صواحباتها

بذلك ثم دفع اليها قدح آخر فاخذته وطولت الغناء والعجوز تستحثها على شربه والدخول الى القبة التي فيها مولاها فرايتها وقد تبدلت وارادت الدخول الى القبة فادخلت راسها بين القبة والسفينة فاخذت العجوز راسها وادخلتها القبة ودخلت معها العجوز واخذ الرجال يضربون بالخشب على التراس لئلا يسمع صوت صياحها فيجزع غيرها من الجواري فلا يطلبن الموت مع مواليهن ثم دخل القبة ستة رجال ثم اضجعوها الى جنب مولاها الميت وامسك اثنـــان رجليها واثنان يديها وجعلت العجوز التي تسمى بملك الموت في عنقها حبلا مخالفا ودفعته الى اثنين ليجذباه واقبلت العجوز ومعها خنجر عظيم عريض النصل تدخله بين اضلاعها موضعاً موضعاً وتخرجه والرجلان يخنقانها بالحبل حتى ماتت ثم وافى اقرب الناس الى ذلك الميت فاخذ خشبة فاشعلها بالنار ثم مشى القهقري نحو قفاه الى السفينة والخشبة في يده الواحدة ويده الاخرى على استه وهو عريان حتى احرق ذلك الخشب الذي قد عبوه تحت السفينة من بعد ما وضعوا الجارية التي قتلوها في جنب مولاها ثم وافى الناس بالخشب والحطب ومع كل واحد خشبة وقد الهب رأسها فيلقيها في ذلك الخشب فتاخذ النار في الحطب ثم في السفينة ثم في القبة والرجل والجارية وجميع مافيها ثم هبت ريح عظيمة هائلة فاشتد لهب النار واضطرم تسعرها وكان الى جانبي رجل من الروسية فسمعته يكلم الترجمان الذي معه فسالته عما قال له فقال انه يقول انتم معاشر العرب حمقى لانكم تعمدون الى احب الناس اليكم واكرمهم عليكم فتطرحونه في التراب فتاكله الهوام والدواب ونحن نحرقه بالنار في لحظة فيدخل الجنة من وقته وساعته ثم ضحك ضحكا مفرطاً وقال من محبة ربه له قد بعث الريح حتى تاخذه في ساعته فما مضت على الحقيقة ساعة حتى صارت السفينة والحطب والرجل الميت والجارية رماداً رمدداً ثم بنوا على موضع السفينة وكانوا اخرجوها من النهر شيئاً بالتل المدور ونصبوا في وسطه خشبة كبيرة وكتبوا عليها اسم الرجل واسم ملك الروس وانصرفوا[1] ..

ولم تخلص روسـيا في الحقيقة من كابوس الجهل المطبق الا في القرن الثامن عشر . ومثل ذلك يقال في سائر بلاد الغرب حاشا ايطاليا ، فان برابرة الشمال قضوا على مدينة الرومان فيها ، وسلمت لهم بعض عاداتها ومصانعها ، فكانت للأخلاف بمثابة حافز لهم على الترقي ، فانبعثت النهضة بعد قرون من بين أظهر القوم ، وسرى قبس نورها في القرن الرابع عشر الى معظم الاصقاع الاوربية .

المقابلة بين بلاد العرب وبلاد الافرنج : كان الغربيون كما قال « دوزي » [2] في ظلام الجهالة ، لا يرون النور إلا من سم الخياط ،

---

(١) نقلت ذلك عن معجم البلدان كلمة روس وقد جاء في آخره قول ياقوت الحموي : هذا مانقلته من رسالة ابن فضلان حرفا حرفا وعليه عهده مما حكاه والله اعلم بصحته.. ومما يجدر ذكره ان هذه الرسالة طبعها المجمع العلمي بدمشق بعد ان حقق فيها عضوه الدكتور سامي الدهان.

(٢) تاريخ المسلمين في اسبانيا لدوزي .

والنور لا يسطع إلا من جانب الامة الاسلامية ، من علوم وأدب وفلسفة وصناعات وأعمال يد وغير ذلك . وبغداد والبصرة وسمرقند ودمشق والقيروان ومصر وفارس وغرناطة وقرطبة هي المراكز العظيمة للعلم. وعواصم أوربا التي ندهش بها اليوم أشبه بقرى ، لا علم فيها ولا عمران ، وهي متأخرة في كل شؤونها المادية والادبية . وما كانت في بلاد الاسلام مدرسة ولا جامع ولا بلد ولا دار كبرى تخلو من خزائن كتب مسبلة على المطالعين . هذا مع عزة المخطوطات في ذاك العهد ، يجتمع في تلك الدور العالمون ، يقرأون ويتباحثون ويتدارسون ، تساوى في ذلك الرجال والنساء . وكانت المدارس في المدن والقرى وفي الأندلس خاصة مبذولة لكل طالب ، حتى قال أحد مؤرخي الافرنج ان معظم سكان إسبانيا الاسلامية كانوا يقرأون ويكتبون ، في زمن كان أهل الطبقة العليا في أوربا أميين. وقال روبرتسون كان في اسبانيا في ابتداء القرن الخامس عشر مدن كثيرة أعمر من باقي مدن أوربا حاشا مملكتي ايطاليا وبلاد القاع ، وكان العرب أنشأوا في مدنهم معامل ومصانع أيام كانوا حاكمين فيها.

وغصت بلاد المسلمين بالمجامع العلمية مؤلفة من علماء لا ينظر في اختيارهم الى الدين الذي يدينون به ، بل يراعى فيه علمهم واختصاصهم ، وكان الخلفاء والملوك والعظماء يجمعون المشتغلين في قصورهم ، يتذاكرون أصناف العلوم ، وما كان مجلس لهم يخلو من عالم أو علماء ، ينصت الحضور له ويأخذون عنه ، ومنهم من كان يستصحب العلماء في غزواته ، أو يصحب أحمالا من الكتب في رحلاته ، لان نفسه تفطم عن كل شيء إلا عن الابحاث العلمية وغيرها ، وكان المنصور بن أبي عامر الاندلسي ، وأمير المؤمنين المأمون في بغداد في جملة عشرات من الرجال كان هذا شأنهم .

وذكر جبون خلال كلامه على حماية المسلمين للعلم في الشرق والغرب ، أن ولاة الاقاليم والوزراء ، كانوا ينافسون الخلفاء في اعلاء مقام العلم والعلماء ، وبسط اليد في الانفاق على بيوت العلم ، ومساعدة الفقراء على طلبه ، فانتشر من ذلك ذوق العلم ، ووجدت اللذة في تحصيله بين الناس ، من سمرقند وبخارى الى فاس وقرطبة . قال وقد أنفق وزير لاحد السلاطين « نظام الملك » مائتي الف

دينار على بناء مدرسة بغداد «النظامية» وجعل لها من الريع خمسة عشر ألف دينار في السنة تصرف عليها، وكان الذين يغذون بالمعارف فيها ستة آلاف تلميذ فيهم ابن أعظم العظماء في المملكة وابن أفقر الصناع فيها، غير أن الفقير ينفق عليه من الريع المخصص للمدرسة، وابن الغني يكتفي بمال أبيه، والمعلمون ينقدون رواتب وافرة.

بينا كان في الاندلس عبد الرحمن الثالث الاموي[1] (٣٠٠- ٣٥٠هـ) عالم الملوك وحامي الآداب والعلوم والصنائع والتجارة ورب السيف والقلم الذي أصبحت إسبانيا بأعماله وأعمال أخلافه أحسن الممالك حضارة وحسن ادارة في القرون الوسطى، كنت ترى في رعيته بل في عماله من يقرعه، لانه بنى قصر الزهراء واستفرغ جهده[2] في تنجيدها، واتقان قصورها وزخرفة مصانعها. وانهمك في ذلك حتى عطل شهود الجمعة بالمسجد الجامع، يقوم قاضي الجماعة بقرطبة منذر بن سعيد البلوطي، ويعظه على المنبر مبتدئاً خطبته بقوله تعالى: «أتبنون بكل ريع[3] آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون، وإذا بطشتم بطشتم جبارين فاتقوا الله وأطيعون، واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم». ثم يفضي الى ذم المشيد والاستغراق في زخرفته والسرف في الانفاق عليه، ويتلو فيه قوله تعالى: «أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا[4] جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لايهدي القوم الظالمين، لايزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم[5] والله عليم حكيم». ويأتي بما شاكل ذلك من التخويف والوعظ فيبكي الناس والخليفة، ويشكو هذا الى ولده الحكم تقريع منذر بن سعيد له

---

(١) معلمة الاسلام. (٢) مطامح الانفس للفتح بن خاقان.

(٣) سورة الشعراء ٢٦ آيات ١٢٨ الى ١٣٥. الريع: المكان المرتفع. وآية بناء علماً للمارة. وتعبثون: تسخرون.

(٤) سورة التوبة ٩ آية ١١٠ وآية ١١١ شفا طرف. والحرف الجانب، وهار مشرف على السقوط، وانهار به سقط به.

(٥) ريبة شك وتقطع قلوبهم تنفصل بأن يموتوا.

مقسماً أن لا يصلي خلفه الجمعة أبداً . ويقول له الحكَم : « وما الذي يمنعك عن عزل منذر بن سعيد والاستبدال به » فيزجره وينتهره ويقول : أمثل منذر ابن سعيد في فضله وورعه وعلمه وحلمه ، لا أم لك ، يعزل إرضاء لنفس ناكبة عن الرشد هذا مالا يكون ، وإني لاستحي من الله تعالى ألا أجعل بيني وبينه شفيعاً في صلاة الجمعة مثل منذر بن سعيد ، ولكنه قد وقذ(١) نفسي ويكاد يذهبها ، والله لوددت أن أجد سبيلاً الى كفارة يميني بملكي . بل يصلي بالناس حياته وحياتنا ، فما أظننا نعتاض منه أبداً .

وبينا أهل أوربا كلهم عبيد ملوكهم وزعمائهم ، لا يجسر إنسان أن ينقد عملاً أو يعترض على سياسة ، كان رجال الاسلام يقدمون على وعظ الخلفاء ، ولا يهابون سطوتهم ولا بطشهم ، كمقام رجل من العباد عند المنصور العباسي يوم قال له : « وهل دخل أحد من الطمع مادخلك ، إن الله استرعاك أمر عباده وأموالهم فأغفلت أمورهم واهتممت بجمع أموالهم ، وجعلت بينك وبينهم حجاباً من الجص والآجر ، وأبواباً من الحديد، وحراساً مع السلاح ، ثم سجنت نفسك عنهم فيها ، وبعثت عمالك في جبايات الاموال وجمعها ، وأمرت أن لا يدخل عليك أحد من الرجال إلا فلان وفلان نفراً سميتهم ، ولم تأمر بايصال المظلوم ولا الملهوف ولا الجائع العاري اليك ، ولا أحد الا وله في هذا المال حق ، فلما رآك هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك ، وآثرتهم على رعيتك ، وأمرت أن لا يحجبوا دونك ، تجبي الاموال وتجمعها ، قالوا هذا قد خان الله فمالنا لا نخونه ، فأتمروا أن لا يصل اليك من علم أخبار الناس شيء إلا ما أرادوا ولا يخرج لك عامل إلا خونوه عندك ونفوه ، حتى تسقط منزلته عندك . فلما انتشر ذلك عنك وعنهم عظمهم الناس وهابوهم وصانعوهم ، فكان أول من صانعهم عمالك بالهدايا والاموال ، ليقووا بها على ظلم رعيتك ، ثم فعل ذلك ذوو المقدرة والثروة من رعيتك ، لينالوا ظلم من دونهم ، فامتلأت بلاد الله

---

(١) الوقذ: شدة الضرب وقذه يقذه وقذاً ضربه حتى استرخى واشرف على الموت .

بالطمع ظلماً وبغياً وفساداً ، وصار هؤلاء القوم شركاءك في سلطانك وأنت غافل ، فان جاء متظلم حيل بينك وبينه .

هكذا كان المسلمون في العالم حكاماً ومحكومين ، السلطان يعمل والواعظ يعظ . والناس آمنون والحرية مشاعة شاملة . وبهذه الحرية التي تمتع بها العرب في دولهم ، قبل أن تعرف معناها أمة من الامم قبلهم ، نشأ رجال في السياسة والحرب والادارة والعلم والفن والصنائع والتجارة كانوا غرة في جبين الدهر ، ولو جئنا نعدهم ونشير الى مارزقوا من ثقوب أذهان ، ووفرة علم ، وسمو أخلاق ، ولطف حيلة ، لاقتضى الخروج عن حد الايجاز ، وبأدنى نظر في سيرهم يثبت لنا أن دينهم لم يحل دون مدنيتهم ، من الظهور بهذا المظهر الخلاب الذي استهوى كل من عرفه ، ولاريب أن قليلاً في رجال الغرب قبل عصر النهضة من بلغوا في الفضل والكمال مبلغ رجال الامويين في الشرق والاندلس وبعض رجال العباسيين ، بل مبلغ رجال ملوك الطوائف ، وقليل جداً في الغرب من كانوا متصفين بصفات الخير أمثال الصاحب ابن عباد وابن العميد وركن الدولة ابن بويه ومنصور بن نوح الساماني وأبي الفداء ومحمود بن سبكتكين وصلاح الدين ونور الدين وطغتكين والمنصور بن أبي عامر وعشرات بل مئات بيضوا وجه الانسانية بأعمالهم الصالحة ، وبنبوغهم في معاناة أحوال الناس وحملهم على الجادة ، لينعموا بالسعادتين الدنيوية والاخروية .

وكان الغربيون خلال القرون الطويلة التي كان فيها العرب أنجب أمة من أمم الخليقة يترامى اليهم من طريق الاندلس وصقلية وايطاليا أولا ؛ ثم من طريق الصليبيين ، ماتم في بلاد العرب والمسلمين من الرقي ، فتصبو نفوسهم الى تحقيق مثله أو بعضه في ربوعهم ، وأنى لهم وفرسانهم وملوكهم كانوا أدوات للتدمير لا للتعمير ، تغلب الفظاعة على أعمالهم ، والسماجة تقرأ في تضاعيف مجتمعهم ، وحضارتهم على حالة ابتدائية ، كلما حفزها حافز عادت أدراجها بعوامل التقهقر المغروسة فيها .

كلمات لبون عن تأثير العرب في الغرب : كان تأثير العرب في الغرب عظيما، واليهم يرجع الفضل في حضارة أوربا ، ولم يكن نفوذهم في الغرب أقل مما كان في الشرق ، ولكنه كان يختلف عنه . لقد أثروا في بلاد المشرق بالدين واللغة والصنائع ، أما في الغرب فلم يؤثروا في الدين ، بل بتعاليمهم العلمية والأدبية والاخلاقية ، ولا يتأتى للمرء معرفة التأثير العظيم الذي أثره العرب في الغرب، إلا إذا تصور حالة أوربا في الزمن الذي دخلت فيه الحضارة العربية اقد كانت المدنية الاسلامية في اسبانيا زاهرة باهرة ، بينما كانت المراكز الرفيعة في عامة بلاد الغرب عبارة عن مجموعة أبراج يسكنها سادة نصف متوحشين ، يفاخرون بانهم أميون لا يقرأون ولا يكتبون . وطال عهد الجهالة في أوربا ، ولم يبد فيها بعض الميل للعلم إلا في القرن الحادي عشر . ولما شعرت بعض العقول المستنيرة قليلا بالحاجة الى نفض كفن الجهل الثقيل الذي كان الناس ينوءون تحته ، طرقوا أبواب العرب يستهدونهم مايحتاجون اليه ، لأنهم كانوا وحدهم سادة العلم في ذاك العهد. فإلى العرب وإلى العرب وحدهم ،يرجع الفضل في معرفة الاقدمين ، والعالم مدين لهم على وجه الدهر لانقاذهم هذا الكنز العلمي الثمين . يقول ليتري : « لو حذف العرب من التاريخ لتأخرت نهضة الآداب عدة قرون في الغرب » .

وقال لبون في مكان آخر : تمتعت اسبانيا بمدنية سامية بفضل العرب، بينا كانت بقية أوربا غارقة في التوحش العظيم ولومشى الغرب تحت راية العرب، لتسامت منزلته ، ولرقت اخلاق أهله ولما وقعوا في الحروب الدينية ومذبحة سان بارتلمي وديوان التحقيق وكل ماشا كل ذلك من المصائب التي أغرقت أوربا بالدماء عدة قرون ، وماعرف المسلمون مايشبهها في أرضهم . وقال أيضاً : كان تأثير العرب في عامة الاقطار التي احتلوها عظيما جداً في الحضارة ، فقد رأينا البلاد تتبدل صورتها حيثما خفق علم الرسول الذي أظلها بأسرع ما يمكن ، وأزهرت فيها العلوم والفنون والآداب والصناعة والزراعة أي ازهار .

تلخيص الابحاث السابقة

العرب وعلومهم في غابرهم وحاضرهم ومستقبلهم

نعالج تحت هذا العنوان مواضيع مختلفة منها التعريف بالعرب وحضارتهم قبل الاسلام وبعده ، الانسان والانسانية ، الرسل والأنبياء ، الرسول العربي القرآن العربي وأثره في العرب ، دعوته للعلم ، العلم في الحديث الشريف ، العلم في عهد الخلفاء الراشدين وفي الدول العربية الاسلامية وغير ذلك مما له صلة بحضارة العرب وحضارة الاسلام .

العرب ، روحهم القبلية وحضارتهم قبل الاسلام وبعده

العرب : العرب كلمة تطلق اليوم على جميع المتكلمين باللغة العربية الذين اتخذوا اللغة العربية جامعة شملهم وأداة تعبيرهم إضافة الى روابط أخرى دينية او روحية او ثقافية وتاريخية وسياسية وحضارية .

يتساءل ابن تيمية عن مدلول اسم العرب واسم العجم فيقول ان كلمة العجم تعم في اللغة كل من ليس من العرب : اما اسم العرب فهو في الاصل اسم لقوم جمعوا ثلاثة اوصاف ، من كان لسانهم العربية ، من كانوا من أولاد العرب ومن كانت مساكنهم أرض العرب .

الجاهلية : اعتاد المؤرخون ان يسموا تاريخ العرب قبل الاسلام تاريخ الجاهلية وخص بعضهم التاريخ الجاهلي بتاريخ العرب في القرن الذي سبق ظهور الاسلام ، ويكاد من المتفق عليه من اليوم ان كلمة الجاهلية لا يقصد به الجهل الذي هو ضد العلم بل الجهل الذي هو الاستخفاف والتعيير والغضب والتجبر والمفاخرة بالانساب وما الى ذلك من صفات قبلية . كانت حياة عرب الجاهلية قبلية جافة يقاتل بعضهم بعضاً وكانوا يتحلون بشجاعة نادرة وكرم لا مثيل له

وذكاء مفرط . يحلو لبعض الباحثين ان يلحقوا بعرب الجاهلية كل رذيلة ، وان يبعدوا عنهم كل فضيلة ، على ان طائفة كبيرة من العلماء الاعلام تسير في غير هذا الاتجاه منهم ابن تيمية فهو يرى أنه كان في عرب الجاهلية طبيعة قابلة للخير معطلة عن فعله ، زرع فيها الاسلام افضل الحبوب فأينعت اطيب الثمار . ومنهم ايضاً ابن المقفع الذي يقول في هذا الصدد : العرب حكمت على غير مثال مثل لها ، ولا آثار اثرت فيها ، اصحاب إبل وغنم وسكان شعر وأدم ، يشارك احدهم في ميسوره ومعسوره ، يصف الشيء بعقله فيكون قدوة ، ادبتهم انفسهم ورفعتهم هممهم ، واعلتهم قلوبهم والسنتهم فلم يزل حباء الله فيهم وحباؤهم في انفسهم ، افتتح بهم دينه الى الحشر ، فمن وضع حقهم خسر .

كان للعرب قبل الاسلام آداب ناضجة ، ولغة راقية ، وتجارة واسعة ، مكنتهم بعد بعث الرسول العربي فيهم ان يقيموا حضارة من انضر الحضارات التي عرفها التاريخ فهم من ذوي القرائح التي لاتتم الا بتوالي الوراثة فبالعرب ، لا باصحاب الجلود الحمر انشأ خلفاء الرسول تلك المدن الزاهرة التي ظلت ثمانية قرون ، مراكز للعلوم والآداب والفنون في آسيا واوربا .

ان العرب من اقوى الامم اجساماً وعقولا واكثرهم أنَفَة وإباء وعجباً وفخاراً والعربي في جاهليته وإسلامه حر يأنف ان يَستعبد او يُستعبد . وقد ايده الاسلام بفضائل سيرته على وجه الأرض ، ولا يعرف التاريخ امة أثرت في العالم اكثر من العرب ، ولا يعرف التاريخ امة جمّلته احسن مما جمّلوا ، او سطرت على صفحاته اجمل مما سطروا . ويمكننا القول بعد ذلك كله بان ابعاد كل فضيلة عن عرب الجاهلية مخالف لتعاليم رسول الاسلام نفسه .

فقد روي ان امرأة من بيته اخبرته انها سمعت من يقول : ان محمداً مثل الريحانة في وسط النتن فخرج صلوات الله عليه يعرف الغضب في وجهه ثم صعد الى المنبر وقال : ان الله خلق الخلق فاختار من الخلق بني آدم واختار من بني آدم العرب فأنا خيار من خيار ، فمن أحب العرب فبحبي أحبهم ومن أبغض

العرب فببغضي أبغضهم . والواقع أن العرب كانوا قبل الاسلام يتحلون بصفات رفيعة كما يدل على ذلك حديث الحارث بن كلدة لكسرى أنوشروان حين طلب منه أن يعرفه بصفات العرب .

قال كسرى : فما الذي تحمد من أخلاق العرب ؟

أجاب الحارث: أيها الملك أنفُس سخية وقلوب جرية ، لغة فصيحة وأنساب صحيحة ، لايرام عزهم ، ولا يضام جارهم ، ولا يستباح حريمهم ، مطعمو الطعام في الجدب ، يرق من أفواههم الكلام أعذب من هواء الربيع .

أنبت هذا المجتمع العربي رسولا منهم يعلمهم الكتاب والحكمة ويسمو بمزاياهم الانسانية واخلاقهم الكريمة فينشرها بين الناس بوحي من رب العالمين ويركز دعامتها في بني قومه فيعود برسالته رسول الانسانية وبالقرآن الذي نزل عليه مخلد العروبة .

لقد كان العرب الشعب الوحيد الذي قدر الحرية تقديراً لانرى لها شبيهاً في التاريخ لذلك فانه لم يخضع لحكم خضوعاً كاملاً فلم يتمكن ملوك الفرس من استعبادهم كغيرهم ، وانما اضطروا الى الاكتفاء بمحالفتهم، ولكن لما كان لكل شيء حد ونهاية ، غدت هذه الحرية فانية شديدة حالت بين تعاون الأفراد وتكون المجتمعات الكبرى وهي الحكومات ، لذلك اقتصرت التنظيمات في الجاهلية على القبلية وقد جابه العرب بعد وفاة الرسول العظيم متاعب كثيرة ترتد الى الروح القبلية العنيفة والفردية المتطرفة والحرية العاصية على النظم فكانت هذه من أهم عوامل هدم المجتمعات السياسية الكبرى في البلاد العربية وكانت موضع ضعف اتخذه الخصوم سبباً لإحداث التفرقة بينهم ، ومقاومة كل مشروع لتوحيد كلمة العرب في الماضي ، وما اشبه حاضرهم بغابرهم وهذا ماجعل المشتغلون بالقضايا العربية يقولون : ان اهم مايعوز العرب قديماً وحديثاً الشعور بلزوم الحد من حرية الفرد الجامحة ، واطاعة أوامر المجتمع في سبيل المصلحة العامة . وهنالك أقوال اشد وقعاً في النفوس منها لواستطاع العرب الحد من روحهم

القبلية وفرديتهم الانانية وحريتهم التي لاتتقيد بنظـام لكان العالم كله اليوم متعرباً ، لابل هنالك من الأقوال ماهو اكثر ايلاماً في النفس تقول : لم يطرد العرب من الاندلس نتيجة نقص الكفاءات والاقدام والشجاعة والمروآت، بل كان سببه تفرق كلمتهم وتشتت آرائهم والانانية التي سيطرت عليهم والفردية التي اهلكتهم ، وأن من يتقهقر بهذا السبب ولايجد سبيلاً لاصلاح حاله لايثير مصرعه أسى في النفس ويتعرض لان تلعب به المطامع والأهواء .

وليقرأ العرب بعد ذلك قول الله عز وجل (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولاتفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون) ولنتبصر بعد ذلك نحن العرب بدرجة ابتعادنا عن هذا الدستور ، ذلك الابتعاد الذي يبرر القول بأن النزعة الى الجاهلية عند العرب من حيث تفرق الكلمة مازالت على اشدها بينهم . هذا ويحلو لنا نثبت نتفاً من كلمة رائعة كتبتها فتاة جامعية في ساعة ألم من تفرق كلمة العرب قالت فيها :

أيها العرب : لقد أيبست روح التفرقة شجرتكم اليانعة فجعلتها عارية يابسة تتجه اذرعها الجافة الى السماء لتحذركم بهيكلها البشع من مصير قاتم ، اذالم تبعدوا عن براعمها التي تحاول ان تتفتح الريح السموم ، ريح المشاحنات والأثرة والمهاترات والاختلاف والمنازعات والانانيات .

أيها الربيع : هل لك ان تنفحنا بنسمات تؤجج النيران في جمراتنا الخابية فتهرب منها سائر الوحوش المحدقة بها وتبتعد عنها خشية احتراقها بنارها .

أيا عرب : نريد عودة مجدنا وتجدد عزتنا ولكن هل تعبق الوردة اذاظمىء الغصن وهل يجري النهر اذا امتنع المطر ، وهل تعزف القيثارة اذا انقطع الوتر وهل تتردد الانفاس اذا انصت القلب ، كلا لن ترجع لنا عزتنا مادام حب السيطرة والفردية والأنانية وغير ذلك من صفات الجاهلية مسيطرة علينا .

أيها الشبان : اقطعوا السلاسل التي تغل اعناق اكثر ادعياء الزعامة، اولئك

الذين يظهرون مالا يبطنون، اولئك السائرون في ركاب فرديتهم وانانيتهم ، اقطعوا هذه السلاسل التي موهت حتى بدت كالقلادة الجميلة الخلابة ، اقطعوا هذا الطوق وحطموا حلقاته واحدة تلو اخرى واجعلوا منها طوقاً يغل اعناق المتربصين بنا الشر .

حضارة العرب قبل الاسلام : كان عاد وثمود وطسم وجديس امماً عربية ضخمة سلف لهم في الارض ملك جليل وخبر مشهور وقد ذهبت حقائق اخبارهم لذلك نعتوا بالبائدة . واما قحطان وعدنان فنعتوا بالعرب غير البائدة . كان لبني قحطان في اليمن مدنية معروفة ، وقد سكن الغالب منهم البلاد المعمورة ، وبنوا القصور وشيدوا الحصون المشهورة وكانت لهم مدن عظيمة منها سبأ التي جاء ذكرها في القرآن الكريم ، وكانت معارفهم على قسمين ، منها ماهو عربي نشأ وترعرع في بلادهم كالشعر واللغة والخطابة والأنساب ، ومنها علوم انتقلت اليهم من البلاد المجاورة كالروم والكلدان والفرس والرومان ، لابد منها في حفظ النظام وضمان المعايش والانتعاش ، ومن ذلك الطب ، كما انتقل اليهم من الامم المجاورة علوم مشكوك في امرها اكثرها خرافية .

واما بنو عدنان ومن جاورهم من عرب اليمن فكانوا كذلك على جانب من العلوم الطبية وغيرها ثم فشا الجهل بينهم وأضاعوا صنائعهم وتشتتوا في الاطراف واستقر قسم كبير منهم فى الحجاز ووقع التنازع والتشاجر بينهم فانشغلوا به وأهملوا علومهم فلم يبق منها الا ماسمحت به قرائحهم من الشعر والخطب ، او ما حفظوه من انسابهم وأيامهم وكان يقال لهم الجاهليون ، لأنهم أهل بداوة لم يسهموا في شيء من المدنية التي أقامها جيرانهم وأقرباؤهم الانباط والتدمريون والغساسنة .

وكان من اهم ماعنوا به الفراسة والقيافة والطب والكهانة والعرافة والتنجيم وعلم الانوار والسحر والطلسم وعلم الحروف وكان لهم اعتقاد بالأحجار

والحرزات وبعض الأوهام . وكانوا يعتقدون ان سبب الأمراض ارواح شريرة لا يقي منها ولا يشفيها الا السحر والتمائم على ايدي الكهان والعرافين وزاجري الطير والعيافين ، والسحرة والمشعوذين .

١ ـ القيافة : منها قيافة الأثر وتتم بتتبع الأقدام والاخفاف والحوافر في المقابلة ومنها قيافة البشر وهي الاستدلال بهيئات اعضاء الشخصين على المشاركة والاتحاد بينهما في النسب والولادة وسائر احوالهما وأخلاقهما .

٢ ـ الفراسة : هي الاستدلال بهيئة الانسان ، وأشكاله والوانه ، وأقواله على أخلاقه وفضائله ورذائله فهي صناعة صيادة لمعرفة اخلاق الناس وأحوالهم .

٣ ـ الطب : كان يعتمد طب عرب الجاهلية على التجارب البسيطة وعلى العادة والتقليد وكان الاطباء ثلاث فئات ، فئة اولى تتقي الامراض بالنصح والارشاد ، وفئة ثانية تداوي بالادوية ، وفئة ثالثة تعتمد على سبل خارقة للعادة منها التبرك بالاصنام . وكان طبهم ذا صلة بالكهانة والعرافة والزجر والعيافة والتنجيم والسحر والطلسم وعلم الحروف والرقى والتمائم والعوذة وغير ذلك مما توهمه الانسان في كل زمان ومكان دافعاً للأذى مديماً للصحة ، شافياً من المرض ، جالباً للحظ وداعياً للتفاؤل .

أ ـ الكهانة : هي ادعاء علم الغيب ومعرفة اسرار الانسان وما يتعرض له في يومه ومستقبله ويسمى متعاطي الكهانة كاهناً .

ب ـ العرافة : هي الاستدلال على الامور الماضية والحاضرة والمقبلة بأسباب ومقدمات ويسمى محترفها العراف[1] .

ج ـ الزجر والطيرة والعيافة : وهي بمعنى واحد تقريباً عرف ابن خلدون الزجر بأنه ما يحدث عند بعض الناس من التكلم بالغيب عند سنوح طائر او

---

(١) ـ سمى عرب الجاهلية العراف طبيباً كما يستدل من البيتين الاتيين :

فقلت لعراف اليمامة داوني ... فانك ان داويتني لطبيب

جعلت لعراف اليمامة حكمه ... وعراف نجد ان هما شفياني

حيوان او الفكر فيه بعد مغيبه ، والزجر ايضا هو الاستدلال على حاضر الانسان ومستقبله بطيران الطير او الوحش ، كانوا يزجرون الطير والوحش ويثيرونها فماتيا من منها سموه سانحاً وماتيا مسر سموه سارحاً او بارحاً ، وما استقبلهم فهو الناطح وما جاءهم من خلفهم فهو العقيد وكان اكثرهم يتيمن بالسانح ويتشاءم بالبارح اما العائف فهو المتكهن بالطائر وغيره ، وقد اقتبس العرب ذلك من الاعاجم .

د – النجوم والتنجيم والنجامة : اخذ العرب في الجاهلية بعض المعلومات عن النجوم من الكلدان وقد زعموا ان بين طلوع النجوم وغروبها امراضاً وأوبئة وعاهات في الناس والابل وكانوا ينسبون الى النجوم التأثيرات من خير وشر .

٤ – علم الأنواء : هو علم المظاهر الجوية وعلاقتها بالرياح والأمطار وكانوا يستدلون على المطر بالوان الغيوم واشكالها فأقل الغيوم مطراً هي البيضاء ثم بالتدرج الى الحمراء والسوداء .

٥ – السحر : هو اراءة الباطل في صورة الحق وهي رقى وعزائم وعقد زعموا انها تؤثر في الأبدان والقلوب فتُمرِض او تقتل او تفرق بين المرء وزوجته .

٦ – علم اسرار الحرف : يزعم محترفوه ان للحروف جسماً وروحاً وقلباً ونفساً وعقلا وقوة كلية وقوة طبيعية وانهم يمزجون بعملهم قوى الحروف والكلمات بقوى الكواكب فيرشدهم هذا المزج الى المغيبات ويدلهم على المقدرات .

٧ – الأحجار والخرزات : لقد تعلم الجاهليون ممن سبقهم من الأقوام ما توهموه دافعاً للشر جالباً للخير من ذلك الأحجار فقالوا ان اليشب وهو حجر كريم يماني يقي من العطش وان اليشم ينفع من الصرع وان العقيق ييسر شفاء عضة الحيوان وان الزمرد يحول دون أذى العائن .

وللخرزات انواع منها التميمة وهي خرزة رقطاء يتقي بها المرض والعين ومنها العُقرة وهي خرزة تشدها المرأة على حقويها فتمنع من الحبل ومنها الكحلة وهي خرزة سوداء تجعل على الصبيان للوقاية ومنها السلوانة وهي بيضاء شفافة تعلق بالعنق وقد يسقى نقيع مائها فيشفي من العشق .

٨ – الاسترقاء ، الرقى والعوذة : هو طلب الانتفاع من حمل رقية او ترديدها او التعوذ بها ، ويستعان على ذلك بحمل الاحجار والخرزات والتمائم ، ومثل ذلك العوذة وهي الرقية من فزع او جنون ، وسميت كذلك لأنه يعاذ بها .

٩ – بعض اوهام الجاهليين في الوقاية والعلاج : نذكر بعضها لطرافتها أو لأنه ما زال الناس يقولون بها او يعملونها من ذلك ان الغلام اذا سقط له سن أخذها بين السبابة والابهام واستقبل الشمس اذا طلعت وقذف بها منادياً : يا شمس ابدليني بأحسن منها ، ومنها ان الرجل اذا اخدرت رجله ذكر من يحب فيذهب خدرها ، ومنها ان الرجل اذا عشق وافرط عليه العشق كوى بين اليتيه فيذهب داؤه ، ومنها ان من ولد في القمراء تقلصت غرلته فكان كالمختون ومنها ان الرجل اذا اختجلت عينه توقع قدوم غائب يحبه ومنها ، اذا رحل الضيف او غيره واحبوا الا يعود كسروا شيئاً من الاواني بعده . ويبدوا ان هـــذه الخرافات انتقلت الى الجاهليين من النبطيين والبابليين والكلدانيين ، هذا وما زالت رواسب هذه الخرافات شائعة في بلاد الحضارة اليوم والغريب ان جماعة من العلماء لا يستطيعون ان يجرروا انفسهم منها مع محاولاتهم ذلك فما قول القارىء بجماهير العامة السريعة التصديق .

حكماء العرب واطباؤهم قبل الاسلام : عرف منهم لقـــمان بن عاد وداميان وكومم وزهير بن جناب وحذيم وزينب وقس بن ساعدة .

لقمان الحكيم : له اقوال منها ليس مال كصحة ، ولا نعيم كطيب عيش

ومنها لا تقلك نفسك بالهموم ، ولا تشغل قلبك بالأحزان ، ومنها اياك والطمع وارض بالقضاء واقنع بما قسم الله لك يصف عيشك وتسر نفسك ومنها آخر الدواء الكي .

داميان وكوسم : توأمان عربيان عاشا في سورية ، خبرا الطب والصيدلة حتي اعتبرا أبوي الطب والصيدلة عالجا المرضى بتوفيق عجيب ورثا عن اصولهما ثروة طائلة صرفاها في عمل الخير وفي الانفاق على المرضى اعتنقا المسيحية وبشرا بها فعذبهم الرومان حتى استشهدو في سبيل النصرانية وبقي ضريحهما محجة للمرضى المزمنين .

زهير بن خباب بن هبل الحميري : كان من معمري العرب ويقال كانت فيه عشر خصال لم يجتمعن في غيره من اهل زمانه كان سيد قومه ، وشريفهم ، وخطيبهم ، وحازيهم ، وكاهنهم ، وفارسهم ، وحكيمهم ، وناصحهم ، وله البيت الرفيع فيهم والعدد الكبير منهم .

ابن حذيم : هو رجل من تيم الرباب كان أطب العرب لذلك ضرب المثل فيه فقيل أطب من حذيم .

زينب طبيبة بني أود : كانت عارفة بالأعمال الطبية ، خبيرة بالعلاج ومداراة آلام العين والجراحات مشهورة عند العرب .

طبقات الأطباء الذين عاصروا الرسول والاسلام - نذكر من بينهم :

قس بن ساعدة : هو قس نجران ، طبيب العرب وخطيبهم وبليغهم يضرب به المثل في البلاغة والحكمة والموعظة الحسنة ، كان يدين بالتوحيد ويؤمن بالبعث ويدعو العرب الى نبذ الاوثان ، سمعه النبي قبل البعثة يخطب بعكاظ فعجب من حسن كلامه واثنى عليه . استطبه قيصر الروم فسأله عن السكر . اجاب عنه انه سورة الشراب تصعد الى الدماغ فتحجب البصر بغير عمى والسمع

بغير صمم ، واللسان بغير خرس . قال : فصف لي الاطعمة قال آمرك بعدم الاكثار ورأس ما تأمر به الحمية ، قال له : عمن حملت الحكمة : قال عن عدة فلاسفة .

الحارث بن كلدة الثقفي : كان من الطائف تعلم الطب في فارس وعالج فيها وحصل على مال هناك وشهد اهل بلاد فارس بعلمه ثم رجع الى الطائف واشتهر طبه بين العرب وكان الرسول يوصي بالتطبيب عنده وله كلام مستحسن في الطب وغيره اشهره مادار بينه وبين كسرى منه :

سوآله فما صناعتك ? قال الطب ، قال أأعرابي انت ? قال نعم من صميمها وبحبوحة دارها قال له : كيف بصرك بالطب ? قال : ناهيك ، قال فما أصل الطب : قال الأزم وهو ضبط الشفتين والرفق باليدين . فما الداء الدوى ? قال ادخال الطعام على الطعام ، يورث التخمة ، إن بقيت في الجوف ثقلت وان تحللت أسقمت . قال : فما تقول في دخول الحمام ? قال : لاتدخله شبعاناً قال وما تنصح به ايضاً ? قال : لاتغش اهلك سكراناً ولا تقم بالليل عرياناً ولا تقعد على الطعام غضباناً وارفق بنفسك يكن ارخى لبالك ، وقلل من طعامك ، يكن اهناه لنومك . قال : فما تقول في الدواء ? قال مالزمتك الصحة فاجتنبه ، قال : فأي اللحمان افضل ? قال الضأن الفتي ، قال : فما تقول بالفواكه ? قال : كلها في اقبالها وحين اوانها قال : وما افضل الفواكه فأجاب وافضل الفواكه الرمان والاترج وافضل الرياحين الورد والبنفسج ، وافضل البقول الهندباء والخس قال : فما تقول في شرب الماء ? قال : هو حياة البدن وبه قوامه . قال : فما الحمية ? قال : الاقتصاد في كل شيء .

النضر بن حارث بن كلدة الثقفي : سافر في طلب العلم كأبيه ، عاشر الاحبار والكهنة واطلع على علوم الفلسفة واجزاء الحكمة تعلم الطب من ابيه

الشمردل بن قباب الكعبي : كان في وفد نجران فنزل بين يدي الرسول فقال : كنت كاهن قومي في الجاهلية اتطبب فما يحل لي : قال الرسول :فصد

العرق ومجسة والطعنة ان اضطرت وعليك بالسنا ولا تداوا احداً حتى تعرف داءه قال : والذي بعثك بالحق أنت اعلم بالطب مني .

رفيدة : طبيبة متميزة بالجراحة اختارها الرسول لتطبب في خيمة متنقلة .

الانسانية والانسان

الانسانية والانسان : الانسانية كلمة مشتقة من الانسان منسوبة اليه يقصد بها تحلى الانسان بمزايا كريمة ، منها تبادل الوفاء والرحمة والتعاطف والمواساة والمودة وما الى ذلك من صفات حميدة جعلت من كلمة الانسانية التعبير الصادق عن حسن علاقة الانسان باخيه الانسان يدعوه الى الخير ويعمل معه من اجل الطمأنينة والهناء والسعادة والسلام .

انواع الانسان : قال علماء العرب : ان العلة الموجبة الى تنويع الانسان هي النفس التي تساعد على تنويع الانسان الى انسان كالبهائم وانسان كالوحوش وانسان مدرك وان للنفس ثلاث قوى هي :

أ ـ القوة الشهوانية : وهي التي تكون للانسان والحيوان كالقرم الى المآكل والمشارب وما شاكل وهي قوية جداً لابد من ان يقهرها الانسان ويؤدبها فاذا تسلطت عليه كان بالبهائم اشبه من الناس وكان صاحبها انساناً خالص الحيوانية .

٢ ـ القوة الغضبية : وهي التي يكون بها محبة الغلبة والانتقام والخلاص من الغير وهي كالقوة الشهوانية مشتركة بين الانسان والحيوان ولكنها أضر للمجتمع من الاولى لان صاحبها اذا ملكته وانقاد لها شابه الحيوانات المفترسة والسباع .

٣ ـ القوة الناطقة : وهي خاصة بالانسان يكون بها الفكر والتفكير والفهم والتدبير تحبب له المحاسن وتجنبه القبائح ، بها شرف الانسان وفضل على الحيوان لانها تهذب قوتيه الشهوانية والغضبية .

يعالج العلم الحديث انواع الانسان فيقر ما اثبته العلم القديم ويؤيد بأن الانسان جسم ونفس ويقول بتنوع البشر باختلاف حدود النفس في افراده فهي في بعضهم محدودة تلبس الجسم فلا تتعدى حدودها حدوده فتنبيء عن حاجة الجسم الى الطعام والشراب وتحرك اعضاءه لتأمين حياته وشهواته . ان هذه الزمرة من الاشخاص هي كالسائمة ، بل اضل منها سبيلا .

ان حدود النفس في البعض الآخر اوسع مدى من ذلك ، تتعدى حدودها فيهم حدود الجسم ، فان كانت صالحة ارشدت الى الاخاء والمودة والعدل والتعاطف وغير ذلك من الصفات الانسانية ، وقد تكون سعتها في طائفة من بني الانسان بالغة حداً كبيراً فتنفع المجتمع انتفاعاً يختلف مداه وشمول خيره للناس أجمعين .

الرسل والانبياء بين بني الانسان : هنالك فئة من بنى الانسان آمن الناس باقوالها واعمالها ايماناً صحيحاً فحشروها في زمرة البشر المصطفى لانه سرعان ما تبين ان هذه الفئة وان كانت من البشر ولكنها ليست كباقي البشر ان هذه الفئة العظيمة باعمالها ، القليلة بكميتها ، الكبيرة بكيفيتها التي ترى بالبصيرة ما يخفي على الباصرة والتي طفت حدود نفسها المدركة الناطقة الواعية على جسمها طغياناً جعلت فيها قدرة على اصلاح الانسان وارشاده ، ان هذه الفئة من الناس هي فئة الرسل والأنبياء وقد خص الله الشرق بهم فكان كل منهم سبيل الهدى والرشاد ، اولئك هم الرسل والأنبياء في رأي المؤمنين ، اولئك هم الفئة المختارة من البشر الممتاز في رأي العلماء الباحثين ، اولئك هم العباقرة الخالدون في رأي العلماء الملحدين ، جاء هؤلاء الأنبياء بشرائع يكمل بعضها بعضاً في هدي الانسان فهم فروع دوحة تسقى بنور من فيض الله ليعم طيب اريجها الفضاء ، ويستظل بوارف ظلها العالم وينعم بثمرها سكان الغبراء على مدى الايام ومرور الزمان . جاء منهم موسى عليه السلام مرشداً الى وصاياه العشر وجاء عيسى عليه السلام برسالة المحبة والاخاء وتعهد البائسين وذوي الاسقام

ونادى بالخير للقريب والغريب حتى ولو كان عدواً جاء منهم محمد عليه السلام بالقرآن الكريم وسمى دينه الاسلام فبدا متمماً برسالته رسالات الانبياء السابقين .

ولقد عرف قبله اربعة انبياء من العرب رهم اسماعيل وشعيب وصالح وهود وكان محمد آخر الانبياء من عرب وغير عرب . لقد كان الرسل بناة بيت واحد وسعادة واحدة ودعوة واحدة . وقد عهد الى كل نبي منهم بان يؤيد من جاء قبله حتى يتحقق من كل منهم القيام بنصيبه في اتمام مكارم الاخلاق .

محمد الرسول الامين وأثره في تخليد العرب : نثبت هنا صفوة آراء من درسوا حياة الرسول العربي دراسة حرة مجردة من الايمان به لاننا نحب ان يتعرف القارىء على نفسية الرسول العربي كما تعرف عليها غير المسلمين ممن صاغوا نذراً يسيراً من نواحيها الفذة بيراعاتهم فأظهروها بما يليق بها واننا لنغتبط بنقل نتف من اقوالهم موقنين ان اثرها سوف يكون عظيماً لدى قراء هذا الكتاب المسلمين فيزيد ذلك في تقديرهم لرسول الاسلام والسلام وسوف يكون دافعاً لغير المسلمين الى البحث عن سيرة خاتم الرسل فالاعتزاز به كبشر عربي حفظ العروبة وخلدها .

قال الرياشي في مؤلفه نفسية الرسول العربي : لايزال المجال فسيحاً للكلام عن الثورة الكبرى التي اثارها الرسول العربي على الظلم والعبودية ، وحب الأثرة والخضوع للأوثان ، ثورة طاهرة بما علم فيها من الرحمة والعفو ، نافعة بما غذاها من العلم ، غنية بما اورثها من الصبر والمصابرة وقناعة النفس ، ان محمداً كان للعالم أجمعين ، فهو للانسانية مرشد أمين وللعروبة عماد مكين وللعرب درع قوي متين .

ولم يحدث ان اعتبر شخص واحد عند اي طائفة من طوائف الجنس البشري المثل الكامل للانسان فقلدت افعاله بمنتهى الدقة ، كما حدث للنبي الامين .

أما أمين نخلة فيقول في الرسول : محمد نغمة لا كلمة ، وليس على بسيط الأرض عربي لا ينفتح لها صدره فمن لم تأخذه بالاسلام اخذته بالعروبة ومن لم تأخذه العروبة أخذته بالعربية ، ومحمد لا تستطيع طائفة في العرب ان تنفرد بالتباهي به ، فهو فضلاً عن كونه للخلق كلهم لاجدر ان يكون للعرب كلهم.

لقد استنزل[1] كتاب الرسالة بلغة قومنا وحاط دياناتهم بها ، بل أتى ببرهانه منها يوم زف هذا القرآن المخلد بين اللسان والجنان . جمع محمد اليه بفضل العربية في رسالته والعروبة في أصله القلوب العربية من كل ديانة فمحمد اذن للعرب قاطبة في لغة الكتاب والحديث وفي فتح العقول .

ويرى الدكتور شبلي شميل في الرسول العربي محمد أعظم رجل في العالم . ويطيب لنا ان نضمن هذه الكلمة ما كتبه أمين الريحاني فقد عبر فيها تعبيراً صادقاً عما فعله بنا المستعمرون والمبشرون وماخلفته فينا رواسب ترتد الى غزوة الصليبيين وعمل المبشرين وما أحدثوه من تفرقة حتى بات بعضنا يمقت لغته وينكر عروبته .

قال الريحاني : هجرت وطني وفي صدري الخوف ممن أتكلم لغتهم ، والبغض لمن في عروقي شيء من دمهم ، والبغض والخوف توأما الجهل وقد عرفني أمرسن الى كرليل فأرشدني الى عروبتي ، أجل قد يستغرب قولي ، انني عرفت بواسطة ذلك الكاتب الكبير سيد العرب الاكبر محمداً فأحسست لاول مرة بشيء من الحب للعرب ثم تابعت البحث حتى جمعني الله بأبي العلاء المعري فتوسعت في دراسته وأخذ بغض العرب ينسل من صدري أنا امين الريحاني - المبغض للعرب - ليحل محله الريحاني الفخور بعروبته .

لقد قدس ادباء النصارى محمداً عليه السلام مع قوة ايمانهم بنصرانيتهم ولقد عظموا رسالته ، بل تغنوا بأمجاد الاسلام لانها من امجادهم واحتفلوا بمولده لأنهم رأوا فيه يوماً أغر على الزمان فيه الهدى والنور وانفاس الجنان .

ولا بد لنا في هذا الشأن من التساؤل عما اذا كان في سيرة الرسول ما يدعم

---

(١) لقد انزل الكتاب على محمد الرسول عليه السلام ولم يستنزله في نظر الاسلام .

كيان العروبة؟ اننا نجد الجواب عن ذلك في كلام عدد من الباحثين ، لقد اتفقوا على ان النبي العربي كان رسول الاسلام كما كان الزعيم الذي وحد كلمة العرب ، لقد كان الرسول في مكة المكرمة البشير النذير وعاد في المدينة علاوة على ذلك رئيساً لدولة عربية جديدة وقد احب العرب وافتخر بانه منهم وحبب الناس بالعرب ودعاهم الى ذلك .

فقد روي عنه قوله حب العرب ايمان وبغضهم نفاق ، وقوله مخاطباً علياً رضي الله عنه ، أوصيك بالعرب خيراً ، وقوله من غش العرب لم يدخل في شفاعتي ولم تنله مودتي، وقوله أنا عربي والقرآن عربي ولسان أهل الجنة عربي، وقوله احبوا العرب لثلاث : لاني عربي والقرآن عربي وكلام اهل الجنة عربى، وقد اعطى الرسول اللغة مقاماً كبيراً في التعريف بالعربي فوسع معنى هذه الكلمة توسيعاً فيه حكمة رائعة .

العلم في القرآن الكريم والحديث الشريف

القرآن الكريم : القرآن الكريم كتاب إلهي عربي اللسان ، أنزل على محمد عليه السلام معجزة[1] خالدة لينشره في الناس اجمعين ، استمع العرب اليه، فرأوا فيه كلاماً لم يسمعوا مثله من قبل فهو لايشبه الشعر ويختلف عن النثر ، يؤدي المعاني بنظم بديعة واساليب بليغة رفيعة ، حاول بلغاء العرب محاكاته فلم يفلحوا ، ومالبثوا ان آمنوا باعجازه واستحالة مجاراته ، معانيه صريحة واهدافه واضحة ، تدعو الى الايمان بجميع الرسل وتقر انسانية رسالاتهم وتجعل من الرسول العربي خاتمهم ومن القرآن الكريم آخر كتبهم .

بحث فيه عدد من العلماء والادباء ، مختلفي الملل والنحل فعبروا عن رأيهم بكلمات رائعة ولقد تعمق في دراسة القرآن غوستاف لوبون بعد استعمار فرنسا للجزائر وبسط سيطرتها عليها فقال جملة مأثورة تعني لا استعمار في بلد يتلى فيه

---

(١) ولقد كان الرسول لايرضى ان تنسب اليه معجزة غير القرآن ويصارح اصحابه بذلك.

القرآن ، وها اننا نرى اليوم سدق حدسه وصحة حديثه فهاهي الجزائر تلفظ الاستعمار بفضل القرآن ففيه منبع اصيل ومنهل صافي ومجمع من القوى المختزنـة الكامنة التي تفجر روحاً انسانية[1] كتب لها الخلود مابقيت الدنياودام الوجود.

لقد حبب القرآن بالعلم وحث على التوسع فيه بقوله تعالى :

قل انظروا ماذا في السموات وفي الارض وفي أنفسكم افلا تبصرون وساعد على مطاردة جيوش الاوهام والاساطير في العالم قديمه وحديثه وحرر الانسان من سلطة الانسان ، وحد من سلطة الوراثة والتبعية والهوى لينظر الانسان الى الاشياء بتجرد ، ويحكم عليها حسناً وقبحاً بعقله الذي أودعه الله فيه ليستعمله لاليعطله ، وقد نهى الكتاب الكريم عن ان يتبع احد احداً عن غير علم في قوله : ولاتقف ماليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسئولاً .

ان طريقة القرآن في العلم هي التعرض له حاثاً على طلبه ، واثقاً بجملتـه ، رافعاً شأنهم ، واءم القرآن بين العلم والعقل مواءمة تجعل العلم حيث يكون العقل ، وتجعل العقل حيث يكون العلم .

وأما العلوم التي شملها لفظ العلم في القرآن فلاتقتصر على العلوم الشرعية ، ولا لفظ عالم يدل على عالم الشرع فقط بل قد شمل كثيراً من العلوم حتى التي نسميها عصرية وادهش ماورد فيه بهذا الصدد حصره خشية الله بعلماء الطبيعة الذين فهموا اسرار الخلق واستجلوا عظمة الكون .

---

(١) أ ـ سورة العمران ٣ آية ١٠٤ ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون .

ب ـ سورة الحجرات ٩ ؛ آية ١٣ يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا .

ج ـ سورة المائدة آية ٣ وتعاونوا على البر والتقوى ولاتعاونوا على الاثم والعدوان.

أحاديث الرسول في العلم : للرسول اقوال في التشجيع على العلم بلغت في البلاغة قمتها، وفي الحكمة ذروتها، منها : اطلبوا العلم ولو بالصين. وبديهي أن العلم المقصود لا يصح ان يعتبر علم الدين حيث لا أثر له في ذلك الحين في بلاد الصين ، كما أن في الأحاديث الشريفة من الأقوال تشجيعاً لاكتساب العلم ما لا يمكن أن يقال أروع منه ، من ذلك :

اطلبوا العلم من المهد الى اللحد ، طلب العلم فريضة على كل مسلم ، فضل العلم خير من فضل العبادة ، قليل من العلم خير من كثير من العبادة ، اذا جاء الموت لطالب العلم وهو على هذه الحالة مات وهو شهيد ، اكرموا العلماء ، تعلموا وعلموا فان أجر المعلم والمتعلم سواء ، ومنها : كن عالماً او متعلماً ولا تكن الثالثة : أي جاهلا ، ومنها : ليس من أخلاق المؤمن الملق الا في طلب العلم ، لا يزال الرجل عالماً ما طلب العلم فاذا ظن أنه علم فقد جهل ، من كتم علماً يحسنه ألجمه الله بلجام من نار ، قيدوا العلم بالكتابة ، ان الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضى بما يطلب ، ولمداد جرت به اقلام العلماء خير من دماء الشهداء ، باب من العلم يتعلمه الرجل خير من الدنيا وما فيها .

العلم في اقوال الخلفاء الراشدين وأئمة العرب

العلم وأئمة العرب والاسلام الأولين : يروى عن علي رضي الله عنه قوله : أغد عالماً او متعلماً أو مستمعاً أو محبا للعلم ، ولا تكن الخامس : أي جاهلا — فتهلك ، كما يذكر عنه تحذيره من البخل بالعلم بقوله : ما أخذ الله العهد على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ العهد على أهل العلم أن يعلموا ، وقارن علي بين العلم والمال والمفاضلة بينهما فقال : العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، العلم حاكم والمال محكوم عليه ، مات خزان الاموال وبقي خزان العلم ، أعيانهم مفقودة وذكراهم خالدة .

ولقد شجع علماء العرب والاسلام على الاستفادة من العلم والافادة به بقولهم اذا كانت الاستفادة من العلم نافلة كانت الافادة فريضة على المعلم ، وقال مصعب

ابن زبير : تعلم العلم فان لم يكن لك مال كان لك جمالا ، وان لم يكن لك جمال كان مالا ، وقال يحيى بن خالد لابنه : عليك بكل نوع من العلم فخذ منه فان المرء عدوّ ما جهل وأنا اكره أن تكون عدو شيء من العلم . وقال عبد الملك بن مروان لبنيه : يابني ، تعلموا العلم فان كنتم وسطاً سدتم وان كنتم سوقة عشتم . وقال بعض حكماء العرب البلغاء ، تعلم العلم فانه يقومك ويسددك صغيرا ويقدمك ويسودك كبيرا ويصلح زيغك وفاسدك ويقوم عوجك وميلك ، ويصحح همتك وأملك . وجعل العرب من آداب العلماء أن ينشروا العلم فلا يبخلوا به ونعتوا البخل به لؤماً وظلماً كما نعتوا منعه حقداً ، ووصفوا العلم بأنه الانيس في الوحشة والصاحب في الغربة والمحدث في الخلوة والدليل على السراء والضراء والسلاح على الاعداء والزين عند الاخلاء يرفع الله به اقواماً فيجعلهم للخير قادة وأئمة تُقتفى آثارهم ويُقتدى بأفعالهم ويُنتهى الى رأيهم ، ويطيب لنا أن ننهي هذا البحث بدعاء الرسول الذي يصح ان يقال فيه أنه من اروع ادعية العلماء الا وهو : اللهم أغنني بالعلم ، وزيني بالحلم ، واكرمني بالتقوى ، وجملني بالعافية .

عمر والعلم ، حرق مكتبة الاسكندرية ، عمر وحرية الاديان : خصصنا عمر رضي الله عنه بالبحث لاتساع رقعة بلاد الاسلام واتصال العرب بأقوام ذات حظ من العلم في زمانه

أ — **عمر والعلم:** كان عمر رضي الله عنه وافر الحظ من ثقافة زمانه ، اديباً مؤرخاً فقيهاً مشاركا في بعض الفنون ، خطيبا مطبوعا على الكلام ، يروي الشعر ويتمثل به ويحث على روايته وعلى تعلم العربية واوصى بوضع قواعد النحو . كان ينصح العلماء والمتعلمين نصائح عالم يعرف ما هو العلم وماذا يجمل بالعلماء في طلبه ، فكان يقول : تعلموا العلم ، وتعلموا للعلم السكينة والحلم ، وتواضعوا لمن تعلّموا ولا تكونوا جبابرة العلماء فلا يقومّ علمكم بجهلكم ، وكان يوصي طلابه أن يكونوا اوعية الكتاب وينابيع العلم ولم يقتصر نصائحه

على علم الدين وحده ولا علم الادب واللغة وحده بل تناول كل ما عرف به من معارف زمانه فقال : تعلموا من النجوم ما يدلكم على سبيلكم في البر والبحر وكان يعرف جغرافية الشرق كاحسن ما يعرفها رجل في وطنه . وكان خبيراً بالنفس البشرية حتى يصح القول انه اول من اشار الى مركب النقص الذي يلهج به علم النفس الحديث. نستنتج ذلك من قوله : ما وجد احد في نفسه كبراً الا من مهانة يجدها في نفسه . كان شاعراً شغوفاً بالشعر الجزل يجد في نفائس الشعر واطايب الادب راحة النفس ومتعة الخاطر .

ب – **قصة حرق مكتبة الاسكندرية** : ان ما ذكرناه عن التشجيع على تعلم العلوم مما جاء في القرآن الكريم والحديث الشريف والدعوة على تخليده والتسامح فيه واحترام ايمان الآخرين وتمسك عمر رضي الله عنه بجميع هذه المبادىء يجعلنا نستطيع التأكيد بأن من يدعو الى تخليد العلم لا يسعى الى تبديده فلا يقدم على احراق المكاتب . نقول ذلك تمهيداً للبحث عن حرق مكتبة الاسكندرية وتكذيب الزعم القائل بان عمر بن الخطاب امر بحرق ما فيها من الكتب .

زعم أبو الفرج الملطي في كتابه مختصر تاريخ الدول عند كلامه عن فتح مصر على يد عمرو بن العاص ما يفيد أن يحيى النحوي شهد فتح عمرو بن العاص لمدينة الاسكندرية وأنه دخل عليه فأكرمه وأنس به فقال له يحيى يوماً : ان كتب الحكمة في خزائن الاسكندرية لا انتفاع لك بها فنحن اولى بها فقال له عمر : هذا ما لا يمكنني ان آمر فيه الا بعد استئذان امير المؤمنين عمر بن الخطاب فكتب عمرو الى عمر وعرفه بقول يحيى فورد عليه كتاب من عمر يقول فيه واما الكتب التي ذكرتها فان كان فيها ما يوافق كتاب الله ففي كتاب الله غنى عنها وان كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة اليه فتقدم باعدامها ، والغريب في هذه الرواية أن بعض نسخ كتاب ابن العبري لم تذكرها .

وضع عدد كبير من بحاثي العرب ومؤرخي الغرب رسائل وكتباً تنقض

هذه الرواية من اساسها ، ويرى أصحاب هـذا الرأي أن مكتبة الاسكندرية احرقها الرومان قبل الفتح الاسلامي وان ذلك امر مسلم به وليس هناك اي سبب يحمل على الشك فيه ، ذلك ما توصلت اليه واثبتته دراسات كل من بحاثي الفتح العربي في القرنين الحالي والماضي من مستشرقين وعرب . وكان آخرها البحث الذي قدمناه في مؤتمر تاريخ الطب الذي عقد في اثينا .

ج – عمر بن الخطاب وحرية الاديان ، نصارى العرب وموقفهم من الدول العربية الاسلامية عبر التاريخ : ان بين ابناء الامة العربية – من آمن منهم بالاسلام او بالنصرانية – صعيداً مشتركاً ضخماً وأهدافاً متقاربة تربطها رابطة النسب الى العروبة باقوى رباط وتمنطقها باوثق نطاق ، تغذي لغة العرب الخيّرة بأدبها وفكرها وثقافتها ابناء العروبة كافة فمنها ينهلون ومن عيونها يشربون . وقد نتج عن ذلك تراث قومي يعتز كل منهما به ويفاخر الامم الاخرى ، عبّر عنه الاديب الكبير اللبناني امين نخلة المسيحي مخاطباً محمد بن عبد الله الرسول العربي الامين بقوله : والله يا محمد وحق عيسى اننا نتطلع اليك من شبابيك البيعة ، قلوبنا في الانجيل وعيوننا في القرآن .

التقى العرب المسلمون بنصارى بلاد الشام ومنها فلسطين حيث المهد والقبلة الاولى في عهد عمر رضي الله عنه فعاش المسلمون والمسيحيون من ابناء العروبة متعاونين متناصرين ، يشتركون في القيم الروحية العالية ، يبشر كل منهما في هذه الحياة برسالة الروح وخلود الخير وعبادة الله . ولقد أدت الروح السمحة التي تحلى بها مخلدو العروبة وتقديرهم لحرية الاديان الى أن يسهم نصارى العرب في عهد عمر وغيره من الخلفاء والسلاطين العرب المسلمين في حروبهم ويقفوا منها موقفاً مؤيداً يشد بعضهم ازر بعض واذا اندفع المسلمون باسم الرسالة التي ائتمنوا عليها فقد اندفع النصارى باسم النسب الذي به يفتخرون وبأصالته يتباهون ، وقد أقر عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذلك فخص بني تغلب على شاطىء الفرات

وغيرهم من نصارى العرب بأقوال وأفعال تثبت تقديره لعملهم .

ويطيب لنا أن نقول في هذا الصدد أن في سيرة النصاري العرب مفاخر في سبيل العروبة يذخر بها التاريخ منها اشتراكهم بقتال الفرس عند جسر الفرات حيث وقف العرب الى جانب والفرس الى جانب فدخل على المثنى قائد المعركة ، انس بن هلال يخبره بان قومه النصارى يريدون أن يلحقوا به للنسب فرحب به المثني وأثنى على اواصر النسب .

ومنها ما روى عن غزوة عقبة للروم : حيث خرج الوليد بن عقبة غازيا للروم وعلى مقدمته عقبة بن فرقد ، فلقيه الروم فقاتلوه ، فقال له رجل من العرب نصرانياً : لست على دينكم ولكني انصحكم للنسب ، فالقوم مقاتلوكم الى نصف النهار ، فان رأوكم ضعفاء أفنوكم وان صبرتم هربوا وتركوكم .

واننا نحب أن نعلق على كلمة النسب التي جاءت في كلمات العرب النصارى الذين شاركوا في حروب المسلمين ، فهل لا تعني ما نسميه اليوم بالقومية . انها في نظرنا كذلك فقد كانت صلة النسب الدافع الاساسي في مؤازرتهم للعرب المسلمين واذا كان العربي المسلم اندفع في فتوحاته باسم الدين فقد شاركه العربي المسيحي في بعضها باسم النسب .

ويسعدنا أن نتابع هذا البحث للتذكير بحوادث تاريخية عفى عليها الزمان فنسيناها وعمد التبشير والاستعمار على حملنا على نسيانها فكان لهما ما أراداه فترة من الزمن جال فيها الباطل وصال الزور والبهتان .

لم يثق الصليبيون في حروبهم التي دارت رحى معاركهـا في بلاد العرب بمسيحييها فاضطهدوهم لأنهم صدوا عنهم وقد تأثر بذلك غوستاف لوبون فحمل على بعض المسيحيين العرب في كتابه المعروف بحضارة العرب ونعتهم بنعوت غير صادقة وذلك اثر ما رآه ، على ما يبدو لنا من تبادل الثقة بين بني العروبة من المسلمين والنصارى .

ونذكر من الادلة البارزة على ذلك اتخاذ امراء الشرق العربي المسلمين

رجال الفن المسيحيين من رعاياهم دون النظر الى دياناتهم لوثوقهم بكل من كان من رعيتهم بصرف النظر عن دينه وعقيدته ومذهبه ونحلته، وهكذا فقد كان هرون الرشيد والمأمون وصلاح الدين وغيرهم من السلاطين والملوك والامراء المسلمين يستخدمون الأطباء النصارى كما كانوا يستخدمون الاطباء المسلمين. وقد أدى هؤلاء الأطباء النصارى من الخدمات مثل ماأداه المسلمون سواء بسواء، ولقد قاموا بذلك دون تشويق او اغراء كما يعمل كل مواطن عربي في سبيل وطنه .

ونقدم مثالاً على ذلك ما قام به أبو سليمان داوود بن أبي المنى بن أبي فانه من أهل القدس الذي نزح عنها وأقام في مصر ، سمع بطبه أحد ملوك الفرنج ماري فالتمس منه معالجة ابنه المجذوم في بيت المقدس وجعله طبيبه الخاص واتفق أن ملك الفرنج اسر فقيه العصر وصاحب الجاه عيسى الهكاري فعهد الى أبي سليمان بمداواته فعالجه في داره ثم جاءت فدية الفقيه فطالب الملك ماري أباسليمان بالفقيه فأحضره وأعطى الملك أبا سليمان حصته من الفدية كيساً فيه ألف دينار . فأعطاها للفقيه وطالبه أن يتقبلها منه اعانة على نفقة الطريق .

وقد تراءى لطبيبنا أبي سليمان أن الملك الناصر لا بد منتصر لذلك أحب أن يحسّن إليه فتح المقدس والدخول إليها من باب الرحمة، ولكن من هو الشخص الذي يوثق به في نقل الخبر ؟ لم يتردد حينئذ أبو سليمان أن يفاتح بهذا الأمر ابنه أبا الخير وكان من كبار فرسان الصليبيين ، فلبى الولد أبيه برغبة وغبطة ، مضى الولد الفارس الى الملك الناصر ، واتفق وصوله إليه في غرة سنة ٥٨٠ هـ فبحث فيها عن الفقيه عيسى واتصل به فأدخله على الملك الناصر وأوصل اليه الرسالة التي يحملها من أبيه ، فسر الناصر بعمل الولد وأبيه وكتب كتباً الى سائر ممالكه براً وبحراً يحدث فيها عن اخلاص النصارى لبلادهم ورغبتهم عن الصليبيين الغازين العاتين ويوصي بهم خيراً .

ومما يدل على كبير ثقة امراء المسلمين بالنصارى وعلمائهم وأطبائهم وهم المطلعون على الاسرار والدخائل من مدنية وعسكرية بحكم مراكزهم السامية

ولا سيا الاطباء منهم ، العهدة اليهم بمهات عند الصليبيين .

إننا نرى في الأمثلة التي قدمناها دليلاً على أن الفكرة القومية وجدت عند العرب قبل ان يقول بها الغرب الذي يردها الى اعقاب الثورة الفرنسية .

ان تعبير النسب الذي أسهم باسمه في ذلك الحين عرب النصارى ببعض الفتوحات الاسلامية العربية أو التبشير بها أو مساعدتها هو في نظري ما نسميه بالقومية .

ان عرب النصارى لم يخدعوا في الماضي البعيد كما لم يخدعوا في أمس فلسطين القريب حيث حلت الكارثة بكل عربي . وسوف لا تنطلي عليهم أساليب الاستعمار الحديثة الذي تفنن في تنويع سداها وبرع في نسج لحمتها محاولاً إيقاف الحركات التحررية وعرقلة توحيد البلاد العربية فقد عرفه النصارى العرب كما عرفه مسلموهم وقد اتجه ادباء العرب النصارى الى التعبير عن ذلك بأرق الالفاظ وأصدق التعابير .

ويطيب لنا أن نذكر أخيراً في هذا الصدد قولاً للجاحظ يحاكي ببعض نواحيه ماقاله علماء الاجتماع والقوميات في العصور الحديثة وينطبق على مااستنتجناه من كلمة النسب التي تعرضنا لذكرها . أما هذا القول فهو :

ان الاستواء في التربية واللغة والشمائل والهمة والانفة والحمية ، وفي الاخلاق السجية تقوم مقام الولادة والارحام الماسة .

تطور العلم ومعاهده عند العرب وحركة الترجمة في بلادهم

أ- العلم عند العرب : قبس من نور الحق اشرق في قلب عربي ولدبمكة فجعل منه احدا فذا اذا البشر الخالدين ، نبت عهد الرسول العربي في ارض عربية مزقتها روح قبلية ، ولقد كانت الدعوة الى اعلاء شأن العقل اول ما نادى به الرسول العربي لان العقل كما يقول نور في القلب نفرق به بين الحق والباطل ثم اتبع ذلك بنبذ التفرقة لانها وليد طغيان الجهل وفساد العاطفة . ولقد استطاع بالعقل والعلم

مطاردة جيوش الاوهام والاساطير فحرر الانسان من تبعية الانسان الا بما يقبله العقل ويقره العلم .

لقد اعتمد الرسول في رسالته على الايمان والعقل والعلم والعرب فأنشأ جيلاً عربياً مؤمناً قوياً في جسمه وعقله متعطشاً للعلم المقرون بالعمل تحلّى بالعزة وعلو النفس والاباء والجرأة والصراحة ، جيلاً فتح القلوب وانار البصائر والعقول. استطاع هذا الجيل بما ولده فيه الرسول من ظمأ للعلم ارواء غليله منه فجمع في أقل من قرن علوم من سبقه من العلماء الاولين ، ثم زاد عليهم ونقلها الى الناس اجمعين ومكن منها مناصريه ومخاصميه .

يقول في صدد العقل واستنارة العرب في علومهم بوحيه ادلاروبات وهو اديب انجليزي من ادباء القرن الثاني عشر تثقف على ايدي علماء العرب في الاندلس والشام مخاطباً ابن اخ له درس في جامعات فرنسة متفاخراً عليه انني والعقل رائدي تعلمت الشيء الكثير والعلم الغزير من اساتذتي العرب المسلمين بينما انت ابهرت عينيك المظاهر فقيدت رأسك بعنان ، ولقد اعطى الله الناس العقل ليميزوا به الحق من الباطل فكان له الاثر الكبير في العلم العربي ، ثم يقول ان روح البحث والاعتماد على العقل الذي تميز به الفكر الانساني الخلاق كان لهما الاثر الكبير في العلم العربي .

لقد استطاع العرب في سنوات معدودات ان يصبحوا اسياد العلم في العالم فقالوا بآراء اخذ علماء اليوم يقولون بما يحاكيها واخذت الامم تفاخر بعضها بعضاً باولوية القول بها .

ومما لا شك فيه ان عدداً كبيراً من القراء يحدس في سره اما كفانا البحث عن الامجاد الماضية ومالنا والزمن الغابر وعلينا بالمستقبل والحاضر .

وجوابي عن ذلك هو ان المستعمرين ومن وراءهم المبشرين سعوا الى تشتيت شملنا واضعاف الايمان في طاقاتنا لذلك كان لابد من خلق الايمان في جيلنا ومن الثابت ان الامة التي تبغي مجداً عليها ان تخلق في الافراد روح

الايمان بقابليتهم على الابتداع وان تنشىء فيهم الشعور بالعزة القومية وذلك بالاهتمام بماضيها وربطه بحاضرها ومستقبلها وما غايتي من كلماتي هذه الا تمتين ايمان العرب بطاقاتهم الكامنة فقد لا يكون هنالك امة لها من الامكانيات ما للامة العربية من امكانيات وليس هذا القول لي بل هو قول كثير من علماء الغرب وكأنني ببعض الناس يقول كلام محيّر ان بيننا وبين العالم هوة عميقة انه يبحث في الفضاء وما فيه من النجوم وعوالمها وفي الشمس وطاقاتها بينما يحوطنا النقص من كل جانب ، الى هؤلاء انقل كلمات العالم المعاصر هيو كينغ .

يقول هذا الاستاذ في كتابه مبادىء السياسة العالمية عند بحثه عن مستقبل الحضارة العربية وعن شغف العرب العالمي الذي كان من ابرز انطلاقتهم الاولى بعد الرسول ، وعما كان لهم من فضل على العلم والطب والمدنية . ان الشغف العلمي الذي امتاز به العرب هو الجوع الباحث عن العلم وعما وراء الطبيعة التي تنتسب اليها كل الفلسفات ، هو الحضارة بعينها ، هو الإنشاء العالمي للحكومة والثروة ، اللذين يمدان النبوغ والعبقرية والفن والتقدم العلمي ، هو التعاون المثمر بين مختلف الذهنيات الذي استطاع العقل العربي ان يجمعها لعشقه الحرية والمثل العليا وتحرره من التعصب والتزمت ثم يتابع قوله : ومما هو جدير بالذكر ان الشغف العلمي الذي ينعته هيو كينغ عند العرب بالواجب الديني قوي في البلاد العربية اكثر مما هو في الغرب وامريكا نفسها واخيراً يختم كلامه بقوله وسوف نرى عندما تزول اللفحة المحرقة التي اصابت العرب وخدرت نفوسهم ، ان بقية العناصر كالثروة والشجاعة الفكرية والحرية والشروع في العمل ، والبناء السليم الاجتماعي ستعود اليهم ، ثم يقول اخيراً هيو كينغ ان الدليل على قولي هو ما كان من انطلاقة العرب في ثورتهم الاولى وما تركوه للاجيال من تراث علمي شامل وآثار خالدة . وهذا ما ازمعوا ان يفعلوه في عصرنا الحاضر .

ان شيطان التفرقة المدمرة التي ولدها التبشير والاستعمار والانانيات

البغيضة والحزبية العمياء مزقت شمل العرب ، والواقع ان ما تعرضت له البلاد العربية والعرب ابان سيطرة العثمانيين والمستعمرين والمبشرين والمستغلين عليها كانت كافية لتحويل العرب عن امانيهم وعن لغتهم ، وجعلها لغة لايتحدث عنها سوى التاريخ . ولكنهم كانوا وما زالوا عالمين ان لغة العرب لا تمحى من الوجود فالقرآن حاميها وما يدعو اليه من تفتيح العقول والتشجيع على كسب العلوم وضم الشمل ونبذ التفرقة حارسها ، وتأبى المعجزة الا ان تثبت صلاحها لكل زمان ومكان ، ذلك ما كان في الجزائر وما سوف يكون في غيرها من بلاد العرب المناضلة .

وانه ليطيب لي ان اختم كلمتي مبيناً انه ليس حديثاً اوحته الآمال ولا مداعبة الخيال ، انه حديث مستند الى اراء معاصرين غربيين عرفوا العرب وسجاياهم ، درسوا قوام بقائهم وامكانية ثبتهم ، جربوا القضاء عليهم ففشلوا وعاد املهم مركزاً في تفريق كلمتهم لان في هذه التفرقة امكان تأخير وثباتهم العلمية ونهضتهم العالمية .

ولقد صاغ المتنبي للعرب بالنهوض البوشا مدور مؤلف كتاب حمراء غرناطة حول نبوءته اطاراً ادبياً جاء فيه : عاش العربي في فجر التاريخ ، في تلك الارض القاحلة التي تلهب الشمس ذرات رمالها ، عاش في تلك الصحراء يحتمل التعب والجوع والعطش والعزلة فاتخذ النجوم له دليلا والعلم مرشداً وسبيلا ، ان هذا العربي الذكي الشجاع الذي استطاع ان يجمع علم العالم في اقل من مئة عام كما استطاع ان يفتح نصف العالم ايضاً في اقل من مئة عام ، قد ترك لنا في حمراء غرناطة آثار علمه وفنه ، آثار مجده وفخاره ، ان هذا العربي الذي نام نوماً عميقاً مئات السنين قد استيقظ واخذ ينادي العالم ، ها انا ذا لم امت ، اني اعود الى الحياة ، لا لاكون آلة طيعة او كتلا من البشر تسيّرها العواصم الكبرى ووسائلها الجهنمية بل لاحيا حياة مستقلة مناضلة ثم يقول من يدري؟! قد يعود اليوم الذي تصبح فيه بلاد الفرنج مهددة بالعرب.

فيهبطون من السماء لغزو العالم مرة ثانية في الوقت المناسب والزمن الموقوت، فيحطمون الغرب عدوهم الابدي ، ثم يقول : لست أدعي النبوءة ، ولكن الاتجاهات تدل على ذلك، والامارات الدالة على هذه الاحتمالات كثيرة لاتقوى الذرة ولا الصواريخ على وقف تيارها .

تلك هي كلمتي في العروبة والعلم ، انها مستندة الى حقائق تاريخيـة ، الى دراسة نفسية ، الى بحث علمي ، والواقع انه بدون العلم تصبح كل الاحلام التي تجيش في صدورنا كسراب الصحراء وهما لا وجود له ، ان العلم هوطريق الحرية الحقيقية ، والجهل هو اشد ألوان العبودية ظلامـاً ، بل ان الظواهر في العالم من حولنا لتوحي بان احتكار العلم سوف يصبح الشكل الجديد للاستعمار ولسوف تصبح القوة نصيب الذين يعلمون ويعملون فان سنة الله في ارضه تقضي بأن يورث الارض عباده الصالحين وان لدينا جميـع الطاقات لنكون في عدادهم .

لقد اجمع الباحثون فينا ، وما أكثرهم ، ولكنني اخص بالذكر منهم دهاقنة التاريخ والسياسة والاستشراق من طراز غوستاف لوبون وولز وتوند ولين ستانلي بول ودوزي على ان العرب لو استطاعوا ان يجـدوا الاسلوب الصالح الموحد لكيانهم لـكانت جامعات باريز ولندن واكسفورد ، بل جامعات الدنيا جميعها في خدمة العرب والعروبة ولكن روح التفرقة التي سيطرت على العرب حتى في عصرهم الذهبي ، أخذت تنخر في ضلوعهم حتى مزقتهم شر ممزق ، وأنني لأؤيد اقوال هؤلاء الاعلام وارجو من الله ان يكون في مستقبلنا القريب بدء البناء لرتق الخرق الهائل الذي رآه فينا هؤلاء الافذاذ من رجال الفكر والبحث، ذلك الخرق الذي ما زال كثير من الناس ، بسبب انانيات بغيضـة ومصالح شخصية ثانوية تافهة ، على توسيعه عاملون وعن المساهمة برتقه معرضون مع انهم لو حكموا العقل واعتبروا بالماضيين القريب والبعيد جداً لرأوا ان مصلحة الامة العربية لا بل ان مصلحتهم الشخصية تدعو الى ان يحـل بينهم الوئام محل

القطيعة والخصام . وفق الله الشعوب العربية الى ما فيه ضم الشمل وجمع الكلمة على توحيد الجهود ومباشرة النهوض ، نهوضاً يستمد وحيه من امكانيات العرب الضخمة ، وقد صدق من قال فينا : ليس على وجه الارض أمة لها من الامكانيات ما للامة العربية .

وما الحوادث والثورات وغيرها من الهزاهز والهزات التي تقع في البلاد العربية بوحي من شعوبها الا مخاض ولادة ذلك اليوم العتيد ، الذي تبعث فيه البلاد العربية من جديد ، صفاً واحداً لتعيد سيرتها الاولى في خدمة العلم وإقامة العدل ونشر الحرية ودعم السلام بين الانام .

ب — المعاهد العلمية العربية في البلاد الاسلامية وتطورها : كان المسجد المدرسة الأولى في عصر الخلفاء الراشدين ثم الحق به مكاتب يمكث فيها الطلاب حتى السادسة عشرة ثم أنشأ الأمويون بيمارستانات ومكاتب ومكتبات حول الجوامع والمعاهد أخذت على عاتقها مباشرة نقل العلوم من اليونانية الى العربية . ولقد اشاد الوليد المدارس وعمم العلم وييسر سبله وكانت له عناية خاصة بالطب والنظم الطبية الاجتماعية فأوجد عدداً كبيراً من المشافي التي تعلم الطب كما أمر بمعالجة المرضى في المشافي على نفقة بيت المال وجعل الدخول اليها مباحاً لكل مريض فقيراً كان أم غنياً ، مواطناً أم غريباً ، وعني عناية خاصة بالمقعدين والعميان والزّمنين ولا سيما المجذومين منهم فأمر بانشاء دور لهم يعالجون فيها سميت المجاذم . ولم يكن عمل الوليد خاصاً بدمشق بل عمم ذلك قواده شرقاً وغربا وشمالا وجنوبا في مملكته الواسعة الأطراف وبذلك يكون الوليد ذا فضل كبير على توجيه العالم نحو نظم اجتماعية طبية لم يُستَطَع تطبيقها حتى الآن بالصورة التي طبقها الوليد بن عبد الملك في ذلك الماضي البعيد .

واقام هارون الرشيد ، مكتبة بجانب كل جامع وأسس بعده المأمون دار الحكمة في بغداد واخذت بعدها تزخر المكتبات بكتب من مختلف العلوم

والفنون . لقد ظهرت كلمة المدرسة في العهد العباسي وفي القرن الثالث الهجري وكانت أول مدرسة انشئت في الشام سميت بالمدرسة الصادرية وقد استمر تأسيس المدارس في هـذا القرن وأنشأ العبـاسيون في منتصف القرن الخامس للهجرة المدرسة النظـامية في بغداد ثم بوشر بتأسيس المدارس على نطاق واسع بحيث تكاد لا تخلو مدينة من مدن الدولة العبـاسية من مدرسة وقد جذبت المدرسة النظامية في بغداد اليها الطلاب من جميع الأقطار كما قصدها اكابر اساتذة العالم العربي ولقـد استمر تأسيس المدارس في القرن السادس وبعده فأقـام الخليفة المستنصر بالله سنة ٦٣٠هـ في بغداد مدرسة المستنصرية لتدريس علوم اللغة العربية والطب والصيدلة وعلوم الرياضيات وألحق بها فرعاً للأيتـام وآخر للمكفوفين ومكتبة كبرى ومختبرات وآلات وأدوات واسست فيها دائرة الفلك ترصد منها الكواكب وزينت ابوابها بالساعات المبتكرة واشيدت كذلك البيمارستانات.

وكانت الأندلس تضم في أواخر القرن الحادي عشر سبعين مكتبة عـامة وكان في بعض المدن الرئيسية مدارس كبرى يصح تسميتهـا بالجامعات وفي طليعة هـذه المدن ، قرطبة ، واشبيليـة ، وطليطلة ، وغرناطة ، ومجريط ، مدريد – وكان في بعض الجامعات بيوت للطلبة منها طلمنكة احدى ضواحي مدينة مدريد . وكان بين دوائر التدريس في قرطبة ما خصص بالطب او بالفلك او بالرياضيات او بالعلوم الدينية والشرعية وكانت النساء شقائق الرجال في اقتحام الحصون العلمية .

وكان في غرناطة جامعة أسسها يوسف ابو الحجاج (١٣٣٣ – ١٣٥٤ م) سابع سلاطين بني نصر ، وهنـاك قول مألوف كان ينقش فوق أبواب بعض المعاهد وهو ان العـالم يقوم على اربعة امور : علم الحكماء ، وعدل العظماء ، ودعاء الصلحاء ، وشجاعة الشجعان ، وكان لكل جامعة خزائن عديدة من الكتب وكان للكثير من مشاهير الرجال والنساء مكتبات جامعة وكانت قرطبة في مقدمة أسواق الكتب في الأندلس وكان اقتناء الكتب سبيل المنافسة بين

الناس . وفي اشبيلية برج معروف بالجيرالدا مازال حتى اليوم وكان منارة ومرصداً بناه المنصور وفي الحمراء حديقة تسمى جنراليف محرفة من جنةالعريف مازالت قائمة وهي تفوق اروع حدائق النبات اليوم .

وقد اقام الفاطميون الجامع الأزهرسنة ٣٦١ هـ وبلغ عددمدارس القاهرة في زمانهم عشرين مدرسة وأسس الخليفة الحاكم بأمر الله في القاهرةسنة١٠٠٥م داراً للعلم تدرس فيها علوم الكلام والعروض والقانون والطب والفلك والحق بها مكتبة واسعة جداً غنية بالمؤلفات النادرة وقد خصص للعلماء رواتب شهرية حتى يتفرغوا للعلم ولابحاثه ولقد تميز عصر النوريين والأيوبيين بثلاث مؤسسات عامة تشرف الدولة عليها اشرافاً مباشراً وهي المدرسة الفقهية والبيمارستان الطبي والخانقاه للمحاربين وباحداث مئات المنشئات من المدارس ودور القرآن والحديث واشتهرت في عهد صلاح الدين مدارس القاهرة والقدس والأسكندرية وأسس صلاح الدين مستشفى في القاهرة على غرار المارستان النوري بدمشق وكان ابن طولون وكذلك كافور قد اسسا مثل هذه المستشفيات العامة وكان من بين هذه المشافي بيمارستان قلاوون في القاهرة وكان في دمشق ثلاث مدارس للطب وهي الدنيسرية والداخورية واللبودية وكان في القاهرة مدرسة طبية عرفت بالمهذبية كما كان في بغداد مدرسة طبية عرفت بالمستنصرية ومثلها في البصرة وقد ملأ العرب صقلية بالمكتبات والدوائر العلمية ومنها قصر العزيز في بالرمو الذي مازال قائماً حتى الآن وحرف اسمه فصار زيزة . وكان في صقلية ثلاثمائة جامع تدرس فيها العلوم .

واما في العصر العثماني فقد ضاع الملك العربي وفقدت اللغة العربية مكانتها واخذت المعاهد العلمية والاجتماعية تضمحل شيئاً فشيئاً ماعدا الأزهر وبضع مؤسسات هنا وهناك وعاد الباقي خرائب مهتدمة . ولقد بعث العرب اليوم من جديد فاعتنوا بالمعاهد العلمية والعلوم وعاد النقص الكبير فيهم توحيد كلمتهم التي نرجو ان تكون قريبة فهي والعلم يقرران مصير الأجيال القادمة .

ج ـــ حركة النقل والترجمة الى اللغة العربية : بزغ فجرها عند العرب بعـــد الاسلام فاشرقت شمس نهارها فأنارت العـالم كله ثم ادركها المغيب فإذا الظلام البهيم يحل محل النور والنعيم . رأى العرب الترجمـة رسول الفكر الى الفكر تتخطى المكان وتتحدى مرور الزمن لانها سلك يربط بني الانسان بعضهم ببعض على اختلاف مللهم وألوانهم ونحلهم فشجعوا حركتها وأسسوا المدارس لها وكان الرسول اول من حث على تعلم الالسنة والاضطلاع بالترجمة ، فقد روى محمد بن عمر المدائني في كتاب القلم والدواة قول الرسول لزيد بن ثابت : أتحسن السريانية ؟ قال : لا ، قال : تعلمها فتعلمها زيد .

حركة النقل والتأليف عند الامويين عني الامويون بنقل العلوم القديمة ، أخص بالذكر منها علوم اليونان الى اللغة العربية بواسطة العلماء السريان وقـد اشتهر من هؤلاء في العصر الاموي يعقوب الرهاوي ويؤثر عنه أنه أفتى رجال الدين النصارى بتعليم اولاد المسلمين التعليم الراقي . ان لهذه الفتوى في زمنهـا شأناً كبيراً فقـد كانت العـلوم وقفاً على الكهان لا يبوحون بها الا لمن اتبع دينهم وسلك سبيلهم وقد نتج من امتزاج الامويين بغيرهم من الامم ولا سيما السريان واعتمادهم عليهم ان تشعبت في المملكة العربية الاسلامية المعرفة وتزاوجت العقول المختلفة كما تزاوجت الاجناس المختلفة فنتج من هذا التزاوج الثقافة العربية خدم السريانيون العلوم بما ترجموا وما ألفوا وظهر في هذا العصر كثير من العلماء وكان اكثرهم فلاسفة واطباء معا لان دراستهم الطبية لم تكن منفصلة عن دراستهم الفلسفية . وهكذا طرأ على الأدب والعلوم في العصر الأموي تبدل سببه استفادة العرب من فتوحهم ووقوفهم على آثار المدنيات لأمم ذات حظ من العلوم غير قليل ، ولقد كان لكتاب الله ، المعجز بآياتـه وسحر بلاغـته ، اثره في فتق اذهانهم وصقل عباراتهم وتوحيد لهجاتهم كما كان للحديث الشريف وتحريضه على

طلب العلم اثره البالغ فيهم . ولقد تمت اول ترجمة من اليونانية الى العربية في عهد الخليفة الأموي مروان بن الحكم بين سنتي ٦٤ و ٦٥ هـ فترجم بأمره ماسر جويه الطبيب البصري السرياني الموسوعة الطبية تأليف القس أهرن ابن أعين الاسكندراني وهي كناش في ثلاثين مقالة أضاف اليها ماسرجيس - ماسر جويه - مقالتين .

وكان في الاسكندرية فيلسوف مسيحي اسمه أدفر ، كان شغوفاً بعلم الكيمياء ، وتتلمذ عليه شاب روماني اسمه مورينوس وتعلم منه صناعة الكيمياء ثم أخذ الأمير خالد بن يزيد المتوفي سنة ٨٥ هـ علم الكيمياء عن مورينوس المذكور وألف الأمير فيها كتباً ورسائل .

كان خالد بن يزيد بن معاوية موصوفاً بالعلم حكيماً شاعراً . وله كلام في صناعة الكيمياء والطب وكان بصيراً بهذين العلمين متقناً لهما وله رسائل دالة على معرفته وبراعته . ومما نسبوا اليه من التصانيف في الكيمياء : السر البديع في فك الرمز المنيع ، وكتاب الفردوس ورسائل أخرى . توفي خالد بن يزيد سنة تسعين وقبل سنة خمس وثمانين هـ وشهده الوليد بن عبد الملك وقال : ليلق بنو أمية الأردية على خالد فلن يتحسروا على مثله أبداً .

وأما دواوين الأموال فانها كانت بعد ظهور الاسلام بمصر والشام والعراق على ما كانت عليه قبل الاسلام ، نقل ديوان مصر من القبطية الى العربية في امارة عبد العزيز بن مروان على مصر ، كما نقل ديوان الشام من الرومية الى العربية في سنة احدى وثمانين من الهجرة . واما ديوان العراق فنقله صالح بن عبدالرحمن في زمن الحجاج .

حركة النقل والتأليف وتقدم العلوم عند العباسيين : عنى العباسيون بالعلوم عناية بالغة فقد مال عدد من الخلفاء في العصور العباسية الى العلوم فاندفع الناس الى تحصيلها واقتناء كتبها . اقتبس العباسيون العلوم عن الفرس والهنود ولا سيما عن اليونان بواسطة تراجمة كثيرون معظمهم من السريان وبعضهم من

الهنود ، وكان عصر هارون الرشيد عصر العرب الذهبي فأصبحت بغداد عاصمة العالم في الثقافة والسياسة والاقتصاد .

مدارس الترجمة في العصر العباسي : لقد وجدت مدارس تخصصت بالترجمة في العهد العباسي رعى عدداً منها الأفراد واشرفت على بعضها الدولة اشرافاً مباشراً وعهدت بادارة أحداها الى حنين بن اسحاق . وكان من ابرز رجال العصر الذين اقتدوا بالخلفاء في تشجيع النقل في مدارسهم الخاصة الابناء الثلاثة لموسى بن شاكر .

ولقد اشتهر من التراجمة : آل بختيشوع ، عمر بن فرخان الطبري ، أيوب الرهاوي الابرشي ، الحجاج يوسف بن مطر ، هلال الحمصي ، آل ماسويه ، حنين بن اسحق العبادي ، ابو زكريا يحيى بن البطريق، قسطا بن لوقا البعلبكي ، ابو زكريا يحيى بن عدي ، ابو علي عيسى بن زرعة .

مدرسة الدولة للترجمة: أنشأ الخليفة المأمون سنة ٢١٥هـ ٨٣٠ م مدرسة للترجمة وعهد الى حنين بادارتها .

حنين بن اسحق العبادي : نسبة الى قبيلة عباد العربية : عاش من سنة ٨٠٩ - ٨٧٧ م أشرف على مدرسة الترجمة وأسهم بعملها ، كان ابو زيد حنين من أئمة الترجمة في الاسلام ، اختير للترجمة وائتمن عليها ووضع له كتّاب عددهم اربعون نحارير ، عالمون بالترجمة ، كانوا يترجمون ويتصفح حنين ما ترجموا ، مثل أسطيفن - اصطفن بن بسيل - وحبيش ، وموسى بن ابي خالد الترجمان ويحيى بن هارون . ولد حنين سنة ١٩٤ هـ في الحيرة بالعراق ، وقد تتلمذ حنين في باديء الامر ليوحنا بن ماسويه ثم تركه لكي يدرس لعدة سنوات اللغة اليونانية حتى حذقها تماماً . وعندما حقق أمنيته قصد البصرة كعبة اللغة العربية حينذاك فاتقن فيها لغة الضاد وبذلك اصبح حنين متقناً اربع لغات هي : العربية لغته والسريانية ثم الفارسية واليونانية . رحل بأمر المأمون الى كثير من البلاد

في العراق وسورية وفلسطين ومصر للحصول على نوادر المخطوطات التي تيسر له ان يحسن ضبط الترجمات التي تولاها .

ابو يعقوب اسحق بن حنين : توفي سنة ٩١٠ م وقد لحق بأبيه في النقل وكان يحاكيه في اتقان الترجمة وفي معرفة اللغات وفصاحته فيها الا أن نقله للكتب الطبية قليل جداً .

ابو الحسن ثابت بن قرة الحراني : ٨٢٧ - ٩٠١ م سكن مدينة بغداد وكان الغالب عليه علم الفلسفة دون الطب وكان في دولة المعتضد وله كتب كثيرة في فنون من العلوم كالمنطق والحساب والهندسة والتنجيم والهيئة ولد سنة ٢١١ هـ وتوفي سنة ٢٨٨ هـ وكان من مشاهير نقلة العلوم في الاسلام .

حبيش بن الحسن الدمشقي المعروف بحبيش بن الاعسم : هو ابن اخت حنين بن اسحق وتلميذه وقد اشتهر بالطب والترجمة من اليوناني والسرياني وهو ناقل جيد النقل .

اصطفان بن بسيل : وهو مترجم من مدرسة حنين بن اسحاق يحمل اسمه الظن على أنه كان من اليونان .

ابو عثمان يعقوب بن سعيد الدمشقي : ترجم كثيراً من الرياضيين اليونان ومن ذلك الجزء العاشر من اصول اقليدس . كان طبيباً مشهوراً ولما أسس الوزير علي بن عيسى بيمارستاناً جديداً ببغداد سنة ٩١٤ م لم يقتصر على توليته رئيساً له ، بل جعله ايضاً رئيساً على جميع بيمارستانات بغداد ومكة والمدينة .

ابراهيم بن بكتس: طبيب كان يدرس الطب في البيمارستان العضدي ببغداد سنة ٣٦٠ هـ ترجم كتباً كثيرة الى العربية ونقله مرغوب فيه .

الكتب المنقولة عن اليونانية - منها : كتب افلاطون في الفلسفة والادب ، كتب ارسطاطاليس ، كتب بقراط وكتب جالينوس .

الكتب المنقولة عن اللغه الهندية في بغداد : نقل العرب عن اللغة الهندية (السنسكريتية) كثيراً من كتب الطب والنجوم والرياضيات والحساب والتواريخ .

الترجمة والتأليف واقتناء الكتب في الاندلس : عني رجال الاندلس – من خلفاء وامراء وعلماء وذوي وجاهة وثروة – بتشجيع حركة النقل والترجمة والتأليف فترجموا كتباً جديدة واصلحوا الترجمة التي قام بها الامويون والعباسيون. تكوّن من الاندلسيين الخبيرين باللغة اللطينية (اللاتينية) ومن الرواهب نقولا ومن علمهم اللغة اليونانية ومن بعض علماء ذلك العصر مدرسة للترجمة شابهت زميلتها في بغداد، دار السلام.

كان للاندلس العربيـة اثر رائع في تاريخ العلم والفن والطب بما في ذلك العمران، فقد حملت تراث العلوم والفنون القديمة فحافظت عليه ونفحته باضافات عظيمة الشأن كبيرة الاثر. بلغت الاندلس قمة المجد في عهد الامويين ما بين سنة ٧٥٦ م وسنة ١٠٣٠ م.

ازدهر العلم في قرطبة في عهد الحكم الاول وعبد الرحمن الثاني وكان كل منهما محباً للعلوم والآداب والفنون، مشجعاً للعلمـاء والادباء ورجال الفن، وقد ارسل عبد الرحمن احد علماء قرطبة عباس بن ناصح الى العراق لشراء المؤلفات العربية واليونانية والفارسية او استنساخها اذا تعذر ابتياعها. وقد اصبحت قرطبة في عهد عبد الرحمن الثـالث مركزاً ثقافيـاً ومصراً معموراً لا تحاكيه بعظمته الا بغداد ودمشق.

وقد سار الحكم على غرار والده عبد الرحمن الثاني بايفاد رسله الى المدن الكبرى لشراء المخطوطات مهما عز الثمن واوصاهم باستنساخهـا اذا لم يتيسر ابتياعها. وقد بلغ في ايامه عدد الكتب في مكتبة قرطبة العـامة ستمائة الف كتاب علق بنفسه على عدد كبير منها وكثيراً ما كانت تنتهي اليه المؤلفات قبل ان يقرأها احد وقبل ان يباشر مؤلفها بنشرها.

وقد زارت ادبية ذلك الزمن السكسونية هورتسويزا قرطبة فوصفتها بانها جوهرة العالم. وكانت قرطبة في ذلك الحين مثار اعجاب الناس وكان الرحالة

القادمون من الشمال يتسامعون بين الخشوع والتقدير اخبار المدينة . وكان يفد اليها الطلاب من كل جانب ومن جميع الملل والنحل ومن كل قطر عربي وغير عربي ، وممن اشتهرت دراستهم في جامعتها ومدارسها من عظماء الرجال البابا سيلفستر الثاني، وكان يعرف باسم الراهب اوفرنيان جربرت وفرانسيس امبريه.

اما تزويد البيوت بمكتبات وولع الاندلسيين بشراء الكتب والمفاخرة بها فقد بلغ حداً كبيراً .

ولم تكن سوق الكتب لتروج الى ذلك الحد لولا صناعة الورق المحلية ، كانت هذه الصناعة من اجل الخدمات التي اسداها العرب والاسلام الى اوروبا ولولاهما لما تم اختراع آلات الطباعة ذات الحروف المتحركة ، وكانت شاطبة مركز صناعة الورق في اسبانية المسلمة ، ثم انتقلت صناعة الورق من اسبانية العربية الى فرنسة .

العصور الذهبية للحضارة العربية

ومقارنتها بالحياة الغربية في ذلك الزمان

العصور الذهبية للثقافة العربية : استمرت زهاء خمسة قرون توطدت فيها دعائم حضارة عربية شملت العالم المعروف آنذاك ، فقد بزغ فجر الثقافة العربية في اوائل القرن التاسع وافل نجمها بنهاية القرن الثالث عشر للميلاد ، واضاء نورها جميع ما افتتحه العرب من بلاد ومن امصار ، فكانت الثقافة العربية تهيمن على بلاد فارس شرقاً حتى ساحل الاطلنطي غرباً ، وكان المسلم يتكلم العربية سواء في تركستان كان ، ام في بلاد الاسبان .

مهد الخلفاء الامويون السبيل الى العصر الذهبي الذي اخذ نجمه يتألق في افق سماء الاسلام ، ففتحوا ابواب قصورهم للعلماء ، وسمحوا لاهل البلاد

الاصليين ان ينصرفوا الى دراسة العلوم والفلسفة واستخدموا اولي المعرفة منهم في التدوين والكتابة والحساب وفي جميع اعمال الدولة ، وقد ارتضوا في بادىء امرهم ان يستعمل هؤلاء لغتهم الاصلية في الكتابة وفي التدوين ، وان يتداول الناس النقود الرومانية القديمة ، ولكن لم يمض وقت طويل على ذلك حتى حلت اللغة العربية محل اللغات الاجنبية في دواوين الحكومة وضربت النقود باسماء الخلفاء مما اضطر اهل البلاد الاصليين لتعلم اللغة العربية .

ولما كانت دمشق الشام ، عاصمة العرب ، بعيدة عن بلاد فارس لم يستفد العرب من الثقافة الفارسية بادىء ذي بدء ، الا ان انتقال الحكم من ايدي بني امية الى ايدي بني العباس واتخاذ بغداد عاصمة للملكة ادى الى اقتراب العرب من الفرس ، والى تسرب الثقافة الفارسية الى اللغة العربية . لقد كانت جميع قصور الامراء معاهد للنقاش العلمي وللمجادلات الكلامية ومن المؤسف حقاً ان هذا المجد العلمي العظيم لم يدم طويلا . ان هذا العصر الذهبي وان كان قصير الامد الا ان اثره في العالم كله كان عظيماً جداً ، فقد خلق مدنية فاقت ما تقدمها من مدنيات . ان تاريخ الحضارات لا يعرف حركة ثقافية اشد واعظم من تلك التي نشأت في البلاد الاسلامية ، ولا يعرف حركة في العلم تحاكي اقبال المسلمين عليه .

وكان القرآن اساساً لجميع ما كان يعلم في حلقات التعلم ، لأن علاقة القرآن بالفلسفة العربية قوية ، فهو ركنها ومنه تستمد قوتها .

لقد ادخل العرب على العلوم الرياضية الترقيم الهندي ، واستعملوا الرموز بدل الارقام فابتدعوا بذلك الجبر ووضعوا المثلثات . ان ما لهم من بحوث ونظريات يشهد بمدى اهتمامهم بالعلوم على اختلاف انواعها اما الكيمياء فقد انحدرت اليهم من مدارس الاسكندرية فاضافوا اليها كثيراً من مادتها واستعملوها في الطب والصيدلة . وما زلنا نستعمل في بحوثنا الكيميائية كثيراً من الكلمات العربية ، اننا وان كنا ننظر نظرة استغراب الى ما كان يسمى اليه الكيميائي

العربي من البحث وراء حجر الفلاسفة لتحويل المعادن الخسيسة الى ذهب خالص فان البحث العلمي الحديث اثبت امكان ذلك وان كانت الطريقة في ذلك غير الطريقة القديمة .

ويجب ان لا ينكر ان اللغة العربية بجمال لفظها وبكونها لغة القرآن كانت اقوى عامل في اجتذاب طلاب المعرفة من اقصى البلاد الاسلامية الى المراكز العلمية مثل بغداد وغيرها من عواصم العالم العربي كما اشتهرت كل من البصرة والكوفة بعلم الكلام .

وبعد ما ضعف شأن العباسيين واصبح الخلفاء العرب في ايدي مواليهم الترك انتقلت مراكز العلم من بغداد الى دمشق وحلب ، فاجتذبت هذه المراكز الجديدة عدداً كبيراً من قادة الفكر ومن فلاسفة الاسلام .

ومما يستدعي النظر ان مصر اشتهرت بمدرسة الاسكندرية العظيمة .

ومما امتاز به الفاطميون انهم نظروا الى النحت ولا سيما نحت التماثيل والهياكل البشرية نظرة تسامح ورضا وتشجيع ، ولقد اثارت هذه الروح الفنية في نفوسهم الميل الى الترف والبذخ فازدانت قصور الخلفاء في العهد الفاطمي بالغالي والنادر من التحف الفنية وان المخلفات التي تركها آخر خلفائهم — الخليفة المستنصر — والتي عبث بها جند الترك المحتلون للبلاد لاعظم دليل على عظم ثروة الفاطميين المادية والفنية .

ومما لا شك فيه ان تقدم العرب هذا التقدم السريع وبلوغهم الذروة الرفيعة من المجد كان له اثر بعيد في الحياة الاوروبية . ولقد ظل العرب يعلمون العالم الاوروبي ثقافتهم وعلومهم طوال القرن العاشر والقرن الحادي عشر ، حتى ان ملوك صقلية فتحوا ابواب قصورهم للمسلمين . وكان اهل الاندلس احرص الناس على التميز بالعلم ، حتى ان الجاهل الذي لم يوفق للتعلم يجهد نفسه لكي يتميز بصنعة نفيسة وربما بنفسه ان لا يتميز بما يرفع ذكره . واتقن شيء

في مصنوعات الاندلسيين مبانيهم فاهل الصناعة والذوق في هذه الايام لايزالون يقرون لهم بحسن المباني ايام كان سواهم من اهل اوروبا لا يسكن غير البيوت الحقيرة . واشهر من شاد المباني الباذخة الخليفة الناصر اكبر سلاطين بني امية واعظمهم شأناً وخطراً وكان الناصر كلفا بعمارة الارض وتخليد الآثار . واشهر ما بناه الناصر مدينة الزهراء اعجوبة زمانها وفريدة هذه الايام لو بقيت ، وبها فاقت قرطبة سائر البلدان حتى صارت في الاندلس كالرأس في البدن .

حال الغرب في شباب الاسلام : في القرون التي كانت فيها العرب تنعم بلذائذ العقل والعمل وتؤلف أمة منطوية على علم كثير ، وحكومات ناهضة ، في هذه القرون كان الغربيون متوحشين جاهلين ، لا يعرفون طعم الراحة ، ولا يتذوقون عيش الرفاهية ، لا أمن ولا ادارة ، ولا ملوك يعرفون واجبهم في اقامة العدل وتوطيد الامن ، كانت انجلترا الانجلو سكسونية فقيرة في أرضها منقطعة الصلات بغير بلادها ، سمجة وحشية ، تقرض الامراض والاوبئة المتكررة المواشي والسائمة ، وهي المورد الوحيد في البلاد ، يعيش رئيس القبيل في كوخه مع أسرته وخدمه ومن اتصل به ، يجتمعون في قاعة كبرى في وسطها كانون ينبعث دخانه من ثقب فتح في السقف فتحاً غليظاً ، وينام جميع المجتمعين في تلك القاعة على الارض أو على دكات ، واضعاً كل فرد سلاحه فوق رأسه ، لان اللصوص كانوا من الجرأة بحيث يقتضي على الناس أن يقفوا لهم بالمرصاد كل حين لئلا يؤخذوا على غرة .

وكانت اوروبا في ذلك العهد غاصة بالغابات الكثيفة ، متأخرة في زراعتها وتنبعث من المستنقعات الكثيرة في أرباض المدن روائح قتالة ، وكانت البيوت في باريز ولندرا تبنى من الخشب والطين المعجون بالقش والقصب ، ولم يكن فيها منافذ ولا غرف مدفأة وكانت البسط مجهولة عندهم لا بساط لهم غير القش

ينثرونه على الارض ، ولم يكونوا يعرفون النظافة ، ويلقون باحشاء الحيوانات وأقذار المطابخ أمام بيوتهم ، فتتصاعد منها روائح مزعجة .

ولم يكن للشوارع مجار ولا مصابيح ولا بلاط . قال درابر : وكان من أثر ذلك أن عمت الجهالة أوربا وساورتها الاوهام ، ومات الطب وحييت أحابيل الدجالين ، فكانت الاوبئة تفتك بهم فتكا ذريعاً .

قال سنيوبوس : ولا شك ان العالم الاسلامي والعالم البيزنطي كانا أغنى واحسن نظاماً ونوراً من العالم الغربي ومن يحب ان يتعلم يقصد الى مدارس العرب . وبدأ العالمان الشرقي والغربي في القرن الحادي عشر يتعارفان .

ولقد دهش الصليبيون في القرن الخامس من الهجرة لما بلغوا الشرق ووقعت اعينهم على مدن حافلة منظمة في بيزنطية والشام وغيرها من بلاد الاسلام اذ ما كان لهم عهد بغير قرى حقيرة ودساكر لا شأن لها في بلادهم وبينما كان شارلمان اعظم ملوك اوربا ، وهو معاصر الرشيد العباسي ، وصاحب فرنسا وجرمانيا وشمالي ايطاليا ، أقرب الى الامية منه الى النور كانت كتب الفلسفة والعلوم المادية والأدبية يتنافس فيها علماء العرب في بغداد وقرطبة ، وتترجم للمنصور العباسي الكتب من اللغة العجمية الى العربية .

وبينما يقوم في العرب اعلم خلفائهم المأمون العباسي فيطالب ملك الروم لما غلبه بكتب العلم التي عنده ، فيدهش الملك لذلك لأنه لم يعهد لملك ولا لحكومة أن طلبت مثله من عدوها في قديم الدهر وحديثه ، وبه يعرف قدر المأمون وتفانيه في خدمة العلم والانسانية حيث يستمتع الناس في ايامه بنعمة الحرية العلمية والوجدانية ، وبينما كانت الحال عند العرب على ما ذكر كان شارلمان يحاول أن يتعلم ويتحبب الى الأدباء تحبباً ساذجاً ، كما يحب غير المتعلمين ان يروا احيانا السطور المكتوبة ، وكان معظم الزعماء يجهلون القراءة ، ولا هم لهم غير الشراب والطعام والصيد والحروب ، وهم في العادة جفاة غلاظ شداد . وكثيراً ما كانوا يفقأون عيون النساء ويجدعون أنوفهن ، ولم يزل هذا الإغراق في الشدة

والقسوة البربرية مألوفاً الى القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر ، وقست بحياة التشرد على هذا النحو قلوب الفرسان ، وغلظت طباعهم ، وغدوا يتقاتلون لأقل سبب ، ولا قصد لهم من تقاتلهم الا السلب والنهب ، ومن الفرسان من كان يقف على قارعة الطريق يستوقف التجار ويسلبهم ويسجنهم ويعذبهم ليكرههم على ان يفتدوا بالمال أنفسهم . ولقد ذكر روبرتسون ان هربون اعظم قضاة الدولة كان أمياً وكان دجسلين رئيس الجيوش الفرنسية في القرن الرابع عشر أمياً مثل أعظم رجال عصره ، كانت الكتب نادرة الوجود لاتتعدى أسوار البيع ، وذكر القزويني أن تجاراً من العرب ذهبوا الى شلشويق من بلاد الدانيمرك لاستحضار العنبر فوصفوا أهلها بانهم وحوش عراة يسترون عوراتهم بقطع من الجلود . هكذا كانت أوربا الغربية وما اليها ، اما حال أوربا الشرقية فكانت الى الهمجية المطلقة ، بل ان تاريخ روسيا لم يكن بدأ في القرن التاسع للمسيح .

وكانت تلك البلاد الواسعة مسرحاً لبعض قبائل الصقالبة ، يتسلط عليها التتر ويسومونها سوء العذاب بل دامت أيام الجهالة في روسيا الى مابعد ذاك العهد بقرون . ولم تخلص روسيا في الحقيقة من كابوس الجهل المطبق الا في القرن الثامن عشر ومثل ذلك يقال في سائر بلاد الغرب حاشا ايطاليا فان برابرة الشمال قضوا على مدنية الرومان فيها ، وسلمت لهم بعض عادياتها ومصانعها ، فكانت للأخلاف بمثابة حافز لهم على الترقي فانبعثت النهضة بعد قرون من بين أظهر القوم ، وسرى قبس نورها في القرن الرابع عشر الى معظم الاصقاع الاوروبية .

المقابلة بين بلاد العرب وبلاد الافرنج : كان الغربيون كما قال دوزي في ظلام الجهالة ، لايرون النور الا من سم الخياط ، والنور لايسطع الا من جانب الامة الاسلامية ، من علوم وأدب وفلسفة وصناعات وأعمال يد وغير ذلك وبغداد والبصرة وسمرقند ودمشق والقيروان ومصر وفارس وغرناطة وقرطبة هي المراكز العظيمة للعلم وعواصم أوربا التي ندهش بها اليوم أشبه بقرى لا علم

فيها ولا عمران ، وهي متأخرة في كل شؤونها المادية والأدبية وكانت بلاد الاسلام في ذلك الحين ذاخرة بالمدارس والمكتبات في كل المدن بل والقرى ومنها بلاد الاندلس حتى قال احد المؤرخين الافرنج ان معظم سكان اسبانيا الاسلامية كانوا يقرأون ويكتبون في زمن كان أهل الطبقة العليا في أوربا أميين. وذكر جبون خلال كلامه على حماية المسلمين للعلم في الشرق والغرب. أن ولاة الاقاليم والوزراء ، كانوا ينافسون الخلفاء في اعلاء مقام العلم والعلماء وبسط اليد في الانفاق على بيوت العلم ، ومساعدة الفقراء على طلبه . قال وقد أنفق وزير لاحد السلاطين نظام الملك مائتي الف دينار على بناء مدرسة بغداد النظامية وجعل لها من الريع خمسة عشر الف دينار في السنة تصرف عليها ، وكان الذين يغذون بالمعارف فيها ستة آلاف تلميذ . بينما كان في الاندلس عبدالرحمن الثالث الاموي ، عالم الملوك وحامي الآداب والعلوم والصنائع والتجارة ورب السيف والقلم الذي أصبحت اسبانيا باعماله وأعمال أخلافه أحسن الممالك حضارة وحسن ادارة في القرون الوسطى ، كنت ترى في رعيته بل في عماله من يقرعه . وبينما أهل أوربا كلهم عبيد ملوكهم وزعمائهم ، لا يجسر انسان ان ينقد عملا او يعترض على السياسة كان رجال الاسلام يقدمون على وعظ الخلفاء ، ولا يهابون سطوتهم ولا بطشهم ، وقد ندد رجل من العبّاد المنصور العباسي بقوله : وهل دخل أحد من الطمع ما دخلك ، ان الله استرعاك أمر عباده وأموالهم فأغفلت امورهم واهتممت بجمع أموالهم ، وجعلت بينك وبينهم حجابا من الجص والآجر ، وأبوابا من حديد ، وحراساً مع السلاح ثم سجنت نفسك عنهم فيها ، وبعثت عمالك في جبايات الاموال وجمعها ، وأمرت ان لا يدخل عليك أحد من الرجال الا فلان وفلان نفراً سميتهم ، ولم تأمر بايصال المظلوم ولا الملهوف ولا الجائع العاري اليك ، ولا أحد الا وله في هذا المال حق ، فلما رآك هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك ، وآثرتهم على رعيتك ، وأمرت ان لا يحجبوا دونك ، تجبي الاموال وتجمعها ، قالوا هذا قد خان الله فما لنا لا نخونه ، فأتمروا ان لا يصل

اليك من علم أخبار الناس شيء الا ما أرادوا ولا يخرج لك عامل الا خونوه عندك ونفوه ، حتى تسقط منزلته عندك . فلما انتشر ذلك عنك وعنهم عظمهم الناس وهابوهم وصانعوهم ، فكان أول من صانعهم عمالك بالهدايا والاموال ، ليقووا بها على ظلم رعيتك ثم فعل ذلك ذوو المقدرة والثروة من رعيتك، لينالوا ظلم من دونهم فامتلأت بلاد الله ، بالطمع ظلماً وبغياً وفساداً ، وصار هؤلاء القوم شركاءك في سلطانك وأنت غافل فان جاء متظلم حيل بينك وبينه .

هكذا كان المسلمون في العالم حكاماً ومحكومين ،السلطان يعمل والواعظ يعظ . والناس آمنون والحرية مشاعة شاملة . وبهذه الحرية التي تمتع بها العرب في دولهم ، قبل ان تعرف معناها امة من الامم قبلهم ، نشأ رجال في السياسة والحرب والادارة والعلم والفن والصنائع والتجارة كانوا غرة في جبين الدهر .

وكان الغربيون خلال القرون الطويلة التي كان فيها العرب أنجب أمة من أمم الخليقة يتراءى اليهم ماتم من الرقي في بلاد العرب والمسلمين بواسطة الاندلس وصقلية وايطاليا أولا ثم عن طريق الصليبيين ، فتصبو نفوسهم الى تحقيق مثله أو بعضه في ربوعهم ، وأنى لهم وفرسانهم وملوكهم كانوا أدوات للتدمير لا للتعمير ، تغلب الفظاعة على أعمالهم وتبدو السماجة في تضاعيف مجتمعهم .

كلمات لبون عن تأثير العرب في الغرب : كان تأثير العرب في الغرب عظيما واليهم يرجع الفضل في حضارة أوربا لقد أثروا في بلاد المشرق بالدين واللغة والصنائع ، أما في الغرب فلم يؤثروا في الدين ، بل بتعاليمهم العلمية والأدبية والأخلاقية ، لقد كانت المدنية الاسلامية في اسبانيا زاهرة باهرة ، بينما كانت المراكز الرفيعة في عامة بلاد الغرب عبارة عن مجموعة أبراج يسكنها سادة نصف متوحشين ، يفاخرون بانهم أميون لا يقرأون ولا يكتبون . ولما شعرت بعض العقول المستنيرة في اوروبا بالحاجة الى نفض كفن الجهل الثقيل الذي كان الناس ينؤون تحته ، طرقوا أبواب العرب يستهدونهم ما يحتاجون اليه ، لأنهم كانوا وحدهم سادة العلم في ذاك العهد فالى العرب والى العرب وحدهم ، يرجع الفضل

في معرفة الاقدمين ، والعالم مدين لهم على وجه الدهر لانقاذهم هذا الكنز العلمي الثمين . يقول ليتوى : لو حذف العرب من التاريخ لتأخرت نهضة الآداب عدة قرون في الغرب . وقال لبون في مكان آخر : ولو مشى الغرب تحت راية العرب ، لتسامت منزلته ، ولرقت اخلاق أهله . وقال أيضاً : كان تأثير العرب في عامة الاقطار التي احتلوها عظيما جداً في الحضارة ، فقد رأينا البلاد تتبدل صورتها حينما خفق علم الرسول الذي أظلها بأسرع ما يمكن ، وأزدهرت فيها العلوم والفنون والآداب والصناعة والزراعة أي ازدهار .

جدول الأخطاء في الآيات الكريمة

صفحة	الخطأ	الصواب
٢٦	وإذا قال لقمان	وإذ قال لقمان لابنه
٤١	افئدة	افئدة
٤١	للذي ببكة مباركا فيه وهدى للعالمين	للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين
٥٦	انظروا ماذا في السموات وفي الأرض	انظروا ماذا في السموات والارض
١٧٦	انظروا ماذا في السموات وفي الارض	انظروا ماذا في السموات والارض

جدول النقص في ترقيم الآيات

٤٢	سورة الفجر ٨٩ آية ٧	سورة الفجر آيات ٧ ، ٨ ، ٩

* * *

الفهرس

شرح الأشكال

بعض آثار المؤلف

علم الوراثة

الرياضات المسنونة

نظرات في ابن القيم

نظرات في المسكرات

نظرات في الدخان

نظرات في القهوة والشاي

نظرات في الصيام

المسكرات والمخدرات والتبغ والقات

الثقافة الصحية والغذاء في الاسلام

النظافة والحركة والرياضات في الاسلام

ابن سينا واثر طبه في العالم . باللغات العربية والانجليزية والفرنسية

ابن طفيل

مجموعة ابحاث في الحضارة العربية والاسلامية

العلوم في المجتمع العربي

معجم حكماء العرب والاسلام

